

مِرْقَاةُ الْيَقِينِ
فِي
حَيَاةِ نُورِ الدِّينِ

إعداد:

أكبر شاه خان النجيب آبادي

ترجمة: محمد أحمد نعيم

اسم الكتاب: مرقاة اليقين

الطبعة الأولى: ١٤٤٥ هـ الموافق لـ ٢٠٢٤ م

An Arabic rendering of

Mirqaatul-Yaqeen (Urdu)

Written by:

Akbar Shah Khan Najeebabadi

Translated from Urdu by: Muhammad Ahmad Naeem

First Published in UK in 2024

© Islam International Publications Ltd.

Published by:

Islam International Publications Ltd.

Unit 3, Bourne Mill Business Park,

Guildford Road, Farnham, Surrey, GU9 9PS

United Kingdom

Printed in the UK at:

Raqeem Press

Farnham, Surrey

GU9 9PS

For further information please contact:

Phone: +44 1252 891330

Fax: +44 1252821796

www.islamahmadiyya.net

ISBN: 978-1-84880-818-8

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس المحتويات

أ	مقدمة الناشر
١	مقدمة
١	إنسان عظيم
٢	مماثلته مع سيدنا أبي بكر الصديق <small>رضي الله عنه</small>
١٣	مقدمة المؤلف السيد أكبر شاه خان النجيب آبادي
٢٨	شجرة النسب
٤٤	الدين والعقائد
٥٥	خطبة الجمعة التي ألقاها حضرته في ٢٣/٨/١٩٠٧
٥٧	خطبة الجمعة التي ألقاها حضرته في الجلسة السنوية عام ١٩١٠م
٦٩	نور الدين الأعظم
٦٩	الطفولة وعنقوان الشباب
٧٣	رامبور ولكهناو
٩٣	أول مرة في "بھوبال"
١٠٧	السفر إلى الحرمين الشريفين
١٢٠	المدينة الطيبة
١٢٨	مرة ثانية في مكة المعظمة
١٣٥	مدينة بهيره

١٤٧	رحلة عجيبة
١٥٣	مرة أخرى في بهوبال
١٥٨	بهيرو
١٦٥	ولاية جامون وكشمير
١٩٧	خاتمة مضمخة بالعطر
١٩٩	أفراد العائلة، أيام الطفولة
٢١٠	الأهل والعيال
٢١٤	عهد الشباب وطلب العلم
٢٢١	الأساتذة
٢٢٥	المعارف والأصدقاء
٢٣٢	الوطن .. بهيرو وغيرها
٢٤٤	مدينة "لكهنأؤ" و"رامبور" وغيرهما
٢٥١	كشمير وجامون
٢٦٤	بعض السادة المشايخ
٢٧٥	الشيعة
٢٨١	النصارى
٢٨٨	الهندوس والملاحدة
٢٩٥	أحداث مختلفة
٣٠٩	حياة حضرة الخليفة الأول في قاديان
٣٠٩	بداية الهجرة

٣١١	مشاغله في قاديان
٣١٢	تأليفاته
٣١٢	معاشه
٣١٣	رحلاته
٣١٤	عهد الخلافة
٣١٥	تلامذته
٣١٥	أقاربه
٣١٦	أحداث من عهد خلافته
٣١٧	مرض الموت
٣١٧	ذريته
٣١٨	وصاياه



بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة الناشر

يسعدنا أن نقدم لقراء العربية ترجمة كتاب رائع عن سوانح سيدنا المولوي الحكيم الحاج نور الدين البهيري رحمته الله الخليفة الأول لسيدنا المسيح الموعود عليه السلام وهو في الحقيقة سيرة ذاتية أملاها حضرته على المؤلف السيد أكبر شاه خان النجيب آبادي، وهو أول كتاب صدر في هذا الموضوع.

لقد حظي بتعريب هذا الكتاب الداعية الإسلامي الأحمدي محمد أحمد نعيم وصدر بإشراف المكتب العربي المركزي بتعاون عدد من الإخوة العرب الذين أسهموا في أعمال المراجعة والتدقيق، ونخص بالذكر المهندس خالد عزام، والدكتور علي خالد البراقي، والدكتور وسام البراقي والأستاذ حلمي مرمر والسيد أسامة عبد العظيم المحترمين.

نتقدم بخالص الشكر لكل من ساهم في نشر هذا الكتاب داعين أن يجزيهم الله أحسن الجزاء ويجعله في ميزان حسناتهم، كما نسأل الله تعالى أن يوفق القراء الكرام للاستفادة من هذا الكتاب القيم ويجعله سببا لمن يريد أن يتأسى بأسوة هذا الرجل العظيم الذي نعته إمام الزمان عليه السلام قدوة وتمنى أن يكون كل فرد من الأمة مثله، آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم: مولانا جلال الدين شمس

هذا الكتاب يحتوي على أحداث ووقائع تقوي الإيمان من حياة حاج الحرمين حضرة المولوي الحكيم نور الدين رحمته الله الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام، وهذه السيرة الذاتية كان حضرته رحمته الله قد أملاها شخصيا على مؤلف الكتاب أكبر شاه خان النجيب آبادي، وكان جزء كبير منها قد نُشر سلفًا في جريدة "الحكم".

إنسان عظيم

لا شك أنه رحمته الله كان إنسانا عظيما خالدا وعالما ربّانيًا، ولقد أكرمه الله بفضله العظيم ووفقه لينال سعادة كونه خادما مخلصا للمسيح الموعود عليه السلام. إن انضمامه إلى الجماعة الإسلامية الأحمديّة كان ثمرة أدعية المسيح الموعود عليه السلام؛ فقد قال حضرته عليه السلام في كتابه "التبليغ":

"... وكنت أصرخ في ليلي ونهاري، وأقول يا ربّ من أنصاري؟ يا رب من أنصاري؟ إني فرد مهين.

فلما تواتر رفع يد الدعوات، وامتلاً منه جوّ السماوات، أجيب تضرعي، وفارت رحمة رب العالمين. فأعطاني ربي صديقاً صدوقاً.. اسمه كصفاته النورانية نور الدين.. ولما جاءني ولاقاني ووقع نظري عليه، رأيته آيةً من آيات ربي، وأيقنت أنه دُعائي الذي كنت أداوم عليه، وأُشْرِبَ حَسِّي وَتَبَّأني حَدَسِي أنه من عباد الله المنتخبين. وكنت أكره مدح الناس ومحمدهم وبثَّ شمائلمهم، خوفاً من أنه يضر أنفسهم، ولكنني أرى أنه من الذين انكسرت جذباتهم النفسية، وأزيلت شهواتهم الطبيعية، وكان من الآمنين.... يختار في حَيِّ أنواع الملامة والتعنيف، ومفارقة المألّف والأليف. ويتسقى له هجر الوطن لسماع كلامي، ويدعُ التذكر للمعاهد حبّ مقامي، ويتبعني في كل أمري كما يتبع حركة النبض حركة التنفس." (التبليغ، الخزائن الروحانية، ج ٥ ص ٥٨١-٥٨٦)

لا شك أنه حائز على فخر أنه أول لبنة في قصر الأحمديّة، وهي رائعة وجميلة جداً وتزيد القصر رونقا وجمالا، لكنني لا أقصد في هذه المقدمة بيان محاسنه وفضائله وخدماته الجليلة وتضحياته العظيمة، لأن هذا الكتاب زاخر من هذه المعلومات. إلا أنني أرى من الضروري ذكر أمر معين، هو أنه كتب في رسالة إلى المسيح الموعود عليه السلام بعد إبداء علاقة الحب والإخلاص له ابتغاء مرضاة الله وبعد قوله: "إنني فداء لك وكل ما لي ليس ملكي وإنما هو لك" "ادع الله تعالى أن أموت ميتة الصديقين." وقد حقق الله تعالى أمنيته هذه ورزقه مقام الصديقين.

مماثلته مع سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه

لقد ذكر سيدنا المسيح الموعود عليه السلام في كتيب "الوصية" خلافة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه مثالا لظهور القدرة الثانية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. ومن العجيب

أن الإنسان الذي جمع الله ﷺ على يده صحابة المسيح الموعود ﷺ بعد وفاته يشبه أبا بكر الصديق ﷺ في أمور كثيرة، فمثلاً:

١- كان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال دون أي تردد أو شك، فقد قال النبي ﷺ:

إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَعُلْتُمْ: كَذَبْتُمْ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتُ. (البخاري، كتاب التفسير)

كما قال ﷺ في موضع آخر:

ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر ما عتّم حين ذكرته له، وما تردد فيه. (السيرة النبوية لابن هشام المجلد الأول) كذلك قد كتب سيدنا المسيح الموعود ﷺ بحق حضرة الحاج الحكيم المولوي نور الدين ﷺ:

"إنه آمن بي بدون تردد في وقت كانت أصوات التكفير تكاد ترتفع من كل حذب وصبوب. وكان الكثيرون قد فسخوا عهد البيعة بعد توكيده، واستكان الكثيرون وتذبذبوا. عندها جاءني في قاديان رسالة من حضرة المولوي المحترم (نور الدين) قبل غيره تصدق إعلان هذا العبد المتواضع بكونه مسيحاً موعوداً. وكانت الرسالة تتضمن الكلمات: "آمنا وصدّقنا فاكتبنا مع الشاهدين." (إزالة الأوهام، الخزانة الروحانية ج ٣ ص ٥٣١)

٢ - كذلك قد قال النبي ﷺ بحق سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ "وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر". (الترمذي)

وكذلك يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام بحق سيدنا المولوي نور الدين في بيان خصاله الحميدة في كتابه "إزالة الأوهام": "إن النصر التي لقيتها بماله لا أجد نظيرها" وقال في كتابه "مرآة كمالات الإسلام": "وما نفعني مال أحدٍ كماله الذي آتاه لوجه الله، ويؤتي من سنين." (التبليغ، الخزائن الروحانية ج ٥ ص ٥٨٣)

٣- كما اتفق جميع الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ على أن يكون حضرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أول خليفة له، فقد أجمع جميع أبناء الجماعة الإسلامية الأحمديّة بعد وفاة المسيح الموعود عليه السلام على أن يكون سيدنا الحاج الحكيم المولوي نور الدين رضي الله عنه أول خليفة له، وعن ذلك نُشر الإعلان التالي في جريدة بدر.

"أما بعد، فطبقاً لتعليمات سيدنا المسيح الموعود عليه السلام الواردة في كتيب "الوصية"، فإننا، نحن الأحمديين الموقعين أدناه، نتفق بصدق القلب على أن يبايع كل فرد من الجماعة الإسلامية الأحمديّة -سواء الموجودون فيها حالياً أو الذين سينضمون إليها فيما بعد- باسم أحمد، على يد أول المهاجرين سيدنا الحاج المولوي الحكيم نور الدين المحترم، فهو أعلمنا وأتقانا جميعاً، وأخلص أصحاب حضرة الإمام عليه السلام وأقدمهم، وقد عدّه حضرة الإمام عليه السلام أسوة حسنة لغيره من الأتباع، كما يتجلى من بيت شعر له:

چہ خوش بودے اگر ہریک زامت نور دین بودے

ہمیں بودے اگر ہر دل پر از نور یقیں بودے

أي: ما أروع لو أصبح كل واحد من الأمة مثل نور الدين، ولا يتأتى ذلك إلا إذا فاض كل قلب بنور اليقين.

وسوف نعدُّ أوامر حضرة المولوي بمنزلة أوامر سيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه الصلاة والسلام".

أسماء الموقعين

رحمة الله (مالك المستودع الإنكليزي بلاهور)، الصاحبزاده مرزا محمود أحمد، مفتي محمد صادق عفا الله عنه، سيد محمد أحسن الأمروهي، سيد محمد حسين الجراح المساعد لاهور، المولوي محمد علي محرر مجلة مقارنة الأديان، خواجه كمال الدين، الدكتور مرزا يعقوب بيك، خليفة رشيد الدين الجراح المساعد، مرزا خدا بخش، شيخ يعقوب علي محرر جريدة الحكم، أكبر شاه خان النجيب آبادي، نواب محمد علي خان زعيم مالير كوتله، الدكتور بشارة أحمد الجراح المساعد وغيرهم.

وبهذه المناسبة قام مير ناصر نواب وقال بلهجة مليئة بالرقّة والخشوع وبكلمات أليمة إن الجدير الوحيد بأخذ البيعة وخلافة المسيح هو حضرة المولوي فقط. وقبل هذا ورد: "حين سئلت السيدة الزوجة حضرة أم المؤمنين فهي الأخرى قالت: من أجدر بخلافة المسيح الموعود عليه السلام من حضرة المولوي؟ واتفق معها حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد أيضا." (بدر ١٩٠٨/٦/٢)

لقد حلّ الله تعالى بواسطة خلافة حضرة المولوي عليه السلام السؤال أيضا للأبد هل ستكون خلافة المسيح الموعود بحسبما ورد في الوصية فردية أو ستخلفه هيئة، وهل سيكون من الواجب على كل أحمدي أن يبايع الخليفة الجديد ويستجيب لأوامره أم لا؟ لقد أخضع الله تعالى بحكمته البالغة رقاب جميع الذين كانوا سيثيرون الخلافات بشأن خلافة المسيح الموعود أمامه، وبواسطتهم وبتواقيعهم

تمت عملية انتخاب الخلافة بحذافيرها، وعندما أبدى بعضهم التكبر في عهده فقد طمس بمنتهى العزم والإرادة روح التمرد تلك. فقد قال في خطاب له ألقاه في مسجد في "أحمدية بلدنغس" في لاهور سنة ١٩١٢ بلهجة جلالية:

أنا أشهد الله تعالى أنه بنفسه قد جعلني خليفة... فإن قال أحد إن "الأنجمن" هي التي جعلتني خليفة فهو كاذب. إن مثل هذه الأفكار تقود إلى الهلاك، فاحذروا منها. استمعوا جيدا وأنصتوا مرة أخرى، لم يجعلني خليفة أي إنسان ولا أي أنجمن، ولا أعتبر أي أنجمن أهلا لأن تجعل أحدا خليفة فلم تجعلني أي أنجمن خليفة ولا أقيم وزنا لفعالها هذا ولا أبالي مطلقا بتركها فليس لأحد الآن القدرة على أن يسلب مني رداء الخلافة هذا.

ينشأ الآن السؤال: من يستحق أن يكون خليفة؟ هناك عزيزي وحيبي الغالي محمود، وهو ابن سيدي ومحسني. ثم يمكن أن تقولوا إن صهر حضرته نواب محمد علي خان، ثم بصفته حما حضرته يستحق الخلافة ناصر نواب المحترم أو تستحق أم المؤمنين، حرم حضرته. فهؤلاء السادة حصرا يمكن أن يكونوا مستحقين للخلافة. ومع ذلك كم من الغريب أن الذين يدعون بأن حق هؤلاء قد انتهك، لا يفكرون في أن جميع هؤلاء يدينون لي بالطاعة والولاء، وهم لم يقدموا دعواهم لأولئك المعترضين.. إن أبناء حضرة المرزا يفتنونني من صميم قلوبهم. أقول لكم صدقا وحقا إنه لا أحد منكم يطيعني بإخلاص كما يطيعني أعزائي محمود وبشير وشريف، ونواب ناصر ونواب محمد علي خان. وأنا لا

^١ أي صدر أنجمن أحمدية، الهيئة الإدارية الرئيسة للجماعة الأحمدية، التي أسسها المسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

أقول هذا إرضاء لأحد منهم، وإنما أعلن عن الأمر الواقع أنهم يجبوني ابتغاء مرضاة الله تعالى. فقد سمعتُ أم المؤمنين تؤكد عشرات المرات أنها تعتبر نفسها أمة لي... إن ميان محمود قد كبر الآن ويستطيع أن يخبركم بنفسه أنه يطيعني بإخلاص. قد يزعم معترض أنه لا يطيعني بإخلاص، ولكني أعلم يقينا أنه يطيعني أكثر من أي واحد منكم. إن جميع أفراد عائلة مرزا صاحب السليمان يطيعونني كما كان عليّ وفاطمة والعباس يطيعون أبا بكر وأكثر، رضي الله عنهم أجمعين. إن كل فرد منهم يدين بالولاء والإخلاص الصادق لي، حتى إنني لا أتصور أن أحدا منهم يمكن أن يحمل لي أي خاطر سيئ.

اسمعوا، إنني لم أرغب مطلقاً بأن أكون خليفة. وقبل أن أكون من تلاميذ حضرة المرزا المحترم كنت أرتمي ملابس كالتي أرتميتها اليوم. وقد حظيت بصحبة أصحاب العلا والسلطان، وبقيت عندهم محافظاً على عزة النفس والوقار، وكنت أرتمي ملابس بالأسلوب نفسه. وبعد أن صرت تلميذاً للمرزا السليمان لم أغير أسلوب في الحياة. وبعد وفاته فعل الله تعالى ما شاء، ولكن لم يخطر على بالي قط أنني سأكون خليفة، غير أن الله تعالى أراد ذلك بخالص حكمته، فجعلني لكم إماماً وخليفة، كما جعل أولئك الذين تظنون أنهم أحق مني بالخلافة، مطيعين لي. والآن، من أنتم لتعترضوا على ذلك؟ إذا كان لكم اعتراض بعد كل هذا فاذهبوا واعترضوا على الله، ولكن كونوا على حذر من العقاب الذي سيحل بكم بسبب هذه الوقاحة والازدراء... إنني لا أجامل أحداً، ولا أرغب حتى في تلقي تحياتكم، ولا أنا في حاجة لهداياكم أو عطاياكم. وأعوذ بالله من أن يخطر على بالي أمر نوال هذه الأمور. لقد أقام الله تعالى بيده

الخليفة الذي يعلم سبحانه أنه يستحق الخلافة، فمن يخالفه يكون كاذبا فاسقا ومتمردا. كونوا ملائكة واخضعوا وأطيعوا؛ ولا تكونوا مثل إبليس... فلن يجعلكم أحد خليفة، كما لا يمكن أن يصبح أحد خليفة في حياتي. عندما أموت فإن الذي يختاره الله تعالى للخلافة سوف يتقدم وسوف يقيمه الله بنفسه ليكون خليفة. إنكم عقدتم على يدي عهد البيعة، فلا تتخلوا أنفسكم خليفة. لقد جعلني الله تعالى خليفة، فلن أعتزل الآن لقولكم، وليس لأحد القدرة على أن يعزلي. (بدر ٤/٧/١٩١٢)

ثم قال حضرته عن من يخلفه وصية:

"وأما من يتبعني في منصب الخلافة فينبغي أن يكون تقيا ومحبا، وعالما وعاملا كريم السلوك. وعليه أن يعامل صحابة حضرته عليهم السلام، القدامى والجدد، بالعفو والصفح والستر. لقد كنتُ مخلصا وناصحا لكل واحد، وعليه هو أن يكون كذلك. وينبغي أيضا أن يستمر درس القرآن والحديث."

لقد طلب حضرته من المولوي محمد علي أن يقرأ هذه الوصية ثلاث مرات أمام الحضور في مجلسه، وجعله مصدقا، لكنه مع الأسف رفض مبايعة الخليفة بعده على عكس هذه الوصية وقال إن الخليفة الحقيقي للمسيح الموعود هي الأنجمن. وبذلك وضع الأساس للفرقة.

على كل حال قد أقام الله تعالى بواسطته "القدرة الثانية"، وبواسطته ظهرت عظمة الخلافة وأهميتها ومكانتها الحقيقية. لا شك أنه كان إنسانا عظيما، ولتمسكه بالمسيح الموعود عليه السلام وقربه منه وكونه أول خليفة بعده لا يمكن أن يتجاهله التاريخ، لكن بعض الأغبياء لعدم إدراكهم المكانة الحقيقية

للتابع والمتبوع كتبوا بحقه ﷺ والعياذ بالله "إنه كان يفوق متبوعه ﷺ في العلم والتقوى".

مع أن عظمتها كلها تكمن في اقترانه بالمسيح الموعود ﷺ، فهو نفسه قد قال لماذا يفضل العيش في قاديان على جميع المدن تاركا جميع أنواع الدخل والكسب الذي يمكن أن يناله فيها.

"أقول ردا على هذا باختصار؛ إني وجدت هنا ثروة غير فانية لا يسرقها اللصوص وقطاع الطرق. لقد فزت بمن لم يجده المتمدنون عبر ثلاثة عشر قرنا، فهل يليق بي أن أهييم وراء ثروة محدودة فانية تاركا هذه الثروة الخالدة، إني أقول حقا إنه لو أعطاني أحد مائة ألف روية بل عشرة ملايين روية يوميا على أن أترك قاديان فلن أقبل، إلا أن الإمام ﷺ إذا أمرني فسوف أستجيب له حتى لو لم أكسب ولا مئليما واحدا، فأصدقائي وأموالي وحاجاتي مقترنة باتباع هذا الإمام، وأنا أضحي بكل الحاجات الأخرى من أجل هذا الإنسان الواحد. (تفسير الخليفة الأول ﷺ، تفسير سورة الجمعة)

ثم قال وهو يوجه الخطاب إلى ضيوف الجلسة السنوية:

لا تفكروا فيّ أيما تفكير، فمن أنا وما حقيقي، لو كنت عظيما لكان حريا بي أن أبقى في بيتي، ولو كنت طاهرا لما كانت لي حاجة إلى الإمام، وإذا كانت التزكية يمكن أن تتحقق بالكتب لما كانت هناك حاجة للإمام إذ كنت أملك كتباً كثيرة، لكن هذه الأمور لا تفيد شيئا.. وكذلك فإن جميع الحاضرين هنا مصابون بأمراض شخصية ... وأتينا هنا بغية العلاج؛ لذا ليس من المعقول إظهار العتاب على أي تصرف لنا ... المأمور الصادق

وحيد قد جاء مسيحا ومهديا؛ فاستعينوا بالله، وتعالوا إلى ذكر الله، الذي يعصمكم من الفحشاء والمنكر، وتأسوا بأسوته، واقتدوا به فهو وحده المقتدى والمطاع والإمام. (تفسير الخليفة الأول عليه السلام، تفسير سورة الجمعة)

ويقول حضرته في قصيدة عربية له قد نُشرت في كتاب "كرامات الصادقين":

فَوَاللَّهِ مُدُّ لَاقِيَتِهِ زَادَنِي الْهُدَى وَعَرَفْتُ مِنْ تَفْهِيمِ أَحْمَدَ أَحْمَدًا
وَكَمْ مِنْ عَوِيصٍ مُشْكَلٍ غَيْرِ وَاضِحٍ أَنَارَ عَلَيَّ فَصْرَتْ مِنْهُ مُسَهِّدًا

فالقول بحق هذا التابع المتفاني في متبوعه بأنه كان يفوق متبوعه في الإيمان

والتقوى لتجاسر شنيع.

لقد ورد في موضعٍ من هذا الكتاب اسم حضرته التاريخي "نور دين الأعظم" ولعل الهدف من ذلك إشارة إلى عام نشر هذا الكتاب، لكن استخدام كلمة "الأعظم" في الحقيقة ليس صحيحا، وبما أننا نسخناها من الأصل فلم نحذفها. وإلا فإن مدحه الحقيقي هو ما أورده المسيح الموعود عليه السلام، كما أن لقب خليفة المسيح أكبر الألقاب وكبرى الفضائل.

باختصار؛ إن طاعة حضرته عليه السلام للمسيح الموعود عليه السلام واتباعه له لبرهان ساطع على أنه كان قد تفانى في المسيح الموعود عليه السلام، ولهذا السبب قال المسيح الموعود عليه السلام بحقه:

"أتمنى من الأعماق أن يتأسى الآخرون بأسوة المولوي المحترم. فالمولوي المحترم نموذج للصادقين الأوائل. جزاهم الله خير الجزاء". (إزالة الأوهام، الخزان

الرواحانية ج ٣ ص ٥٢٢)

كما قال عليه السلام:

چہ خوش بودے اگر ہر یک زامت نور دین بودے

ہمیں بودے اگر ہر دل پر از نور یقین بودے

أي: ما أروع لو أصبح كل واحد من الأمة مثل نور الدين، ولا يتأتى ذلك إلا إذا فاض كل قلب بنور اليقين.

رزق اللہ ﷻ جميع أبناء الجماعة نور الإيمان والإيقان والعرفان مثله، ووقفهم

لاقتفاء آثاره. آمين، اللهم آمين

العبد المتواضع

جلال الدين شمس

۱۹۶۲/۱۲/۱۴

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة المؤلف

السيد أكبر شاه خان النجيب آبادي



رب إني ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. يا رب العالمين يا خالق السماء والأرض يا مصرّف الرياح ومسيرّ السحاب يا منزل الغيث من السحاب ويا مفرّج الأنهار من الجبال يا جالب الربيع بعد الخريف وجاعل الأرض الميتة الجافة محضرة بكرمك، يا قائل ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، يا رب المشرقين والمغربين يا ملك الدارين يا أحسن الخالقين يا أرحم الراحمين يا إلهي الحبيب يا الله! أيها المحبوب الكامل وأيها المقصود التام وأيها المعبود الكامل يا خالق الحيوانات والنباتات والجمادات كلها ويا خالق الأكوان كلها، يا رازق الدواب والطيور وكل ذي روح، يا مولاي يا راحة روحي يا قرّة عيني ويا سرور قلبي يا حافظ جسمي وروحي يا محقق آمالي يا من يجنبي أكثر من والديّ يا مجيب دعوة الداعين

ومغيث المستغيثين يا مالك العزة والذلة. يا غافر خطايا المخطئين برداء عفوك،
يا واهب القوة للضعفاء، يا ربي الحبيب يا الله! يا حبيبي يا حبيبي يا حبيبي الله
الله، يا ربي الحبيب الله ﷻ يا أجمل الجميلين يا أكثر الأوفياء وفاء، يا من تحب
من يحب أحبائك، يا عاصم نوح من الطوفان، يا منجي موسى ومغرق فرعون
يا سامع نداء يونس في بطن الحوت يا قائل ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، أنا
أيضا أقول لك وأنت أعلم بأني أقول من صميم فؤادي وبالتياغ القلب ﴿لَا إِلَهَ
إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، يا مكبر الصغار ويا منقذ الغرقى
وممسك المنهارين، انظر إلي أيضا برحمة، إن غضبك أقل من رحمك، وعفوك
أكبر من بطشك، اجعلني محل أفضالك ومواهبك، أنا لا أعرف إلام أحتاج
ولا أعلم ما الذي هو نافع لي وضار بي، يا إلهي يا ربي الحبيب هب لي كل ما
يُكسبني خيرا وحسنة ويفيد جسمي وروحي، يا إلهي الحبيب ارزقني في هذه
الدنيا وفي الآخرة أيضا أفضل مقام وأفضل الوسائل وأعلى النجاح والفوز، يا
إلهي يا الله! إذا كنت لا أعرف في أي شيء يكمن لي الخير، فأخبرني ما الذي
أسألك؟ أجل أقول لك ما علمتنا:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ
يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

يا إلهي، اجعلني مؤمنا ومفلحا. يا إلهي، سيرني على دورب رضوانك، يا
إلهي، وفقني لما ترضاه بحيث لا تسخط علي بعد ذلك أبدا، يا إلهي، لقد فزت

بكتابك وشريعتك بواسطة سيدنا محمد ﷺ ثم سهل علي فهم هذا الكتاب عن طريق خلفائه، والداي ريباني، فكل ذرة من كياني مدينة لمنهما، يا ربي أنت تعلم كل من أحسن إليّ بأنواع المنن في هذه الدنيا، أما أنا فلا أعلم أسماءهم كلهم، فاجز كل محسن إلي أفضل الجزاء وارفعه. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. يا إلهي أنزل أفضلك الغزيرة على كل من أحبهم واغمرهم برداء رحمتك بسبي، يا إلهي اجعلني محب الصالحين واجعلهم يحبونني، اللهم اجعلني نافعا للناس. يا إلهي هب لي قوة ووفقي لأن أستجيب لأوامرك بسهولة، يا إلهي ارزقني علما صحيحا نافعا، يا إلهي أغني بفضلك عن سواك من خلقك، يا إلهي هب لي في هذه الدنيا حياة فردوسية، واجعل الجنة، (التي هي أسمى مقام رضوانك) مثواي بعد الوفاة أيضا، يا إلهي يا ربي الحبيب يا قائل ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أخبرني أنت: بمن أستغيث غيرك؟ إلى من أتوجه تاركا عتباتك؟ إذا لم أسالك فمن أسأله؟ إذا لم تنصرتني فمن ذا الذي يقدر على نصرتي؟ يا حبيبي لقد أذنت كثيرا وعصيتك كثيرا وأنا طالب الراحة كثيرا، وأنا مقصر في العبادة، فاغفر لي بمحض فضلك وكرمك، فلا أقدر على حمدك والثناء عليك مهما بذلت من حماس وهمة في سبيل ذلك، وإن إحصاء مننك خارج نطاق همتي. رب إني ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

"يا إلهي خالق السماوات العلى أنت رحيم وراحم بل أرحم الراحمين ورب

فبفضلك فقط تتحول المحن إلى الراحة، فإذا أردت صار كل حزين مسرورا
 إذا أردت فجرت من الجبال أنهار اللبن، وإذا أردت خلقت من الحنظل عسلا.
 إذا أردت رفعت المنحط، وإذا أردت جعلت طريح الأرض يتبوأ العرش العظيم.
 إذا أردت صارت كل معصية طاعة، وإذا أردت أصبح أكبر شاه خان نور
 الدين"^١.

يا رب العالمين، ألتمس منك أن توصل هدايا الصلاة والسلام بعدد لا
 حصر له إلى النبي ﷺ حتى يفرح بها حبيبي الذي هو أحب إلي من نفسي
 وروحي وشرفي فرحة لا تخطر على قلبي. اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد
 بعدد كل معلوم لك.

اللهم صل على سيدي أبي بكر الصديق وسيدي عمر الفاروق وسيدي
 عثمان الغني وسيدي علي وسيدي أبي عبيدة ابن الجراح، وسيدي طلحة
 وسيدي الزبير ابن العوام وسيدي سعد بن أبي وقاص وسيدي عبد الرحمن بن
 عوف وسيدي سعيد بن زيد وجميع أصحاب بدر وجميع أصحاب بيعة الرضوان
 وجميع المهاجرين وجميع الأنصار رضوان الله عليهم أجمعين وسلّم مني كثيرا.

اللهم بلغ سلامي جميع أئمة الحديث وأئمة الفقه وأئمة التصوف وسيدنا
 خالد ابن الوليد وسيدنا عمر ابن عبد العزيز، والمهتدي بالله العباسي والسلطان
 صلاح الدين ومحمد بن قاسم والسلطان محمد ناصر الدين محمود واسكندر
 لودهي وشير شاه أفغان وأورنغ زيب عالمغير ومحمد الثاني وسليم وسليمان من
 السلاطين العثمانيين.

^١ ترجمة أبيات أردية. (المترجم)

يا إلهي، قد انتفعتُ كثيرا من كتاب إحياء العلوم للإمام الغزالي، وفتوح الغيب لحضرة الشيخ سيد عبد القادر الجيلاني، وتقوية الإيمان لحضرة مولانا محمد إسماعيل الشهيد، فبَلِّغهم سلامي الكثير.

يا إلهي الحبيب أما حبيبك المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام فقد حَسَنَ ديني ودنياي كليهما وأنت تعلم أني ببركته فقط قد حظيت بإيمان صادق وقوي، فلا أحد غيرك يقدر على ردِّ جميل هذا المحسن العظيم، يا إلهي أنت وحدك تقدر على جزائه. فأنزل يا إلهي على روح المسيح الموعود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتمتعة بالفتوح أقطار فضلك ونعمتك وبركتك وسلامك ورحمتك ورضوانك الغزيرة غير المنقطعة وأوصلْ إليه هداياي الغالية المتمثلة في الصلاة والتسليم التي لم يرسلها إليه أحد قبلي. أنزل على والديَّ وأخواتي وإخوتي وزوجتي وأولادي وأصدقائي وأساتذتي وتلامذتي -من أجل حبيبك المسيح الموعود- فضلا وكرما ومَتَّعْهم جميعا بحسنات الدين والدنيا والعفو والعافية. آمين يا رب العالمين.

أجل، يا رب العالمين هناك عبدك الحبيب، فإذا كان الحب ليس شيئا مكروها فأنا أقول إني أحبه، فاللذات التي تمتعت بها في حبه لا يسعني بيانها فضلا عن الشكر عليها. يا مولاي إن وجوده نافع جدا وأنت تقول ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّتُ فِي الْأَرْضِ﴾، فينبغي أن يعيش طويلا بحسب سنتك هذه التي سننتها، وأنا أيضا أرجو منك أيها الرب الرحمن الرحيم الكريم الرؤوف المنان الوهاب السلام الحي القيوم بمنتهى التواضع والانكسار ورغبة عارمة أن تطيل حياته بسلام وعافية لنا ووفقنا للاتفاف من أنفاسه القدسية. آمين يا رب العالمين.

علم الرياضيات يخلق في دماغ الإنسان الاتزان والقدرة على التوصل إلى النتائج من الأسباب، وعلم الأدب يعلمه حسن التدبير وحب النفاسة، وعلم الأخلاق يجعله نافعا للناس حبيبا لهم، ووقورا وجاداّ وعديم الضرر، وعلم الطبيعة يخلق الذكاء والدقة والتمعن. أما علم التاريخ فيمكن أن يوصف بأنه جامع لجميع العلوم الدينية والدنيوية ومورث لجميع النتائج المفيدة. لقد أودع الله ﷻ فطرة الإنسان مختلف القدرات ووهب له كفاءات لا حصر لها، وإذا تركت أي كفاءة باطلة ولم توظّف فهي تموت. فهؤلاء الفلاحون الذين لا تكون لهم طول حياتهم أي علاقة بعلوم الدنيا وتطوراتها وإنما عملهم ينحصر في الاعتناء بحقولهم الصغيرة وحيواناتهم المعدودة ولا يكون لهم شغل سوى شرب النارجيلة جالسين مساءً في مجلس الأصحاب؛ بعضهم في الحقيقة يملكون عقولا وكفاءات لو أوقظت ووظفت وتمت الاستفادة منها لأحرزوا إنجازات مثل أرسطو وبيكُن وتيمور و نابليون أو أكثر منهم في العالم ولأذهلوا العالم، فقد لوحظ أن أيتام كبار العائلات النجيبة العريقة المحتوية على العلماء والفضلاء يكونون في البداية على شاكلة آبائهم وأذكىاء وبيدون كأنهم سيقطعون أشواط التقدم والازدهار سريعا، لكن انعدام الوسائل والفرص الملائمة وعواقب الرفقة السيئة الوخيمة لا تتركهم ينهضون من قعر المذلة ويخرجون من زاوية الخمول. في الزمن السحيق قبل إمبراطورية الرومان نجد في أوروبا وحوشا آكلي جذور الأشجار ولاقيّ أوراق الأشجار الذين لم يكونوا يختلفون كثيرا عن الغوريلا، فإن لم يكونوا يتمتعون بكفاءات فكيف صاروا أساتذة العالم كله؟ كما أن الأفغان الجهلة الأميين من إقليم الحدود حين يتعلمون ويتثقفون فلا يبقون في أي معركة علمية متخلفين

عن أكفائهم.. وليس هناك حاجة للبراهين الكثيرة على أن الجواد الأزلي لم ييخل تجاه أي شعب في منح الكفاءات للتقدم، إلا أن مهمة تحريك هذه الكفاءات وتوظيفها قد عهدت إلى الإنسان بحيث يمكن أن يوظفها قدر ما يشاء ويقطع أشواط التقدم والرقي. ولم يكلف الله ﷻ أحياء أخرى غير الإنسان بتحريك القوى التي وهبها؛ فولد الكلب أيضا يقدر على السباحة في الماء كما يسبح الكلب الكبير، بينما الإنسان إذا لم يوظف كفاءاته الموهوبة فلا يقدر على السباحة حتى كولد الكلب. وقس على هذا.

باختصار؛ إن تأمين جميع الحوائج البشرية في الحياة بحاجة إلى تحريض وحث ما. وبعد التحريض على العمل الذي يتطلب التدريب، وباقتزان العمل والتدرب، يمكن تحقيق الفوز.

بعد توليد الحركة في المواهب الفطرية إن الشيء المفيد جدا والغالي والأهم الذي يبعث في الحقيقة على العمل والرياضة هو علم التاريخ، ويمكن أن نقول مثلا إن أعضاء الإنسان وكفاءاته هي كالألة، وإن مواهب الإنسان للتقدم تمثل أدوات هذه الآلة، والتاريخ وقودها أو بخارها، فبأبخرة التاريخ تُحرَّك جميع الأدوات والأجهزة، ومن هذا المنطلق إذا وصفنا علم التاريخ بجامع العلوم ومخزن الفنون فلم نبالغ، وإذا لم يكن التاريخ شيئا ذا قيمة عالية لضمَّ القرآن الكريم والكتاب المقدس والكتب السماوية الأخرى المسائل الرياضية بدلا من الوقائع التاريخية ولبيّنت مثلا علم البيطرة والاعتناء بالحدائق بتفصيلٍ بدلا من بيان قصص سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا داود عليه السلام.

التاريخ يخبرنا عن أحوال السلف الصالح، ويولد في القلب والدماع حماسا مباركا. وهناك في الفطرة الإنسانية ظمأ ورغبة من نوع خاص يدفع الإنسان إلى أماكن الملاهي والمسارح وسياحة البلاد وزيارة الجبال والصحارى ويجعله يعمل بأمر ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (العنكبوت: ٢١)، وهذا العطش نفسه يدفع الأولاد ليلا إلى سماع قصص البيغاء وهذا العطش نفسه يروى كما يجب بمطالعة التاريخ، ويحفز الإنسان على العمل بأمر ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٤) ويصير وسيلة مثلى للوصول إلى الهدف السامي. فنظرا إلى هذا المقتضى الفطري قد أودع خالق الطباع في الكتب السماوية الحلاوة التاريخية، فللقصص الخيالية والروايات الكاذبة والقصص التي لا أصل لها تأثير كبير، ولهذا اختار بعض الحكماء مثل مؤلف "كليلة ودمنة" تقديم المواعظ والنصائح في صورة قصص، إلا أن الفطرة الإنسانية خلقت مائلة إلى الأشياء الطاهرة الصافية الطيبة؛ فهي لا تميل إلى القصص الافتراضية بسبب رائحة الكذب والزور فيها، مع أنها لا تخلو من الحماسة وقوة الميل إلى الأحداث الصحيحة.. أي إلى التاريخ، ولهذا السبب لم يكن لعلم التاريخ علاقة بالذين تكون طبائعهم رذيلة وممسوخة ولم يكن لهم نصيب من هذا العلم، فلم يكن أي رذيل أو لئيم أو ملحد مؤرخا من الطراز الأول. لما كان الإنسان قد حُلق ليعيش عيشا جماعيا مع بني جلدته بالحب والمواساة، لذا كلما تعلق أي حادث ببني جلدته ازداد تأثيره، فأحداث أي ثور أو حصان لا تؤثر في الإنسان كما تؤثر فيه الأحداث من حياة أي إنسان، كما أنه لا يرغب في الاستماع إلى أحوال تاريخية لأي بلد أو شعب آخر كما

يرغب في الاستماع عن بلده وشعبه، ثم لا يشده تاريخ أي أمة أو دين كما يحن إلى التعرف إلى تاريخ أمته ودينه. فالحماس أو الفرح أو الحزن أو الغضب وغيره الذي ينشأ في قلوبنا إثر سماع أحداث أسلاف العائلة من جدتنا لا ينشأ مثيله إثر الاستماع إلى ظروف أسلاف أي أحد في المجتمع.

فالأمة التي تنشر أحوال تاريخها ووقائعها الماضية على وجه الكمال - حتى لو كانت في صورة القصص والأساطير والقصائد أو الأغاني الشعبية - تبقى فيها مزاياها القومية وخصائصها محفوظة، وهذه المزايا القومية لا تدع قلوب أفرادها تنكسر في أي ميدان أو مواجهة، بل تشد أزهرهم وتمكنهم من استعادة كمالاتهم الضائعة؛ فالإنسان الذي يجهل سوانح أجداده يمكن أن يرتكب خيانة عندما تسنح له الفرصة، أما الذي يعرف أن جده مثلا في مناسبة كذا تمسك بالأمانة غير مبال بمئات الألوف من الروبيات وكسب الصيت والشهرة، يستحيل أن يخون. مثل ذلك فإن الذي لا يعرف أوضاع جدّه يمكن أن ينجو بحياته متقبلا عار الهروب من المعركة، أما الذي يعرف أن جده كان قد غامر بحياته في المعارك الفلانية وكسب الصيت والشرف بثباته في المعركة وعدم الهروب منها، فسوف تصبح ذكري إنجازات أجداده سلاسل في قدميه عند نشوء فكرة الهروب، وقس على ذلك الوفاء والولاء والغدر والكذب والصدق والزنا والعفاف والحياء والفاحشة والبخل والكرم. فمعرفة أحوال الأجداد والأسلاف تنفخ روح الحياة في الشعوب والأمم وتحيي السلام والأمان.

للإسلام ممن لا تعد ولا تحصى على العالم، منها منة عظيمة أن المسلمين أنفسهم رَوَّجوا في العالم علم التاريخ وتقدمت الأمم الأخرى في هذا الفن

بتلقي هذا العلم من المسلمين، وكم من المؤسف أن المسلمين وحدهم في العصر الراهن يجهلون أوضاع أسلافهم!

كم كانت أمة بني إسرائيل عظيمة الشأن حتى تجرأوا على القول: ﴿نَحْنُ أُنْبَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ﴾ (المائدة: ١٩)! لكنهم حين غفلوا عن أحوال أسلافهم ظلوا يتردّون في قعر المذلة، فقد خاطبهم القرآن الكريم مرارا بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا﴾ (البقرة: ٤١) وذكّرهم بأجدادهم؛ فثبت أن لرفع أي أمة من الانحطاط إلى التقدم هناك وسيلة سامية وهي أن تُذكر أمامهم مرارا أوضاع أسلافهم وسوانحهم ويُنشر التاريخ القومي كثيرا.

فجزء التاريخ الذي تُذكر فيه أحداث متميزة ومؤثرة من حياة الناس الخصوصيين أنفع من التاريخ العام ويؤدي إلى النتائج، لأن القارئ يجد سهولة في أخذ النتائج من الأحداث، ولهذا السبب فإن ظروف سيدنا إبراهيم عليه السلام تؤثر في القلوب أكثر من تاريخ بني إسرائيل بأسره.

المؤرخون المعاصرون يركزون على أن يستخرجوا النتائج بأنفسهم موظفين مبادئ الدراية ويقدمونها للقارئ، وفيه عيب أن القارئ لا يحتاج إلى توظيف عقله أكثر، وبسهولة يصبح مقلدا للمؤرخ، ونتيجة لهذا التقليد تبقى النتائج المفيدة الكثيرة للتاريخ التي تنتجها العقول النشيطة المختلفة في معرض الخفاء والظلام. وفن التاريخ عند المسلمين يتميز بتركيزهم على صحة الرواية، وتشهد على ذلك الكتب الضخمة لأسماء الرجال والجرح والتعديل، وهكذا نطلع على الحادث الصحيح بكيفيته التامة، ثم تتأثر بها القلوب بحسب كفاءتها ومواهبها، وهذا ما تقتضيه الفطرة الإنسانية. فيمكن أن نفهم من

مثال ورشةٍ يشتغل فيها حداد ونجار وبنّاء وصائغ يوظفون كفاءاتهم السامية، فعندما يدخل أي حداد هذه الورشة فسوف يتوقف أكثر في المكان الذي يشتغل فيه الحدادون، وكذلك النجار سوف ينظر إلى عمل النجارين باهتمام أكبر، وقد يتلقى من هناك أمرا مهما عن مهنته، أما إذا أخذ مديرُ الورشة كل زائرٍ إلى حيث يعمل الصائغ ويقضي الوقت كله لعرض الحلي المختلفة ومهارات الصائغ، فمن الجلي أن الحداد والنجار أو الذي يشتغل في أمر آخر من السياح لن يستفيدوا من هذه الزيارة بخصوص عملهم، فالمناسب أن يشرف المدير على أمور الورشة المختلفة جالسا في مكتبه ويترك السياح يتجولون حيث يريدون بحرية.

هنا يمكن أن يقال: يجب أن يأخذ المؤرخ النتائج الصحيحة من كل قسم ولا يترك أي جانب دون نقد. لكن ذلك مجرد فكرة سارة، لأن عمله في كل حال سيبقى محدودًا حتما، بينما يتمنى الإنسان الحصول على الوسائل غير المحدودة للعلم.

والعيب الثاني الذي يعيب التاريخ في العصر الراهن هو أن المؤرخين يُضطرون لإقامة سلسلة الأحداث بحسب عقولهم وأفهامهم المحدودة ليتركوا الروايات القوية الجديرة بالثقة ويفضلوا الأفكار الضعيفة والروايات الموضوعية، وبذلك يمكن أن يُطمس التاريخ الأصلي وتظهر رواية كاذبة وقصة افتراضية، أما التواريخ التي كتبت بأسلوب إسلامي فليس فيها هذا العيب، إذ من المحتمل أن كل إنسان في حياته قد شاهد أحداثا كثيرة لم يدرك بعض الأمور منها، ففي مثل هذا الوضع لا يواجه المؤرخ الذي يركز على صحة الرواية

أي صعوبة، فهو يدون ما يسمع ويرى دون أي حذف أو تغيير، بينما يواجه المؤرخ من القسم الثاني مصيبة. فلما كانت صحة الروايات ضرورية جدا وهي تمثل حجر أساس في فن التاريخ الرائع، فوجب علينا أن نرى كيف نتحقق من صحة الروايات، ففي هذا الخصوص يعدّ بيان الراوي الذي يسجل أي حادث شاهده بأمر عينه هو الأهم، فواضح أن الذي تعرض للحادث شخصا يستطيع أن يبين تفاصيله عن نفسه بصحة أكثر، فكتب التاريخ التي هي السيرة الذاتية التي سجلها شخصا أناس صلحاء عظام أو أملاً على البعض أوضاع حياتهم يمكن أن تعد أفضل كتب التاريخ. فبعد هذه المقدمة أتوجه الآن إلى الهدف الحقيقي.

المسلمون المثقفون الذين يتقنون اللغة الإنجليزية ليسوا قلائل، فالمئات بل الألوف من الحائزين على شهادة البكالوريوس والماجستير موجودون في كل بقعة من البلد حيثما نتوجه، كما يوجد بكثرة السائرون على درب السير سيد أحمد خان والمتمسكون بالمراثي القومية أيضاً، والمشايخ من الطراز القديم الذين يلقون المواعظ في المساجد، والصوفية الذين يجالسون القبور يوجدون أكثر من اللازم، كما يوجد الخطباء المفوّهون وأصحاب المحاضرات التي تولّد حماسا كبيرا في القلوب، والكتّاب السحرة. فالذين كانوا يقاتلون بالسيف والسنان قد أصبحوا أصحاب محلات، والفلاحون الذين كانوا يحرثون الأرض ممسكين أذنان الثيران صاروا مؤلفي كتب، وأصحاب القدوم والمنشار أصبحوا من البنائين والمهندسين بتلقي علم رسم المخططات، وبعض بائعي الأدوية أو الحلاقين صاروا أطباء، وأكثر من

ذلك فإن بعض الشعوب المنحطة انضمت إلى الشعوب السامية، وغير ذلك. ففي الظاهر يمكن أن يعدّ وضع المسلمين هذا تقدماً نحو الازدهار، لكن الذين يملكون قلوباً عاقلة، ونظرة وقادة، يعرفون أنه لا يسمى ازدهاراً وتقدماً، ففي حياة السير سيد صرح "خواجة حالي" ما يفيد بأن وضع المسلمين هذا لا ينبغي أن يكون مثلاً وقدوة، لكن المطلعين يعرفون وأصحاب الفراسة يدركون أن الذين يفسرون القرآن الكريم بحسب هواهم متأثرين بهيبة الفلسفة المعاصرة والتقدم المادي في العصر الراهن لأي مدى فهموا حقيقة الإسلام فجعلوا كتاب الله نبراس الطريق. صحيح أن السير سيد لم يلق بالالمعارضة البعيدين عن الشريعة مئات الأميال والمنغمسين في أحوال العادات والتقاليد الوسخة وتاركي النور الإيماني متظاهرين في أزياء الدين، وبذلك يبدو جريئاً وباسلاً في النظرة العابرة، إلا أن شجاعته وجرأته كلها مدينة للفلسفة الحديثة والتقدم الأوروبي، وليست ناجمة عن الإيمان والإيقان بالله وكتابه، ولا يفهم أحد من قولي هذا أني أحتقر وأستخف بمساعي السير سيد، أو أهدف إلى الهجوم على نيته، بل إنه كان في رأيي صالحاً في نيته وينال أجر مساعيه عند الله، وكل ما أنجزه لعله كان بصدق النية وبعد أن رآه خيراً، لكن الإنسان إذا لم يكن مؤيداً بتأييدات غيبية ولم يتلق التوجيه الإلهي، فكيف له الوصول إلى الصراط المستقيم بعقله المحدود الناقص؟ إن إهمال القرآن الكريم وعدّ الدعاء عديم الجدوى قد جعلاً معظم المسلمين منحرفين متخبطين. إن شريعتنا لم تمنع أي نوع من التقدم المادي، بل قد بين القرآن الكريم وحده القواعد والمبادئ

لكل أنواع التقدم المادي بيانا شاملا. هنا أرى من الضروري أن أُبين بالتفصيل عظمة القرآن الكريم والإيمان الصادق بالله ﷻ وصفاته الحسنة ومن هو المسلم الصادق. لكن لما كان الهدف المتوخى هو التقرب إلى الحبيب عبر هذه السطور إلا أن الأوراق تظل محدودة ولا تفني بالغرض، بالإضافة إلى أنه قد وُضع في البال أن معظم قراء الكتاب يدركون هذه الأمور سلفا ويعرفون أنا لا نستطيع إحراز أي نجاح دون الدعاء، ولا يمكن الفوز بفلاح الدارين تاركين القرآن الكريم والسنة والحديث، لذا أكتفي بالإشارة إلى أن يقرأوا السيرة الذاتية لأحد الكمّل في هذا العصر (أي أمير المؤمنين سيدنا نور الدين) وينظروا هل تمثل سيرة هذا الإنسان الكامل الرباني أسوة حسنة أم لا؟ وهل يمكن أن يكونوا مسلمين صادقين ويفوزوا بفلاح الدارين بالتأسي بأسوته، أم لا؟

كم كان التأليف عن سوانح حياة أمير المؤمنين ضروريا، وإن هذا الأمر لغني عن البيان؛ فكلما ذكر الأستاذ شيخ يعقوب علي عرفاني حياة نور في جريدة الحكم لوحظت آثار الفرح والتشوق لدى الناس، لكن بما أنه يبدو أن مواجهة انتظار غير عادي لنشر حياة نور أيضا قد قدرت لنا مثل سوانح حياة سيدنا المسيح الموعود ﷺ ومولانا عبد الكريم السيالكوتي، فقد هيا الله ﷻ لمتشوقي حياة نور سكينة أخرى.

باختصار، إني شخصا قد جعلت الدعاء منذ البداية حجر الأساس لعملية، وإن الله ﷻ نفسه أرى يد القدرة في كل مناسبة.

نعم من الضروري أيضا أن أفصح هنا أن الله ﷻ كتب من نصيبي شرف التقدم إلى حضرته بالتماس، أن يُملِي عليَّ سيرته الذاتية، وينال طلبي القبول عنده، فالحمد لله رب العالمين. أرى أنه من المناسب في هذه المناسبة أن أبدي استغرابي هنا من أي كنت أحضر عنده ممسكا القلم والورق، فحين كان يلاحظني أثناء العمل أنتظره يقول لي: اكتب أنت أيضا، ومع أي بفضل الله ﷻ أستطيع أن أكتب محاضرات كثيرة بنصها وفصها بسهولة، فقد تمكنت من إنجاز كتابة كل كلمة له بحمة متناهية وحماس كبير، ومن هنا يمكن أن يدرك كل واحد بأي طلاقة كان حضرته يلقي الخطاب، لكنني عندما كنت أبيض ما كتبت بعد الوصول إلى البيت لا أتذكر أي غيرت أي جملة أو فقرة أو صححت النص كثيرا، فقد كتبت كل ما أملى عليَّ حرفيا، فيمكن أن يقدر القراء بأنفسهم كم من الأشخاص الذين يلقون الخطاب المتين ارتجالا موجودون في الهند، فقد أملى عليَّ كل ذلك حيث كان يحيط به من الجهات الأربع المرضى والمريدون والضيوف والطلاب وذوو الحاجات المختلفة، فكان يتوجه بين حين وآخر إلى هؤلاء، فتارة يملِي على أحد وصفة طبية وطورا يقرأ طلب أحدهم.. وبذلك كانت تجد أنامل يدي اليميني فرصة لتستريح لحظة.

أنا أعرف أنه ما لم يقم مؤلف السيرة بالنقد، وما لم يبد رأيه، وما لم يلفت انتباه القراء إلى المواضع المناسبة إلى النتائج، فلا تنشأ المتعة في السيرة الذاتية.

"إن جمال الحبيب مستغنٍ عن عشقنا الناقص وغير الكامل، فالوجه الجميل لا يحتاج إلى أي ماكياج."^١

وكذلك أنا لم أجد كتابة الحواشي أيضا مناسبة، ورأيت إنجاز مهمة كتابة حياة نور لشيخ يعقوب علي بنفسه غير ضروري، فهذا متن الكتاب، وسيكون كتاب "حياة نور" شرحا لهذا المتن إن شاء الله. فنحن بحاجة إلى "حياة نور" أيضا، وأنا أتمس من قرائي أن يطلبوا من شيخ المحترم نشر "حياة نور" عاجلا حتما.

فلم أعد أخشى الاعتراض: "لما كان مؤلف السيرة مريدا ومعتقدا عقيدته، فمن المحتمل أن اعتقاده أبقى النقد ناقصا." فهذا أنا أضع الأوضاع الصحيحة أمام القراء، فليتدبروا وليأخذوا النتائج بأنفسهم.

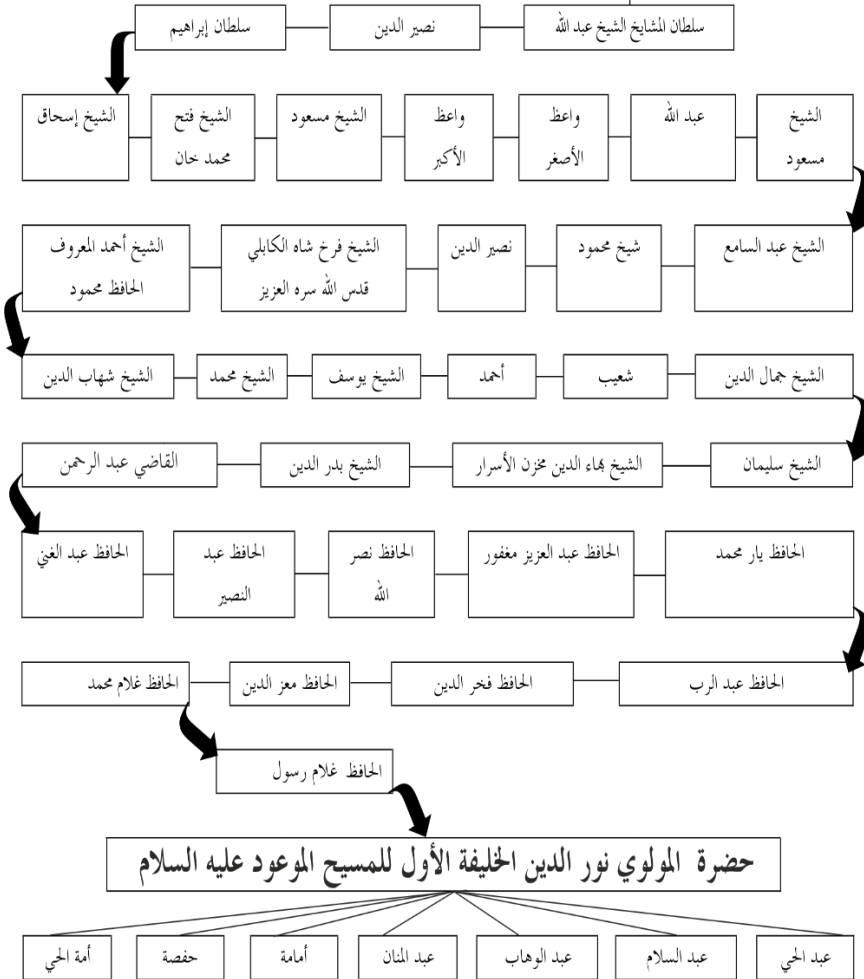
الآن أنسخ هنا شجرة نسب أمير المؤمنين من جريدة بدر وأرى من الضروري تسجيل الكلمات التي كتبها سيدنا المسيح الموعود عليه السلام بحق أمير المؤمنين في المقدمة.

شجرة النسب

سيدنا خليفة المسيح مولانا نور الدين من سلالة سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه الخليفة الثاني للنبي صلى الله عليه وسلم. لقد حصلنا على شجرة نسبه ونشرها في الجريدة ليطلع عليها العامة. فقبل ثلاثة عشر قرنا من اليوم حظي سيدنا عمر رضي الله عنه بخلافة النبي صلى الله عليه وسلم واليوم قد جعل الله أحد أنجاله الخليفة الأول لنبي. فالحمد لله على ذلك.

^١ ترجمة بيت فارسي. (المترجم)

أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله عنه



(نقلا عن جريدة بدر ٢٨/٣/١٩١٢)

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام

ما أروغ لو أصبح كل واحد من الأمة مثل نور الدين

ولا يتأتى ذلك إلا إذا فاض كل قلب بنور اليقين

أولا وقبل كل شيء أجد في قلبي حماسا لذكر أخي في الله، الذي اسمه "نور الدين"، وهو كمثل نور إخلاصه. إنني دائما أنظر متعجبا إلى بعض خدماته الدينية التي يقوم بها لإعلاء كلمة الإسلام ببذل ماله الطيب، وأتمنى لو أتمكن أنا أيضا من أداء هذه الخدمات. عندما أتصور حماسا أشربه قلبه لتأييد الدين تتماثل أمام عيني قدرة الله، وأستغرب كيف يجذب سبحانه إليه عباده. إن أخي هذا على أتم الاستعداد دائما لطاعة الله ورسوله بكل ماله وقوته وبكل ما أعطي من الأسباب. إنني أعلم يقينا بناء على تجربتي، وليس نتيجة حسن الظن فقط، أنه لن يقصر في بذل النفس والجاه في سبيلي دع عنك المال. ولو سمحت له لضحى بكل شيء في هذا السبيل وأدى حق البقاء الدائم في الصحبة المادية كما هو بالصحبة الروحانية.

أنقل هنا بضعة أسطر من بعض رسائله كنموذج للقراء الكرام ليعرفوا مدى تقدم أخي الحبيب المولوي الحكيم نور الدين البهيروي، الطيب في ولاية جامون، في مدارج الحب والإخلاص. وفيما يلي تلك الأسطر:

"مولانا ومرشدنا وإمامنا، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سيدي، أدعو الله تعالى أن أكون حاضرا في جنابكم دائما، وأن أنال من إمام الزمان جميع الأهداف التي من أجلها بعث مجددا. لو سمحتم لي لاستقلت من الوظيفة وبقيت على عباتكم ليل نهار. أو إذا أمرتموني تركت هذه العلائق

لأتجول في الدنيا وأدعو الناس إلى الدين الحق وأبذل نفسي في هذا السبيل.
إني لك الفداء، كل ما أملكه ليس لي بل هو لك كله.

يا سيدي ومرشدي، أقول بكامل الصدق إنه لو بُذلَ جلُّ مالي في سبيل
نشر الدين لفزتُ بمرامي. إذا كان مبتاعو نسخٍ من كتاب البراهين الأحمدية
والمسدودون لثمنها سلفاً قلقين لتوقف طباعة "البراهين الأحمدية" فاسمحو لي
بأداء خدمة بسيطة بأن أعيد إليهم ما لهم كله من جيبي الخاص.

سيدي ومرشدي، يقول هذا العبد الفقير النادم إنه لو قُبل ذلك لكان
مدعاة لسعادتي. إني أنوي أن أُكَلِّفَ بتحمُّل كل مصاريف طباعة "البراهين
الأحمدية"، وأن تُبذل النقود الواردة ثمنًا للكتاب لسد حاجاتكم. إن لي معكم
نسبة فاروقية، وإني على أتم الاستعداد لبذل كل غال ورخيص وطارف وتليد
في هذا السبيل. ادعُ لي من فضلك ليكون موتَي موت الصديقين."

إِنَّ صِدْقَ المولوي الممدوح وعزمه ومواساته وتضحيته يترشُّح من مقاله بل
يتجلَّى أكثر من خلال خدماته العفيفة. وهو يودّ مدفوعاً بعاطفة الحب
والإخلاص الكامل أن يضحّي في هذا السبيل بكل شيء، حتى أسباب معيشة
أهله الأساسية. إن روحه تدفعه -لحبِّه وإخلاصه المفرطين- للتقدم أكثر من
استطاعته، فهو عاكف على الخدمة في كل حين وآناً^١. ولكن من الظلم الكبير

^١ إن للمولوي المحترم باعاً طويلاً في علوم الفقه والحديث والتفسير، وإن علمه في مجال
الفلسفة وعلوم الطبيعة القديمة والحديثة غزير جداً. وهو طبيب حاذق، وقد أحضر الكتب
في جميع المجالات من مصر وبلاد العرب والشام وأوروبا، وجَهَّز مكتبة نادرة الوجود. وكما
أنه فاضل جليل في العلوم الأخرى كذلك له نظرة واسعة وشاملة في المناظرات الدينية

أن يُلقى على مخلص مثله كل الأعباء التي تفوق طاقته ولا يمكن أن تحملها إلا جماعة. لا شك أن المولوي المحترم سيقبل التخلي عن جميع عقاراته لأداء هذه الخدمة، وسيقبل أيضا أن يقول مثل النبي أيوب: "لقد جئت وحدي وسأغادر وحدي". ولكن هذا الواجب مشترك بين القوم كله. فمن واجب الجميع أن يتنبهوا إلى حسن عاقبتهم في هذا العصر الخطير والمليء بالفتن الذي يهزّ بشدة وبصدمات قوية علاقة الإيمان الدقيقة التي يجب أن تكون بين الله وعبده. وعليهم أن يتوجّهوا -بأذلين أحبّ ما عندهم من أموال ومسحّرين أوقاتهم للخدمة- إلى الأعمال الصالحة التي هي مدار النجاة. وأن يخافوا قانون الله المُحكّم، الذي لا مبدّل له الوارد في كلامه العزيز: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِبْتُمْ﴾ (آل عمران:

٩٣). (فتح الإسلام، الخزانة الروحانية ج ٣ ص ٣٥-٣٨)

إن صديقي المخلص المولوي عبد الكريم السيالكوتي وهو شاب مثقف بثقافة حديثة ومتصبغ بصبغة تربية حديثة، ويتحلّى بأفكار لطيفة، وقد تركت في قلبه تربية محي الصادق وأخي في الله المولوي الحكيم نور الدين، بصفته مربيا ومعلّمًا، تأثيرا طيبًا جدا، بل خارقا للعادة. (إزالة الأوهام، الخزانة الروحانية ج ٣ ص ١١٩)

(١) حي في الله؛ المولوي الحكيم نور الدين البهيريوي المحترم: لقد ذكرته بإيجاز في كتيب "فتح الإسلام"، غير أن مواساته الجديدة قد هيأت لي فرصة أخرى لهذا الذكر. إن النصرة التي لقيتها بماله لا أجد نظيرها لأكتبها بحذائها. لقد وجدته بطبعه، فانيا ومنشرح الصدر للخدمات الدينية. ومع أن حياته

أيضا. وهو مؤلّف كتب مفيدة جدا. وقد ألّف مؤخرا كتابا بعنوان: "تصديق البراهين الأحمدية" وهو أعلى من الجواهر في نظر كل باحثٍ منه.

اليومية مكرّسة في هذا السبيل، وهو خادم مخلص للإسلام والمسلمين من كل ناحية؛ لكنه يحتل مقام الصدارة بين مناصري هذه الجماعة، ويصدّق فيه لسخائه شطر بيت شعرٍ فارسي تعريبه: "ليس للمال قرار في أيدي الأحرار". ولكنه مع ذلك دفع ١٢٠٠ روبية نقداً، تأييداً للجماعة وسدّ حاجاتها المختلفة. أما الآن فقد أوجب على نفسه أن يدفع عشرين روبية شهرياً. وبالإضافة إلى ذلك هناك خدمات مالية أخرى من أنواع مختلفة يقوم بها باستمرار. وإنني لأرى على وجه اليقين أنه ما لم تنشأ علاقة كالتّي بين المحب وحبّيبه، فلا يمكن أن ينشأ في أحد انشراح كانشراح صدره. لقد جذبه الله تعالى إلى نفسه بيده القويّة، وقد أثرت فيه القوّة العليا تأثيراً خارقاً للعادة؛ فقد آمن بي دون أدنى تردد في وقت كانت فيه أصوات التكفير تكاد تصعد من كل حدب وصوب، ونكث الكثيرون عهد البيعة بعد توكيده، وتكاسل كثير منهم وتذبذبوا. فجاءتني رسالة من المولوي المحترم الممدوح قبل غيره إلى قاديان، تصدق ادعائي بكوفي المسيح الموعود، وكانت تتضمن عبارة: "آمنّا وصدّقنا فآكتبنا مع الشاهدين." ومن نماذج حسن اعتقاده وقوّة إيمانه؛ أنه قد جرى الحديث عني في مجلس في كشمير بينه وبين طبيب اسمه "جكن ناتھ" فقدم المولوي المحترم بكل قوّة واستقامة ادّعاءً أن الله تعالى قادر على أن يُري آية سماوية على يده (أي على أيدي أنا العبد الضعيف). وحين أنكر الدكتور ذلك، قبل المولوي المحترم - في مجلس يضم كبار أعضاء الولاية - شرطاً أنه لو لم يستطع (أي أنا العبد المتواضع) - في مدة متّفق عليها من قبل الفريقين - أن يُظهر آية سماوية، لدفع للدكتور ٥٠٠٠ روبية غراماً، أما الدكتور فقد أعلن بدوره أنه إذا شاهد آية، فسيُسلم فوراً. وقد وقّع على ذلك الإقرار الخطي الشهداء التّالية أسماؤهم:

- خان بهادر غلام محيي الدين خان؛ عضو المجلس العام، ولاية جامون.
- سراج الدين؛ المراقب والمسؤول الأعلى عن مكاتب البريد، ولاية جامون.
- سركار سنغ؛ سكرتير راجا أمر سنغ بهادر، رئيس البلدية.

ولكن للأسف الشديد تحايل الدكتور ولاذ بالفرار، حيث قدّم أمورًا معجزة غير جديرة بالقبول؛ فكان مما طلب من الآيات السماوية: أن يُحْيَا طَيْرٌ مَيِّتٌ، مع أنه على علم حتما أن ذلك يخالف مبدأنا. إن مبدأنا هو أن إحياء الأموات ليس من سنة الله، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء ٩٥). لقد قلت للدكتور المذكور بأنه لا لزوم لأن يحدد علينا آية سماوية معينة، بل كل ما ثبت كونه فوق قدرة الإنسان؛ وجب اعتباره آية سماوية. وإذا كان في ذلك شكٌ، فيجب عليك أن تُظهر أمرا آخر مماثلا؛ لتثبت أن ذلك الأمر ليس خاصا بالقدرة الإلهية، ولكن الدكتور تحاشى ذلك أيضاً. أما المولوي نور الدين المحترم، فقد أرى من قدّم صدقٍ ما يقدم دليلا محكّما على عظمة إيمانه. أتمنى من الأعماق أن يتأسى الآخرون أيضا بأسوته. إنه نموذج للصادقين الأوائل، جزاهم الله خير الجزاء، وأحسن إليهم في الدنيا والعقي. (إزالة الأوهام، الخزانة الروحانية ج ٣ ص ٥٢٠-٥٢٢)

ثم يقول عليه السلام:

ما زلتُ مذكُورًا من حضرة الرب، وأُحييت من الحي ذي العجب، أحنّ إلى عيان أنصار الدين، ولا حنينَ العطشان إلى الماء المعين. وكنت أصرخ في ليلي ونهارِي، وأقول يا ربّ من أنصاري؟ يا رب من أنصاري؟ إني فرد مهين.

فلما تواتر رفع يد الدعوات، وامتلاً منه جوّ السماوات، أوجب تضرعي، وفارت رحمة رب العالمين. فأعطاني ربي صديقاً صدوقاً، هو عين أعواني، وخالصة خُلصاني، وسلالة أحبائي في الدين المتين. اسمه كصفاته النورانية نور الدين. هو بَهَيْرُوي مولدًا، وفُرْشي فاروقي نسبًا، من سادة الإسلام ومن ذرية النجيبين الطيبين. فوصلتُ بوصوله إلى الجُذُلِ المفروق، واستبشرت به كاستبشار السيد (ﷺ) بالفاروق، ولقد أنسيْتُ أحزاني، مذ جاءني ولقاني، ووجدته في سبل نصرة الدين من السابقين. وما نفعني مال أحدٍ كماله الذي آتاه لوجه الله، ويؤتي من سنين. قد سبق الأقران في البراعة والتبرع والجدوى، ومع ذلك حلمه أرسخ من رَضوى. نَبَذَ العُلُقَ لله تعالى، وجعل كل اهتشاشه في كلام رب العالمين. رأيت البذلَ شِرْعَتَه، والعلم مُجْعَتَه، والحلم سيرته، والتوكل قوته، وما رأيت مثله عالمًا في العالمين، ولا في خُلُقِ مِمْلَاقٍ من المنعمين، ولا في الله والله من المنفقين. وما رأيت عبقريةً مثله مذ كنت من المبصرين. ولما جاءني ولاقاني ووقع نظري عليه، رأيتُه آيةً من آيات ربي، وأيقنت أنه دُعائي الذي كنت أداوم عليه، وأُشْرِبَ حَسِّي وتَبَّأني حَدَسِي أنه من عباد الله المنتخبين. وكنت أكره مدح الناس ومحمدهم وبتُّ شمائلهم، خوفًا من أنه يضر أنفسهم، ولكنني أرى أنه من الذين انكسرت جذباتهم النفسية، وأزيلت شهواتهم الطبيعية، وكان من الآمنين.

ومن آيات كماله أنه لما رأى جروح الإسلام، ووجدته كالغريب المستهام، أو كشجر أزعج من المقام، أشعرَ همًّا، وانكدر عيشه غمًّا، وقام لنصرة الدين كالمضطرين. وصنف كتبًا احتوت على إفادة المعاني الوافرة، وانطوت

على الدقائق المتكاثرة، ولم يسمع مثلها في كتب الأولين. عباراتها مع رعاية الإيجاز مملوءة من الفصاحة، وألفاظها في نهاية الرشاقة والملاحة، تسقي شرابًا طهورًا للنظرين.

ومثل كتبه كحبر يضمخ بعبر، ثم يُلَفّ فيه من درر ويواقيت ومسك كثير، ثم يُرْتَن فيه العنبر ويجعل كله كالعجين.

ولا شك أنها جامعة ما تفرق في غيرها من الفوائد، فاقت ما عداها لكثرة ما حواها من الشوارد والنوائد، ولجذب القلوب بحبال الأدلة والبراهين. طوبى لمن حصّلها وعرفها وقرأها بإمعان النظر.. فلا يجد مثلها من معين. ومن أراد حلّ غوامض التنزيل، واستعلام أسرار كتاب الرب الجليل، فعليه بالاشتغال بهذه الكتب وبالعكوف عليها، فإنها كافلة بما يبغيه الطالب الذهين. يُصبي القلوب أريج ريحانها، والثمرات مستكثرة في أغصانها، ولا شك أنها جنة فُطوفها دانية، لا يُسمع فيها لاغية، نُزّل للطيبين. منها: "فصل الخطاب لقضايا أهل الكتاب"، ومنها: "تصديق البراهين". تناسق فيها جزيل المعاني مع متانة الألفاظ ولطافة المباني، حتى صارت أسوة حسنة للمؤلفين، ويتمنى المتكلمون أن ينسجوا على منوالها، وترنمت بالثناء عليها ألسنة النحريين. جواهرها تفوق جواهر النحور، ودررها فاقت درر البحور، وإنها أحسم دليل على كماله، وأقطع برهان على ريبا نفحاته، وستعلمون نبأها بعد حين.

قد شمر المؤلف الفاضل فيها لتفسير نكات القرآن عن ساق الجِدِّ والعناية، واعتنى في تحقيقه باتفاق الرواية والدراية، فوَاهَا لهُممه العالِية، وأفكاره الوقّادة المرصية، فهو فخر المسلمين. وله ملكة عجيبة في استخراج دقائق القرآن،

وبثّ كنوز حقائق الفرقان، ولا شك أنه ينوّر من أنوار مشكاة النبوة، ويأخذ نوراً من نور النبي ﷺ بمناسبة شأن الفتوة، وطهارة الطين. امرؤ عجيب، وفقى غريب، تتفجر أنهار أنوار الأسرار بلمحة من لمحاته، وتتدفق مناهل الأفكار برشحةٍ من رشحاته، وهذا فضل الله يهب لمن يشاء وهو خير الواهبين.

لا ريب في أنه نخبة المتكلمين، وزبدة المؤلفين. يشرب الناس من عُباب زُلاله، ويُشترى كشرابٍ طهورٍ قواريرُ مقاله، هو فخر البرّة والخيرة وفخر المؤمنين. في قلبه أنوار ساطعة من اللطائف والدقائق، والمعارف والحقائق، والأسرار وأسرار الأسرار ولمعات الروحانيين. إذا تكلم بكلماته النظيفة الطيبة، وملفوظاته البديعة المرتجلة المبتكرة، فكأنه يصبي القلوب والأرواح بالأغاني اللطيفة، والمزامير الداودية الذفيفة، ويجيء بخارق مبین. يخرج الحكمة من فمه عند سرد الحديث وسوق الكلام، كأنها عُبب مندفقة متوالية متصاعدة إلى أفواه السامعين.

وإني قد أطلقتُ أُجْرَدَ فكري إلى كمالاته، فوجدته وحيدَ الدهر في علومه وأعماله وبرّه وصدقاته، وأنه لَوُدْعِيٌّ أَلْمَعِيٌّ، نخبة البررة، وزبدة الخيرة. أعطي له السخاء والمال، وعُلِّقت به الآمال، فهو سيد حُدَمِ الدين، وإني عليه من الغابطين. ينزل أهل الآمال بساحته، ويستنزلون الراحة من راحته، فلا يلوي عذاره عمن ازداره، وأمّ داره، وينفّح بعُرفه من وافاه من المملّقين.

وهو يجد للقياني بكمال ميل الجنان، كوجِدِ المثري بالعِقيان، يأتي من بلاد نازحة على أقدام المحبة واليقين. فتى طيب القلب، يحبنا ونحبّه، يسعى إلينا بجهد طاقة، ولو وجد فوقَ ناقة. انثال الله عليه من جوائز المجازاة، ووسائل الصلات،

وأيد ببقائه الإسلام والمسلمين. له بقلبي عُلُقٌ عجيبة، وقلبه نَفوح غريبة. يختار في حَيِّ أنواع الملامة والتعنيف، ومفارقة المألّف والأليف. ويتسّى له هجر الوطن لسماع كلامي، ويدعُ التذکر للمعاهد لبّ مقامي، ويتبعني في كل أمرٍ كما يتبع حركة النبض حركة التنفس، وأراه في رضائي كالفانين.

إذا سئل أعطى ولم يتباطأ، وإذا دعي إلى خِطّة فهو أول الملبين. قلبه سليم، وخلقّه عظيم. كرمه كغزارة السحب، وصحبته يُصلح قلوب المتقشفين. ووَثْبُهُ على أعداء الدين وثبة شبلٍ مثار، قد أمطر الأحجار على كفار، ونقّر عن مسائل الويديين ونقّب، ونزل في بقعة التّوكى وعاقب، فجعل سافل أرضهم عاليها، وثقّف كتبه تثقيف العوالي لإفضاح المكذبين. فأخزى الله الويديين على يده، فكأن وجوههم أُسِفّت رمادا، وأشربت سوادًا، وصاروا كالميتين. ثم أرادوا الكرة، ولكن كيف يحيا الأموات بعد موتهم، فرجعوا كالمخفّين. ولو كان لهم نصيب من الحياء لما عادوا، ولكن صار الوقاحة كالتحجيل في حلية هذا الجيل، فهم يصولون كمنذوحين.

والفاضل النبيل الموصوف من أحب أحبائي، وهو من الذين بايعوني وأخلصوا معي نية العقد، وأعطوني صفقة العهد، على أن لا يؤثروا شيئًا على الله الأحد، فوجدته من الذين يراعون عهودهم ويخافون رب العالمين. وهو في هذا الزمن الذي تتطاير فيه الشرور، كالماء المعين الذي ينزل من السماء، ومن المغتنمين. ما آنستُ في قلب أحد محبة القرآن كما أرى قلبه مملوءًا بمودّة الفرقان. شغفه الفرقان حُبًّا، وفي ميسمه يبرق حبُّ آيات مبین. يُقذّف في قلبه أنوار من الله الرحمن، فيرى بها ما كان بعيدًا محتجبًا من دقائق

القرآن، وَيَغْبِطُنِي أَكْثَرَ مَآثِرِهِ، وَهَذَا رِزْقٌ مِنَ اللَّهِ، يَرِزُقُ عِبَادَهُ كَيْفَ يَشَاءُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

قد جعله الله من ذوي الأيدي والأبصار، وأودع كلامه من حلاوة وطلاوة لا يوجد في غيره من الأسفار. ولفطرته مناسبة تامة بكلام الرب الجليل، وكم من خزائن فيه أُودِعَتْ لهذا الفتى النبيل. وهذا فضل الله لا منازع له في أرزاقه، فمن عباده رجال ما أعطي لهم بُلالَةً، ورجال آخرون أعطي لهم عَمْرٌ، وما هم به من المتعللين. ولعمري إنه امرؤٌ مواطنٌ عظيمة، صدق فيه قول من قال: "لكل علم رجال، ولكل ميدان أبطال"، وصدق فيه قول قائل: "إن في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا". عافاه الله ورعاه، وأطال عمره في طاعته ورضاه، وجعله من المقبولين.

إني أرى الحكمة قد فاضت على شفتيه، وأنوار السماء قد نزلت لديه، وأرى تواتر نزولها عليه كالمتضيفين. كلما توجه إلى تأويل كتاب الله بجمع الأفكار، فتح ينابيع الأسرار، وفجر عيون اللطائف، وأظهر بدائع المعارف، التي كانت تحت الأستار، ودقق ذرات الدقائق، ووصل إلى عروق الحقائق، وأتى بنور مبين. يمدّ العقلاء أعناقهم في وقت تقاريره متسلمين لإعجاز كلامه وعجائب تأثيره. يُرِي الحق كسبيكة الذهب، ويُزِيح شبهات المخالفين.

إن الوقت كان وقت صراصر الفلسفة، بل فسُدَّ وخُبُثٌ، ولملَمَلْ كلَّ حدثٍ ما حدث، وكان العلماء معروق العظم صفر الراجحة من دولة العلوم الروحانية، وجواهر الأسرار الرحمانية، فقام هذا الفتى وسقط على أعداء الرسول ﷺ كسقوط الشهب على الشياطين. فهو كحدقة العيون في العلماء،

وفي فلك الحكمة كالشمس البيضاء. لا يخاف إلا الله، ولا يرضى بالآراء السطحية، التي منبتها التجد غير حور، بل يبلغ فهمه إلى أسرار دقيقة المأخذ المخفية في أرض عور. فله دزه، وعلى الله أجره. قد أعاد الله إليه دولة منهوبة، وهو من الموفقين. والحمد لله الذي وهب لنا هذا الحب في حينه ووقته وأيام ضرورته، فنسأل الله تعالى أن يبارك في عمره وصحته وثورته، ويعطينا أوقاتا مستجابة للأدعية له ولعشيرته، ويشهد فراستي أن هذه الاستجابة أمر محقوق لا مظنون، ونحن في كل يوم من الآملين. والله إني أرى في كلامه شأنا جديداً، وأراه في كشف أسرار التنزيل وفهم منطوقه ومفهومه من السابقين. وإني أرى علمه وحلمه كالجبلين المتناوحين.. ما أدري أيهما فاق الآخر، إنما هو بستان من بساتين الدين المتين. رب أنزل عليه بركات من السماء، واحفظه من شرور الأعداء، وكن معه حيثما كان، وارحم عليه في الدنيا والآخرة، وأنت أرحم الراحمين. آمين ثم آمين.

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، هو وليي في الدنيا والآخرة. أنطقني روحه، وحركتني يده، فكتبت مكتوبي هذا بفضله وإيمائه وإلقائه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهو القادر في السماء والأرضين. رب، كتبت هذا المكتوب بقوتك وحولك ونفحات إلهامك، فالحمد لك يا رب العالمين. (التبليغ، الخزانة الروحانية ج ٥ ص ٥٨١-٥٨٩)

ثم يقول **الكتيب**:

للملوي الحكيم نور الدين شأن عجيب في إخلاصه وحبه وإيثاره وشجاعته لله وجوده ومواساته للإسلام. لقد رأينا كثيرين ينفقون القليل في

سبيل الله تعالى مع أنهم من ذوي الثروة العظيمة، أما أن ينفق أحدٌ ثروته الحبيبة ابتغاء رضا المولى ويبقى جائعاً عطشان وألاً يهتم بادخار شيء لنفسه في الدنيا، فإن هذه الصفة لم نرها بصورة كاملة إلا في حضرة المولوي نور الدين أو في الذين على قلوبهم أثر صحبته. ولقد أعطاني المولوي الموصوف إلى الآن تبرعاً قدره ثلاثة آلاف روية تقريباً. وما نفعتني مال أحد مثل ماله قط. لا شك أن هذا الطريق يخالف طرق الدنيا وأصول المعاشرة إلا أن الذي يؤمن بوجود الله تعالى ويعتبر دين الإسلام صادقاً ومن الله تعالى ويوفق في معرفة إمام زمانه ثم يتفانى في حب الله تعالى ورسوله ويضحى بماله الحلال والطيب في إعلاء كلمة الإسلام فلا بد أن يكون له شأن عظيم عند الله تعالى وهو يظهر من قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢)

لا يعدّ من محبي الله تعالى إلا الذين يقدونه بكل ما يملكونه
 الهم الوحيد الذي يشغل بالهم ليل نهار هو أن يرضى بهم رهم الحبيب بطريق
 أو بآخر.
 لقد فدى هؤلاء بنفسهم ونفيسهم في سبيله، مع ذلك يساورهم خوف أنهم
 لم يقوموا بالواجب
 فمن يعلق قلبه بذلك الإله القدوس فهم الذين يرحلون من هذه المعمورة
 طاهرين^١.

كثر الله تعالى أمثال هذا الرجل بمثل صفاته وعزيمته وهمته. آمين ثم آمين

^١ ترجمة أبيات أردية. (المترجم)

ما أروع لو أصبح كل واحد من الأمة مثل نور الدين
ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلا إذا فاض قلب كل أحد بنور اليقين.^١ (الآية
السماوية، الخزائن الروحانية مجلد ٤ ص ٤١٠)
ثم قال حضرته عليه السلام:

وإن أحبائي لمتقون جميعهم، ولكن أقواهم بصيرةً وأكثرهم علمًا، وأفضلهم
رفقًا وحلمًا، وأكملهم إيمانًا وسلمًا، وأشدّهم حبًا ومعرفةً وخشيةً و يقينًا وثباتًا،
رجلٌ مبارك كريم تقيّ، عالم صالح فقيه محدّث جليل القدر حكيم حاذق عظيم
الشأن، حاجّ الحرمين حافظ القرآن، القرشي قومًا والفاروقي نسبًا، واسمه
الشريف مع لقبه اللطيف: المولوي الحكيم نور الدين البهيري، أجزَلَ اللهُ مثوبته
في الدنيا والدين. وهو أول رجال بايعوني صدقًا وصفاء وإخلاصًا ومحبة ووفاء،
وهو رجل عجيب في الانقطاع والإيثار وخدمات الدين. أنفق مالاً كثيراً لإعلاء
كلمة الإسلام بوجهه شتى، وإني وجدته من المخلصين الذين يؤثرون رضى الله
سبحانه على كل رضاء ونساء وبنات وبنين. ووجدته من قوم بيتغون مرضاة
الله ويجتهدون لرضوانه ببذل أموالهم وأنفسهم، ويعيشون في كل حال شاكرين.
وإنه رجل رقيق القلب نقيّ الطبع حلِيم كريم جامعٌ لمآثر الخير، كثيرُ الانسلاخ
عن البدن ولذاته. لا يفوته موقع من مواقع البر، ولا موضع من مواضع
الحسنات، ويُحبُّ أن يسكب دمه كماء في إعلاء دين رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتمنى
أن تذهب نفسه في تأييد سبيل خاتم النبيين، ويقفوا أثر كل خير، وينغمس في
كل بحر لإجاحة فتن المتمردين.

^١ ترجمة بيت فارسي. (المترجم)

فأشكر الله على ما أعطاني كمثله هذا الصديق الصدوق، الفاضل الجليل
الباقر، دقيق النظر عميق الفكر، المجاهد لله والمحب في الله بكمال إخلاص ما
سبقه أحد من المحبين. (حمامة البشرية، الخزانة الروحانية ج ٧ ص ١٨٠)

الدين والعقائد

(بلسان حضرة أمير المؤمنين الخليفة الأول)

لقد أرسل ﷺ رسالة في سبتمبر ١٨٩٦ إلى رئيس تحرير جريدة البيان وأفصح فيها عن دينه وأنسخ هنا تلك الرسالة من جريدة الحكم. فقد كتب:

يا سيدي، ما هو ديننا؟ أقول باختصار: "أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله"

١- إن الله يتصف بجميع الصفات الكاملة ومنزه عن جميع النقائص والعيوب، وهو وحيد في ذاته وفذ في صفاته، وليس كمثلته أحد في أفعاله، وهو وحده لا شريك له في جميع أنواع العبادة.

٢- الملائكة مخلوق الله والإيمان بهم لا بد منه.

٣- وجميع الكتب السماوية

٤- وجميع الرسل والأنبياء

٥- إن رسول الله ﷺ المكي والمدني محمدا بن عبد الله بن آمنة خاتم النبيين ورسول رب العالمين وأن الكتاب قد نزل عليه، تؤمن به، فالإيمان به وبجميع هذه الأمور ضروري. إن القرآن الكريم قد وصل إلينا بالترتيب نفسه الذي قدمه النبي ﷺ دون نقص أو إضافة.

٦- إن مسألة القدر حق بأن الله عليم بكل ما حدث وسيحدث في المستقبل علما أتم وأكمل، فهو عالم الجزئيات أيضا. فجزاء الحسنه الحسنى وثمرة السيئة سيئة، وهو يعفو عن كثير.

٧- للنفس بقاء بعد الموت، وجميع الأمور التي وردت في القرآن الكريم من القبر إلى الحشر والنشر والصراط والجحيم والجنة قد ثبت بعضها في القرآن والبعض الآخر في الحديث، وكلها صحيحة.

٨- لا نسيء إلى الصحابة الكرام بدءاً من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلى معاوية والمغيرة رضي الله عنهما ولا نخفي في قلوبنا أي اعتقاد سيئ، ونحب أهل البيت من صميم الفؤاد، ونعدّ جميع أزواج النبي صلى الله عليه وآله من عائشة وخديجة إلى جميع أفراد عائلة النبي صلى الله عليه وآله والإمام الحسن السبط الأكبر والإمام الحسين السبط الأصغر شهيد كربلاء ووالدتهما البتول الزهراء سيدة نساء أهل الجنة من حزب الصالحين بصدق القلب، صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين. نؤمن بأن أولاد الأجداد للمولى علي المرتضى عليه السلام علي بن الحسين زين العابدين ومحمد باقر العلوم وجعفر الصادق وزيد بن علي ومن أولاد الصادق عليه السلام الحسن بن العسكري، كلهم كانوا علماء عاملين، وأئمة الدين. ونعد الإمام أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد بن حنبل من بين أئمة الفقهاء والبخاري ومسلم وأبا داود والنسائي من بين أئمة الحديث والخواجة معين الدين الجشتي والشيخ عبد القادر الجيلاني والخواجة النقشبندي والشيخ أحمد السرهندي والشيخ شهاب الدين السهروردي وأبا الحسن الشاذلي من أئمة التصوف جديرين بالتعظيم والاحترام. نعمل بالكتاب والسنة وإن لم نجد المسألة فيهما بالتصريح ففي هذا البلد نعمل بالفقه الحنفي؛ لذا نصلي إحدى عشرة ركعة من الفرائض في السفر، وسبع عشرة ركعة فرضاً في الحضر، بالإضافة إلى ثلاث ركعات للوتر، يصلي البعض عشرين ركعة رواتب والبعض أربعين ركعة، ونقرأ في كل ركعة سورة الفاتحة وشيئاً من القرآن الكريم،

ونسبح الله ﷻ في الركوع والسجود ونتشهد ونصلي على النبي ﷺ وندعو في القعدة الأخيرة. ونصوم شهر رمضان الفضيل كله، وندفع الزكاة بحساب واحد من أربعين إذا كان عندنا خمسمئة وعشرون غراما من فضة أو خمس وسبعون غراما من ذهب، والعُشر من حصاد الأرض البعلية، وواحدًا من عشرين من الأرض المسقيّة، ونحج البيت، ونسعى لإحراز الفضائل واجتناب الرذائل.

إِنِّي وَإِنْ أُقْتَلُ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ وَأُحْرَقَ

فَلَنْ أُوَلِّيَ دُبْرِي عَنْ إِيْوَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ^١.

ويقول ﷺ مخاطبا رئيس تحرير جريدة البيان: كلٌّ يعمل وفق هذا، ومع ذلك

لا نعرف لماذا ينقم منا الناس وأنت أيضا؟

١- لعل ذلك لأن المرزا أعلن أن الله ﷻ يكلمه، وكان إعلانه مبنيًا على مبدأ أن صفات الله ﷻ الآن، هي كما كانت؛ فإذا كان ﷻ يتكلم في الماضي فلماذا لا يتكلم الآن؟ ونحن ندعو الله ﷻ في ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أن يا ربنا اهدنا سبل الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. ومن هذه السبل المكلمة أيضا، فهل كفرنا حين أعلننا أنه يكلمنا؟ ومعلوم أن بني إسرائيل واجهوا الانتقاد على اتخاذ العجل بسبب عدم كلام معبودهم وهدايته لهم كما ورد ﴿أَمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ (الأعراف: ١٤٩)، فلماذا الآن ينكر المسلمون المكالمات الإلهية؟

٢- دعواه بأنه إمام ومجدد الدين، وكانت مبنية على مكالمات إلهية وحديث: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها."

^١ ترجمة بيت فارسي من نظم سيدنا المسيح الموعود ﷺ. (المترجم)

(أبو داود، كتاب الملاحم) وآية الاستخلاف في سورة النور. فقد ظل المجددون يُعْثون، فلماذا تعتبرون هذا القرن خالياً؟

٣- دعواه بأنه المهدي؛ وكان ذلك أيضاً مبنيًا على المكالمات نفسها، وحديث "لا مهدي إلا عيسى"، فهذا الحديث الصحيح موجود في أسفار الحديث، ومنها ابن ماجه أيضاً، لكن حضرتك قد سميت رواية باحتقار شديد وازدراء وأسأت إلى سيادة المرزا، حيث قلت إن المرزا اعتبر هذه الرواية حديثاً، مع أنه في الحقيقة حديث، ثم نتساءل ألا يكون المجدد مهدياً؟ العدل! العدل!

٤- دعواه بأنه عيسى بن مريم، وكان ذلك أيضاً مبنيًا على المكالمة الإلهية، والآية القرآنية: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانٌ وَالْحَنُوفُ عَلَيْهِمْ كَسْرٌ فَاسْتَغْفِرْ لَهَا إِنْ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنْهَا بِنْتُ عِمْرَانَ فَذَرْهَا سَبْحًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (التحریم: ١٣)، وقبل هذه الآية يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يَصْدُرُ مِنْهُ الْخَطَأُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ امْرَأَةٍ فَرَعُونَ، أَيُّهُ هُوَ يَتَّبِعُ الشَّيْطَانَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ ﴿وَنَجِّي مِنْ فِرْعَوْنَ﴾﴾ أما في هذه الآية فقد ذكر الصنف الثاني، فالمؤمن من الصنف الثاني محصن، فهو مريم، وعندما ينفخ فيه الكلام الإلهي يصبح من مريم "ابن مريم"، والسبب الثالث:

٥- فلما رزقني نورا من أجل القوم المسيحي، فقد سماني حكماً منه ابن مريم.^١ والسبب الرابع هو ما ورد في الحديث الصحيح "ينزل فيكم ابن مريم".

٦- دعوى سيادة المرزا أن ابن مريم قد مات، ولإثبات ذلك كتب حضرته

٨٠ كتاباً.

^١ ترجمة بيت فارسي من نظم سيدنا المسيح الموعود ﷺ. (المترجم)

٧- فالذين ماتوا موتا طبيعيا، فهم لا يرجعون إلى هذا العالم بجسمهم المادي ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١)

٨- لقد أصدر آلاف النبوءات التي تحققت، وهو في رأي البعض ليس صحيحا، فقد كتب المرزا حول ذلك كثيرا، بالإضافة إلى إيمانه بأن محمدا رسول الله ﷺ خاتم النبيين، وكتب آلاف الصفحات في حبه وعشقه، وكتب صراحة أنه نبي بمعنى صاحب النبوة، وقد سمي في الأحاديث وكلام الله نبيا غير مشرع، وهذا هو مذهب الصوفية، فتأمل هذا الباب من كتاب الفتوحات المكية. فمقالك وعنوانه قد تسبب في إيذاء أربع مائة ألف مسلم أحمدي، وإن كانت كثير من الجرائد والمجلات تؤيدك. ومع ذلك يا شيخ ليس زمنك زمن النبوة! ثم نسألك هل تلقيت وحي النبوة بهذا الخصوص أن زمنه ليس زمن النبوة أم هو فتوى إلحاديك؟

نور الدين

في فبراير ١٩٠٩ أرسل الأستاذ حسن نظامي الدهلوي رسالة إلى حضرته، والرد الذي أرسله حضرته ﷺ إليه هو التالي:

جناب مولانا المكرم والمعظم، قد استلمت رسالتك الكريمة، فأقول ردا على ذلك: إنني أنا وأبناء جماعتي نعد صحيح البخاري أصح الكتب بعد كتاب الله، وقد ورد فيه:

قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنُوا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَجَبَتْ ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: وَجَبَتْ، فَقَالَ عُمَرُ

بُنِ الْحَطَّابِ رضي الله عنه: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: هَذَا أَتْنَيْتُمْ عَلَيْهِ حَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَتْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ. (البخاري، كتاب الجنائز). وعندما أقرأ القرآن الكريم أجد فيه ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٤) ومن هنا يتبين أن تلك الحقيقة نافذة وسارية المفعول في أختيار كل زمن، ونحن نشاهدها دوماً، وبحسب هذا المعيار حين رأيت "حضرة نظام الحق والدين وسلطان الدين والعقبي"، أجد آلاف مؤلفة من الأختيار منذ سبعمائة عام يثنون عليه، وإن لم يوافق حفنة التراب هذه أولئك الأبرار والأختيار، فمن سيكون أشقى مني بحسب آية ﴿وَيَتَّبِعْ عَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٦)، فأني موقن من صميم الفؤاد بأن حبيب الله ذلك فعلا كان حبيب الله بحسب تزكية شهداء الله له، وهذه هي عقيدتي القلبية، أما عدم معرفة العامة فلا أعدها شيئاً يذكر.

"إن الذين يبعثون عن عيوبي، ليتهم رأوا وجه ذلك الحبيب."^١

الآن ألقى الضوء على أهمية التوجيه الثاني وأقول إن الله تعالى قد قال في القرآن الكريم ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (غافر: ٥٢)، كما قال ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٩)، فيا شيخ: إذا كنا في الحقيقة مؤمنين في نظر الله تعالى، فمن المؤكد والمحتم أنا سننال العزة والنصر. فنحن لسنا منزعجين من اجتماع الكفار ولسنا متحمسين ضدهم أبداً، ولا نقيم أي أهمية لمشاهدتهم، ولعلك تعرف أن

^١ ترجمة بيت فارسي. (المترجم)

حضرة فريد الحق والدين حين خلفَ قطبَ الحق، قد ابتعد خلال أسبوع من دلهي، فهل ضرته غابة "أجودهن"؟ كلا لا والله.

لقد بين في كتيبه "نور الدين" مذهبه، وأنقله هنا..

١- نحن نؤمن بأن الله ﷻ موجود وهو متصف بجميع صفات الكمال ومنزه عن كل عيب، وهو ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وبارادته وخلقه خلق جميع المخلوقات. هو وراء الورا والمحيط بالكون كله، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (فصلت: ٥٥)، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ (الحديد: ٤)، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم: ٤٣)، فإذا كانت هذه هي عقيدتنا وإيماننا فكيف يمكن أن يُعجب بكتابتنا أي سفسطائي وملحد ومسيحي وفلسفي يوناني وصاحب مذهب سناتن الهندوسي -الذي يؤمن بأن الله علة بدون شرط- ووجودي وطبيعي وآري يؤمن بأن الله ليس خالق الأرواح والأجسام، وليس خالق الزمن والفضاء وليس خالق صفاته.

٢- نؤمن بأن الله متكلم يكلم أعباءه، وينجز أعماله بإرادته ومشيئته، فقد ظل يكلم في الماضي كما يكلم الآن وسيظل يكلم، فلم يختم كلامه ولا تكليمه قط، فالذين يؤمنون بأنه ساكت ولا يكلم، مثل البرهمو وأصحاب الطبيعة، والذين يقولون إنه صامت من بليون سنة، وكان قد كلم أربعة فقط في بدء العالم، أو الذين يقولون إنه سكت بعد أن كلم المسيح ﷺ أو النبي الكريم خاتم النبيين ﷺ، والذين يتوهمون أنه عديم الصلاحية والقدرة كالبدرة، كيف يمكن أن يُعجبوا به؟

^١ أي الذين نزل عليهم الفيذا كتاب الهندوس. (المترجم)

٣- نحن نؤمن بوجود الملائكة ونؤمن بهم وبجميع كتب الله ورسله وأنبيائه، ونؤمن بأن محمداً ﷺ رسول رب العالمين وخاتم النبيين. فكيف يرضى المعارضون بكل هذه الأمور؟

٤- كل إنسان في رأينا مسؤول عن أعماله ويسأل عنها، ونحن نعتقد بالعمو والمغفرة والشفاعة بالإذن، فالقائل بالكفارة متى يرضى بمعتقداتنا هذه؟ والذي يؤمن بأن الله لا يعفو متى يرضى عنا؟

٥- نحن نحب جميع الصحابة الكرام والتابعين العظام رضوان الله عليهم أجمعين، بدءاً من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلى معاوية والمغيرة، ومن أويس القرني وحسن البصري إلى إبراهيم النخعي ونافع وعكرمة، ومن أهل البيت بدءاً من خديجة وعائشة إلى علي المرتضى وجميع أئمة أهل البيت عليهم السلام، ونعظمهم من صميم الفؤاد، فقد قال إمامنا العليّ عليه السلام:

إن قلبي وروحي فداء جمال محمد ﷺ، وأمتي أن أكون تراباً وفداءً لزقاق

محمد ﷺ.^١

٦- فمتى يرضى عنا الرافضي والشيوعي والخارجي الناصبي والجبرية والقدرية والمرجئة والجهمية والمعتزلة ومنكروا تعامل الإسلام، والمنكر للأحاديث الصحيحة الذي يصفها بالركام، مع أنهم قد جعلوا الكتب العادية للتاريخ والأمور التاريخية وكتب اللغة والبيان مقتداهم. نحن نرى تعظيم أئمة التصوف وأئمة الفقه وأئمة الحديث وأئمة الكلام وتكريمهم ضرورياً ونعدّ سبيلهم المتفق عليه سبيل المؤمنين. وآثارهم الباقية فتوح الغيب والفتح الرباني للسيد الشيخ

^١ ترجمة بيت فارسي من نظم سيدنا المسيح الموعود العليّ عليه السلام. (المترجم)

عبد القادر الجيلاني، والعوارف للشيخ شهاب الدين السهروردي الذي كان ابن عمي حضرة فريد الدين غنچ شكر الجشتي يلقي الدرس منه، ونسخته التي درسها حضرة سلطان نظام الدين ما زالت محفوظة عند الجمالين، ومنازل السائرين "شرح مدارج السالكين"، وطريق المهجرتين، ومجمع الفوائد، وزاد المعاد لشيخ الإسلام ابن القيم، وفصل الخطاب للخواجه محمد بارسا، والمكتوبات لشيخ مشايخنا المجدد أحمد السرهندي، والفتوحات المكية لابن عربي، وصحيح الإمام البخاري، والموطأ لإمام دار الهجرة، والآثار الباقية للإمام أبي حنيفة، ومؤلفات أبي يوسف إمام أئمة الفقه والحديث، ومؤلفات الإمام محمد الشيباني، والطحاوي، والأم للشافعي، والمحلى والفصل لابن حزم، والسنن الكبرى للبيهقي، وردّ تعارض العقل والنقل، والرد على المنطقيين، ومنهاج السنة للشيخ الأجل رئيس المتكلمين والفقهاء والمحدثين والمفسرين شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني، والمطالب العالية للإمام الرازي، وفتح الباري لابن حجر، وفتح القدير والتحرير لابن همام، وجميع مؤلفات الحافظ الذهبي مثل دول الإسلام والميزان والتذكرة وغيرها، وحجة الله البالغة لشيخ مشايخنا شاه ولي الله الدهلوي ونيل الأوطار للشوكاني اليمني بالإضافة إلى ابن المنذر وابن قدامة وأبي يعلى. وأشهد الله وأوقن بصدق القلب على وجه البصيرة، أن هؤلاء بلا شك، كانوا مصداق ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٥)، وإن دعاءهم ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٥)، قد أوجب حتما، فالأشقياء جدا الذين ينكرون إمامة الإنسان، ويجهلون السر في ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٥) إذا كانت فطرتهم ما زالت سليمة فلعل

أوضاعهم العملية تلومهم. نحمد الله ﷻ على أن قرأنا الكتب الطيبة لهؤلاء بتدبر واستيعاب وتوصلنا على وجه البصيرة أن هؤلاء كانوا من أولياء الله والهداة. اخترنا في علوم اللغة البخاري والأصمعي وأبا عبيدة والمفردات للإمام الراغب، والنهاية، ومجمع البحار، ولسان العرب، وفي الصرف والنحو سيبويه وابن مالك وابن هشام والسيوطي، وفي القراءة الشاطبي وأبا عمر الداني، وفي علم المعاني والبيان عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة والسكاكي صاحب مفتاح العلوم، وفي الأدب الأصمعي، وفي التفسير رواية ابن جرير وابن كثير وفتح القدير للشوكاني، ودراية ورواية الإمام البخاري رحمه الله، ودراية فقط التفسير الكبير من أئمة السلف.

أما المؤلفون الهنود في الزمن القريب فأرى أن الشاه ولي الله مؤلف "حجة الله البالغة"، و"إزالة الخفاء"، هو أبرزهم مكانة وأنقاهم عقلاً. أنا أو من بأن المسيح عليه السلام قد مات، وأوقف يقينا كاملا بأنه مات موتا طبيعيا بعد نجاته من القتل والصلب. إن هذه الأمة تضم ثلاثة أنواع من الناس أي "أنعمت عليهم" و"المغضوب عليهم" و"الضالين". فالمسيح الموعود عليه السلام الذي كان سينزل أيضا موجود فينا، فهو المهدي المعهود وإمام هذا الزمان، والحكم في اختلافاتنا. فقد رأينا آياته البينات ونشهد -خشية من الله واضعين في عين الاعتبار يوم الدين وحشر الأجساد والجنة والنار وحياتنا الفانية- على أنه هو الإمام. وقد عددنا في مقتدينا ابن حزم وابن تيمية أيضا، ونسجل هنا قولين فقط تأييدا لذلك، أولا هناك إنسان من أهل الله وهو صادق وصالح وثقة وأمين وهو مشهور في بلادنا البنجاب باسم عبد الله الغزنوي، فقد رآه إمامنا عليه السلام في الرؤيا على صورة خاتم

النيبين ورسول رب العالمين النبي الكريم ﷺ، وكان ذلك نتيجة كمال اتباعه للسنة. كان جامعا للمحاسن الكثيرة، وكان الله قد جعله متميزا بالعلم والعمل، فهو حين دعا الله ﷻ أن يكشف عليه لماذا استخدم ابنُ حزم كلمات قاسية جدا تلقى عبد الله المرحوم إلهاما - وأنا إلى الآن أعدّه باليقين من الصادقين الصالحين، وبناء على هذا اليقين أنشر هذا الإلهام - وهو:

"إن كلام العشاق عن الله ﷻ نابع من جبههم المفرط وليس سوء الأدب كل من شرب جرعة من كأس الله ﷻ فلم يبق عنده أدب ولا عقل ولا صواب يجب أن تتخلوا عن حسد الملوك وإلا كنتم أبالسة في العالم إنكم تلعبون مع ذنب الأسد، وتختصمون مع الملائكة"^١ والشاهد على هذه القصة شخص من سكان لاهور يسمى عبد الحق، فهو الآخر جدير بأن نحسن به الظن، ولا أزكي على الله أحداً.

ثانيا: قد أورد الإمام السيوطي في في المجلد الثالث لكتابه عديم المثال "الأشباه والنظائر": "فيه جوابُ سائل سأل عن حرف "لو" لشيخنا وسيدنا الإمام العالم العلامة الأوحده الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة قدوة الأمة علامة العلماء وارث الأنبياء، آخر المجتهدين أوحده علماء الدين بركة الإسلام حجة الأعلام برهان المتكلمين قانع المبتدعين ذي العلوم الرفيعة والفنون البديعة محيي السنة ومن عظمت به علينا المنة وقامت به على الأعداء الحجة واستبانة بركته وهدية المحجة تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني منارة، وشيد من الدين أركانه".

^١ ترجمة أبيات فارسية. (المترجم)

خطبة الجمعة

التي ألقاها حضرة حاج الحرمين المولوي نور الدين

في ١٩٠٧/٨/٢٣



أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿آل عمران ١٠٣-١٠٦﴾. لعلكم تعرفون أي كلما ألقىت أي خطبة سواء أكانت بمناسبة الجمعة أو العيد أو كانت محاضرة أو نصيحة فمن عادي أني أقرأ في بدايتها "أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله". وليس من عادي أن أجهر بكل رأي وقول لي، إلا أني إذا أردت أن أقول قولاً طويلاً أو ما نجم عن ألم والتعب فأني حتماً أبدأ بـ "أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله" وأستهدف من ذلك أن يكون الذين يسمعون نصيحتي شاهدين على أي أو من بأن الله واحد لا شريك له في ذاته ولا في صفاته، وأقول بوعي ويقين وثقة إني لم أخجل قط من بيان قدراته، فقد اتخذته حبيباً لي، وأؤمن بأن محمداً رسول الله ﷺ سيد جميع الأنبياء وفخر الرسل وأشكر الله الكريم على أنه بفضله المحض جعلني من أمته، ومن محبيه، ومحبي دينه، وبعد ذلك أقول: لعلكم لاحظتم أني ذات مرة مرضتُ وتفاقم مرضي وأيقنت مرات أني سأموت الآن. ففي هذه الحالة اعتنى بي البعض بمنتهى اللطف والحب، حيث كانوا يسهرون على راحتي، وأخص بالذكر منهم

الدكتور عبد الستار شاه المحترم، وبعضهم مسدوني طول الليل، وكل ذلك من لطاف الله الغفور الرحيم، الستار، حيث اعتنى بي هؤلاء بحب وإخلاص وواسوني. وتذكروا أني لو متُّ في ذلك المرض لمتُ مؤمناً بأن الله ﷻ وحده لا شريك له في ذاته وصفاته، وأن محمداً ﷺ رسوله الصادق وخاتم الأنبياء وفخر الرسل، كما أوّمن بأن المرزا المحترم مهدي ومسيح وخدام بار لمحمد رسول الله ﷺ، فهو صادق وتقي، وصحيح أني لم أتمكن من خدمته كما كان يجب، بل لم أسد إليه أي خدمة ولو بسيطة، اليوم أعتبر يوماً جديداً من حياتي، وإنكم لن تفهموا إلا أنني الآن إنسان جديد، ومخلوق جديد. فانطلاقاً من تأثير هذا المرض في قواي وعاداتي ومحي وكياني وأخلاقي أستطيع أن أقول إني الآن إنسان جديد تماماً، أنا لا أبالي بأحد ولا أستطيع أن أتملق أحداً، أنا منطوٍ على نفسي، وأتخذ الله ﷻ وحده إلهي، فهو وحده ربي لأني لا أعرف هل سأعيش حياً إلى الأسبوع القادم أم لا؟ لذا أود أن أخبركم أن الله ﷻ يقول "تحلوا بالتقوى وطهروا باطنكم كما يجب تطهيره، إن الله ﷻ طيب وقدوس وأكثر تطهيراً، فلا ينال قربه إلا الطاهر، والخبيث لا ينال القبول، انظروا كيف لا يرضى صاحب اللباس الطاهر والأنيق والفاخر بالجلوس في مزبلة قدرة، فأني لإله طيب قدوس أن يقرب إليه الوسخ، ولذلك قد خلق للسعداء الجنة وللأشقياء النار، فالخبيث النجس لا يجدر بدخول الجنة وكيف يمكن أن يتقرب إلى الله... الخ.

خطبة الجمعة

التي ألقاها حضرة الخليفة الأول للمسيح الموعود ﷺ في
أيام الجلسة السنوية عام ١٩١٠م

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله،
أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالْعَصْرِ *
إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ
وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ١-٤)

جميع الخطب التي تلقى في العالم من زمن النبي ﷺ إلى العصر الحاضر تبدأ
بـ "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله"
فللجزء الأول من هذه الكلمة "لا إله إلا الله" ثلاث فوائد:

(١) الفائدة الأولى أن الذي يقرأها بصوت عال نعدّه مسلما وبريئا من
الشرك.

(٢) الفائدة الثانية هي أن المرء حين يؤمن بمعانيها إيمانا حقيقيا فهذا المؤمن
يتخذ جميع الأسباب والوسائل في العالم حين يرى أن مولاه خلقها وأودع فيها
التأثير.

(٣) الفائدة الثالثة التي شهد عليها جميع الأنبياء عليهم السلام والأولياء
بلسان واحد على الدوام، هي أن الإنسان حين يرددها بكثرة بالتدبر في معانيها
فإن العوائق المعترضة في سبيل الوصول إلى الله تزول تلقائيا بسهولة تدريجيا.
فللجزء الأول منها أيضا جزءان أولهما "لا إله" وهو يمثل وسيلة للتخلص من
الذنوب واجتنابها، والثاني "إلا الله" وهو يساعد على إحراز الحسنات.

ففي "لا إله" نفى جميع ما يُعبد ويُحُبُّ ويُطلَب، فحين لم يبقَ أي شيء في نظر المؤمن محبوبًا ومطلوبًا كيف يمكن أن يميل إلى أمور تُعدُّ من الذنوب؟ فالأشياء الحقيقية التي أحلت له فإنما أحلت له بشرط أن لا تكون هي غايته المنشودة، أما الأمور التي حرمت عليه فلا ينبغي أن يلتفت إليها، وبذلك يكون هذا الجزء الأول وسيلة لدرء الذنوب. أما كيف يمكن أن يجتنب المرء كل ذنب بإيمانه بهذا الجزء، فهذا نقاش طويل، فليتدبر العقلاء المبدأ الذي بينته. أما القول "إلا الله" فكيف يلفت المرء إلى إحراز الحسنات؟ فالجواب أن المرء حين يرى جميع ما يطلب ويحب في هذا العالم فانيا وتافها، وينشئ العلاقة بالله كامل الصفات، فإن تجليه يجعل جميع ثوائره تابعة لرضاه، فيكون الله هو مطلوبه الحقيقي في كل أمر. فلا يقدم على عمل ما لم ير الله؛ أي من ناحية يجده شاهدا على عمله ومن ناحية يلاحظ رضوانه وإذنه، وبذلك يتمكن من إحراز الحسنات.

ثم إن النبي ﷺ قد أضاف إلى هذه الجملة "أشهد أن محمدا عبده ورسوله" لأنه رأى أن الهداة الذين بعثوا في الأزمنة الماضية لهداية الناس بين حين وآخر قد اتخذوا آلهة بمرور الزمن، وجعلوا شركاء في ألوهية الله، فلحماية العالم من هذا الرجس أضاف هذا الجزء لكي يعدّه الناس دوما عبدا، ولكي لا يؤلّه الناس الأولياء الذين سيكونون في هذه الأمة، لذا إنني أرى "أشهد أن محمدا عبده ورسوله" تنمة الكلمة الطيبة، وأؤمن بأن إيمان الإنسان لا يكتمل دون الإيمان بهذا الجزء. فحين يؤمن المرء بالله كما هو مقصود "لا إله إلا الله" ويتدبر حسناته الكاملة ويتأمل في أسمائه وأفعاله فلا يجد بداً من الإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله

والقدر والبعث بعد الموت والحساب الدقيق والجنة والنار. لأن من مقتضيات الإيمان بالله أن يؤمن المرء بأنه ﷺ يتصف بجميع الصفات الكاملة. فلما كان الله نفسه قد خلق القدر، والملائكة، والجنة والنار وبعث الأنبياء وأعطاهم الصحف، فقد صار الإيمان بالملائكة وكتب الله ورسله والقدر والقيامة والحساب والجنة والنار ضروريا.

ففي رأيي لا يؤمن أحد بالله ما لم يؤمن بهذه الأمور أيضا، ثم بعد الإيمان يظهر تأثيره في جوارح الإنسان، فالأمور التي تصدر من الجوارح تسمى أعمالا، وتشمل الصلاة والصيام والحج والأخلاق النبيلة، واجتناب الرذائل. فالأعمال من لوازم الإيمان الكامل بالله، فقد ورد في القرآن الكريم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣)، فمعناه أن الإنسان حين يؤمن بالله فهو يؤمن بالآخرة أيضا، أي أن الإيمان بالله يلازم الإيمان بالآخرة، ثم إن هذا الإيمان يؤثر في الأعمال بحيث إن المؤمنين يحافظون على صلاتهم ولا يضيعونها. تذكروا أن الذي يدعي الإيمان بـ "لا إله إلا الله" وكان تارك الصلاة، ومقصرا في اتباع القرآن الكريم فليس بصادق في قوله "لا إله إلا الله" كما تبين من هذه الآية.

بعد ذلك نحتاج عند الإقرار بنبوة النبي ﷺ إلى أن نرى سيرته في القرآن الكريم. ولمعرفة مكانته السامية ﷺ، فعلى المؤمنين أن يضعوا في البال آيتين تشكلان أدنى شهادة على ذلك، وهما ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٥)، و﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤)، تدبروا الآن: لقد ذكر الله عَظَمَتَيْنِ للنبي ﷺ، فأولا يكون المرء عظيما إذا كان عظيم الأخلاق. ثم الذي جعله الله عظيما

فيمكن أن تقدِّروا عظمتَه. فالإنسان الذي وصفه اللهُ كاملاً الصفات عظيمًا لا تقدَّر عظمتُه. ثم وهبه هذه العظمة في الأخلاق، وبذلك نقدر كم كان النبي ﷺ عظيم الأخلاق عديم المثال، ثم أنزل عليه فضله العظيم، الآن تأملوا في أن الذين كان مقتداهم صاحب هاتين العظمتين أي الخلق العظيم والفضل العظيم أنى لهم أن يرغبوا في تقليد أحد غيره، وهو خاتم النبيين ﷺ؟

ثم إن الكتاب الذي أنزله اللهُ على الإنسان الكامل صاحب الخلق العظيم والفضل العظيم، أقدم بحقه شهادتين، أولاهما قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ١٠)، كما قال في آية أخرى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: ٤٣)، فقد وعد اللهُ ﷻ في الآية الأولى أنه بنفسه سيحفظ القرآن الكريم، وفي الثانية أكد أن الباطل لن يؤثر فيه، فالكتاب الذي تولى اللهُ ﷻ نفسه حفظه وتبأ أنه لن يُنزل أي شيء لإبطاله في المستقبل أيضا، فأنى لنا أن نخاف العلوم أو نخاف أي هجوم داخلي أو خارجي؟

لقد أعلنت دوما أنه بقدر ما يتقدم العلم والعلوم ستبين كمالات القرآن الكريم، فبعد التمسك بهذا الكتاب لا يجوز لنا الخوف من أي هجوم في العالم، لأننا نوقن وقد أثبتت لنا التجارب أنه لن يحدث التحريف فيه ولن يحتفي من العالم. فهذا الكتاب كامل، وهذا ما أخبرنا به خالق الفطرة، فلا داعي للخوف أو الاضطراب من أي هجوم عليه. وإذا كان من شيء يخيف فإنما هو أن ينتقل من بعض البيوت إلى بيوت أخرى، وفي هذه الحالة كم ستحزن روح الأسلاف، فإذا كان هناك أي خوف فهو أن يخرج أحد من أتباعه.

وفي الأوضاع الراهنة أرى أن هناك زعماء ومشايخ وأصحاب زوايا وبعض الشباب يستعدون لتلقي العلم في الكليات من أجل الأمة، فإذا كانت هذه الفئة متقاعسة في الدين عمليا فكيف إذا وُضع العامة، ولذا قرأتُ عليكم سورة العصر وقصدت من ذلك البيان أنه كما مر الزمن بسرعة انقضت أعمارنا بالسرعة نفسها... فكما لفت الله ﷻ انتباهنا في هذه السورة الكريمة إلى انقضاء عمر الإنسان بسرعة، فقد بين علاجه أيضا في السورة نفسها في أنه إذا استجبتم لأوامرنا فلا داعي للقلق على كون العصر في حُسر. فباستجابتكم لهذا الأمر ستخلدون، وذلك بأن تكونوا مؤمنين وتعملوا الصالحات وتجعلوا الآخرين أيضا مؤمنين، وتتواصوا بالحق ولا تخافوا المشاكل في سبيل تبليغ الحق، واصبروا.

فإذا عمل المؤمن بهذا العلاج وجعله دستوراً له، فسوف ينال بالتأكيد حياة خالدة. باختصار؛ إن سورة العصر هذه سورة كان الصحابة يقرأونها عندما يتقابلون. اليوم نحن وأنتم أيضا نتقابل ولا نعرف هل سيتسنى اللقاء في المستقبل أم لا، لذا قد قرأتها عليكم عملاً بهذه السنة، وأردت أن أسمعكم تواصياً بالحق. فاسمعوا: إني أوْمَنُ بأن الله ﷻ أحد في ذاته وعديم المثال في صفاته ومصداق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١٢) في أفعاله وأسمائه، وأوْمَنُ بملائكة الله الذين يولِّدون الحوافز على الخيرات. والغاية من الإيمان بهم أن يستجيب المرء لكل حافز نحو الخير. أنا أوْمَنُ بجميع أنبياء الله سواء ذكروا في القرآن الكريم أم لا، أنهم كلهم كانوا عباد الله الصالحين، وأوصلوا كلام الله إلى مخلوقه في وقته. وأوْمَنُ أيضا بأن جميع أنواع النبوة ختمت على النبي ﷺ، وليس ذلك فحسب

بل أوّمن وأوقن بكل بصيرة وانشرح الصدر بأن النبي ﷺ لم يكن جامع جميع النبوات وخاتمها فقط، بل كان خاتم النبيين وخاتم الرسل وخاتم کمالات الإنسان، والآن لا أتصور أن تكون في أي إنسان مثل تلك الكمالات، وعن ذلك أقرأ عليكم بيتا من شعر المسيح الموعود عليه السلام باللغة الفارسية ومعناه:

"يا أيها الذين تشكون في ملك هذا الدين وتتكرونه، انظروا إلى خدامه كم هم أيضا يحوزون العظمة؟"^١

فلمعرفة کمالات النبي ﷺ حين نرى الصحابة الكرام كم كانوا أطهارا يتبين لنا موضوع هذا الشعر. إن وجودكم في هذه القرية أيضا يمثل شهادة الأفضال التي ينزلها الله تعالى على من يصبح غلامَ أحمد. وكذلك أوّمن بقدر الله والقيامة والحساب والجنة والنار. والآن ألقت أنظاركم إلى.... أي لم أقرأ عليكم خطبة طويلة، وإنما غاييتي من هذا أنه لو ألقى فيكم أحد خطابا قبل خطابي القادم فقيسوه على خطابي هذا، فهو معيار ديننا ومعتقداتنا. فإذا كان أي أمر موافقا له فعدّوه منا، وإذا وجدتموه مخالفا له فليس من معتقداتنا.

لما كان الإسلام قد جاء لإظهار الحق كما هو واضح من هذه السورة، فلذا أوّكد لكم أنه كما بلغتكم أمور دينية كثيرة أود أن أسمعكم أمرا دنيويا أيضا، إلا أنه ليس دنيويا محضًا بل أراه من الدين، وهو أن جميع أعمالنا الدنيوية بل الدينية أيضا تتوقف على الأمن، فإن لم يستتب الأمن فلا يتحقق أي أمر، فكلما ازداد الأمن تمكّننا من تبليغ الحق بأسلوب رائع، لذا كان نبينا عليه السلام على الدوام حريصا على ذلك، لقد علّمنا كيف يجب العيش، وذلك بإقامته في مكة

^١ ترجمة بيت فارسي. (المترجم)

المعظمة، حيث كان الفساد منتشرًا، وإرساله المسلمين إلى الحبشة حيث كانت الحكومة مسيحية، فمن فرائض هذا العيش توفير الأمن، فإذا اختفى الأمن فلا نستطيع إنجاز أي مهمة دينية كانت أو دنيوية بأسلوب أحسن، فأنا أوصيكم بأن تبدلوا قصارى جهدكم لتوفير الأمن، فتوفير الأمن يقتضي القوة - التي تملكها الحكومة - والصلاخ، وإطاعة الحكومة والوفاء لها، وهو واجب عليكم، فأنا لا أقول هذا تملقا لأحد، وإنما تبليغا للحق. عليكم أن تكونوا جماعة مسالمة لكي تحرزوا جميع أنواع التقدم وتعيشوا بطمأنينة، فلا تطلبوا جزاءها من المخلوق، بل ينبغي أن تؤثروا رضوان الله وإياه فاطلبوا. تذكروا جيدا أن أي دين لا ينتشر ولا يزدهر بلا أمن، فوالوا الحكومة لترسيخ دعائم الأمن دوما. أضيف إلى ذلك أنه يتبين لنا من كتب المسيح الموعود عليه السلام أنه إذا سعيتم لردّ جميل الحكومة هذا، فسوف يُظهر الله نتيجته حتما، وإذا عصيتم، فلا بد لكم من انتظار عواقبه الوخيمة.

وبعد هذا أود أن أقول لكم أمرا آخر وهو أنه يجب أن تزدادوا حبا فيما بينكم وتزيلوا البغض. ومعلوم أن الحب لا يتزايد ما لم تصبروا، وإن الله مع الصابرين. فلا أحد يصيب الصابر بذلة وأذى.

ذات مرة مرض حضرته فكتب وصية باللغة العربية وهذا نصها:

هذا شهادتي أمانة عند كل من سمع أو نظر ففهم بعد أن أشهدت الله تعالى وملائكته عليها. وأنا الفقير إلى رب العالمين - نور الدين - اللهم اجعله كاسمه، آمين. إن الله تعالى ربي رب العالمين - الرحمن الرحيم مالك يوم الدين - وإن الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد - وحده لا شريك له له

المملك وله الحمد . الحي القيوم . وإنه بكل شيء عليم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . القادر . الفعال لما يُريد ، السميع البصير . كلم موسى تكليما وله الأسماء الحسنى وهو الغني عن العالمين . استوى على عرشه وليس كمثله شيء . أحاط بكل شيء علما وخلقنا ووسع كل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، يعلم السر وأخفى . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون . هو الأول ليس قبله شيء ، هو الآخر ليس بعده شيء ، هو الظاهر ليس فوقه شيء ، هو الباطن ليس دونه شيء ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا . لا مبدل لكلماته وليس بظلام للعبيد ولا يظلم ربك أحدا والله الحجة البالغة ولو شاء هدى الناس جميعا يغضب ويرضى ويفرح بتوبة العبد . ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار... وهو اللطيف الخبير . ومع هذا وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة .

والقرآن كلام الله نزل به الروح الأمين على مولانا ورسولنا خاتم النبيين وسيد ولد آدم رحمة للعالمين . أُرسِل إلى الناس نعم إلى الناس كافة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٩) . ونزل أحسن الحديث ووعد أنه حافظه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ١٠) . وهو هدى ورحمة وشفاء وروح وفضل وكفاية وقد كفى .

والملائكة حق والرسول حق وكتب الله وما أنزل من قبل حق ، ولم يزل الله ربا رحيفا متكلمًا ولا يزال . وخلق كل شيء فقدره تقديرا ، والقبر والسؤال فيه والنشر والحشر حشر الأجساد والحساب ، فريق في الجنة وفريق في السعير .

والصراط والشفاعة لأهل الكبائر فضلا وعن الصغار ولفرع الدرجات حق. نعماء الجنة حق فهي عطاء غير مجذوذ. وآلام النار وإن ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر: ٣١) حق وإن ربك فعال لما يُريد، وقد سبقت رحمته غضبه وإنه أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأكرم الأكرمين.

ثم الإسلام بُني على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج. وإن الصلاة وسواها كما ثبتت في التواتر العملي والسنة وكما بُينت مشرحة في الموطأ والبخاري وأبناها في المؤمنين وأيقنا أنها سبيل المؤمنين وقال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٦). وأن الله ﷻ كما أمرنا باتباع ما أنزل إلينا أمرنا باتباع محمد رسوله كما قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣٢) وكما أمرنا بطاعته أمرنا بطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٦٠) بل وقال في طاعة الوالدين ﴿وَأِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٦)

ولا بد أن نقدم إطاعة الله وإطاعة كتابه على إطاعة الخلق. وإطاعة رسوله إطاعته تعالى عز سلطانه كما قال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨١). وأحبُّ اتباع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، فإنهم أول من تزكى بتزكية حبيينا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ. والخلفاء الراشدون منهم أبو بكر

وعمر وعثمان ما كانوا ولا واحد منهم منافقا أبدا فإن الله تعالى وصف المنافقين بأنهم هموا بما لم ينالوا وهؤلاء نالوا ما هموا به. وهم مصداق ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (النور: ٥٦) وهم الغالبون كما ذكر في المائدة. وعلي منهم صهر رسول الله وختنه وزوج بنت الرسول فاطمة البتول. وحبُّه إيمان وبغضه نفاق وهو أخ محمد رسول الله ﷺ وهو بمنزله هارون من موسى.

ومنهم سيد وهو الحسن المجتبي اللهم ترى في قلبي حبه ﷺ. فإنه مصداق "يصلح الله به بين الفئتين من المسلمين"، وأحبُّ أخاه الحسين سيد شباب أهل الجنة قُتل غرًّا مظلوما شهيدا وأبغض في مقابله العنيد ذا الخيبة فإنه ما أثنى عليه أحد خيرا بل أثنوا عليه شرا.

وأحبُّ العشرة المبشرة وأصحاب للبدر وبيعة الرضوان ومن قُتل في أحد وجميع من بشره سيدنا ﷺ وقرأنا في الصحاح بل ومن أسلم على يده الكريمة ومات على الإسلام كعماوية ومغيرة بن شعبة. ما كذب منهم أحد في أمر الدين عن الرسول الأكرم، وما كان منهم أحد أطرش. وتركتُ من بدو الشعور الروافض والشيعة والخوارج والمعتزلة والمقلدة الجامدة التاركين لنصوص القرآن والسنة والأحاديث الصحيحة الثابتة لقول أحد. والحمد لله رب العالمين. ومع هذا أحبُّ أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد ومحمد بن إسماعيل البخاري وأصحاب السنن والفقهاء والمحدثين رحمهم الله. وأعظم ما عليهم وأحب اتباعهم فإنهم هم القدوة وأثنى عليهم خيرا. وأحتاج إلى تحقيقاتهم ومع هذا أقدم ما قدمه الله ورسوله.

وأعتقد أن عيسى عليه السلام توفاه الله قبل رفعه إليه كما وعد الله تعالى في ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ (آل عمران: ٥٦)، وما قُتِلَ وما صُلب وثبت رفعه لقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (النساء: ١٥٩). وقدم سبحانه في الوعد توقيه. وما قدمه الله قَدَمْنَا وما أَخَّرَهُ أَخَرْنَا. ثم الله جعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا. وقال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران: ١٤٥)، فقد خلا عليه السلام كما خلت الرسل عليه الصلاة والسلام.

وإن عيسى بن مريم الذي هو نازل نزل صلوات الله وسلامه عليه، فإن الله سبحانه وعد لنا في القرآن في النور بأن الله يستخلف من يستخلف منا وصرح رسولنا سيد الأولين والآخرين سيد ولد آدم عليه السلام بأن النازل إمامكم منكم .

وشهد الله وملائكته وأولو العلم بأنه هو وشهد الشمس والقمر بأنه المهدي والطاعون والجذب والقتال بأنه المرسل كما قال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ (الأنعام: ٤٣)، وفوزه وفلاحه مع مخالفه الآرية والبراهمة والنصارى والسيخ والعلماء والمتصوفين والحكام وأقاربه بني عمه بركه أيهم بأنه هو المطاع وتجديده ونصرته بأنه هو على الحق.

تم كلامه.

إن كل ما أردت أن أكتبه في هذه المقدمة والتفصيل الذي يقتضيه الترتيب، لا يتسع له حجم هذا الكتاب، فمواده كثيرة، لذا أكتفي بهذا القدر من المقدمة.

"إن سعة نظري قليلة، وإن أزهار حسنك كثيرة جدا، لذا فالذي يقطف الأزهار من ربيعك يشتكى ضيق جيبه"^١

المؤلف

"يا إلهي اجعل لساني ذكراً خفياً متجسداً ولا تدعهُ ينطق بأي كلمة سوى الثناء عليك.

إزرع شجرة المعرفة في نهر ذاكرتي واجعل دماغي معطراً كالبستان بعطر التوحيد.

لا تُبعد يد كرمك عني وهب للساني الوصال عند البعد كالناي.
أنا مجهول في دار الغفلة هذه رغم كوني مشهوراً جداً، فاجعل قصتي معروفة كالقيامة.

من أجل أجفان العيون السوداء يسّر لي أموري واربط شعري بالصفائر المعطرة.

لا أريد أن يكون أي قلب في العالم حزيناً بسببي .. فأطلع أعدائي على فيوض الصداقة."^٢

^١ ترجمة بيت فارسي. (المترجم)

^٢ ترجمة أبيات فارسية. (المترجم)



نحمده ونصلي على رسوله الكريم

نور الدين الأعظم

(١٣٣١ الهجري)

الطفولة وعنضوان الشباب

ولدتُ في ١٢٥٨ الهجري المقابل لـ ١٨٤١ الميلادي أو ٩٨ البكرمي التقويم الهندوسي تقريباً، لقد استمعت إلى القرآن الكريم وأنا في حضن أمي، ومنها تعلمت بعض كتب الفقه باللغة البنجابية واستمعت إليها. تعلمت جزءاً من القرآن الكريم من والدي المحترم أيضاً، لكن لم يكن لديه وقت فراغ كافٍ. ثم اضطررت للذهاب إلى لاهور في عام ١٢٧٠ الهجري بسبب بعض العلاقات فيها إذ كانت لنا مطبعة باسم القادري في دار كابلي مل. وبعد الوصول إلى هناك أصبت بالحنّاق، وعالجني الحكيم غلام دستغير اللاهوري من سكان سيد متها- الذي كانت له علاقات وطيدة مع إخوتي، وكانوا تلامذته في الطب- ففي ذلك الزمن نشأت في قلبي رغبة في تعلم الطب، لكن أخي أرسلني إلى المنشي محمد قاسم الكشميري لأكمل دراستي للغة الفارسية، فعلمني بجهد

كبير، فكان بلطف كبير منه يكتب لي المواضيع من "رزم" و"بزم" و"بهاريه" ويطلب مني أن أكتبها. ثم سُلِّمْتُ إلى مرزا إمام الوريوي لأتعلّم منه الخط الجيد، فلم تعجبني اللغة الفارسية، ويؤسفني أنني بذلت وقتاً طويلاً في تعلم لغة لم أكن أحبها من ناحية الدين، ولم أكن أحتاج إليها في أمور حكومية. ولا أرى في ذلك أي ذنب لإخوتي أيضاً، لأن الأوضاع السائدة في ذلك الزمن لم تكن لتحفزني على شيء آخر. إن تحسين الخط كان يتطلب مني أشهراً لكتابة الأبجدية، ولما لم يكن دماغي قد وُهب القدرة على الكسب باليد فلم أتعلّم هذا الفن أيضاً، فلم تنل إعجابي في تلك السنّ النكاث العجيبة في "رسائل طغراء" ولا في "قطعات" إمام الوريوي. كان مرزا إمام الوريوي خبيراً في صناعة الأختام أيضاً، لكنني بقيت محروماً منه أيضاً. كان أستاذاً من الشيعة، إلا أنّهما لم يكونا نشيطين في الحوارات والمناظرات، لقد استفدت منهما أنني اطّلت على معتقدات الشيعة، فإذا كانت هناك نتيجة لهذه الجهود فإنما هي أن معلوماتي زادت عن المذهب الشيعي. في الزمن نفسه تعرفت إلى الحكيم إله دين اللاهوري، إلا أن تعلم اللغة الفارسية وتحسين الخط لم يسمح لي بأن أستفيد منه شيئاً. عدت إلى وطني في عام ١٢٧٢ الهجري، وعُين الحاج ميان شرف الدين أستاذاً لتعليمي اللغة الفارسية، لكن عدم رغبتني فيها أفادني، حيث عصمني من بذل الجهود في مذاكرة الدروس، وبقيت قواي قوية، وأغلب الظن أنني لو قرأت في ذلك الزمن أي علم يتطلب الجهد لتضرر دماغي، فأنا أشكر الله على ذلك أيضاً. بعد مدة قصيرة جاء أخي سلطان أحمد المحترم إلى بهيره فبدأ يعلمني اللغة العربية بانتظام، فجزاه الله تعالى على أنه لم يورطني في

التصارييف والتعلييلات، بل قد بدأ يعلمني بعض الكتييبات بأسلوب بسيط جدا قد جذب اهتمامي وأمتعني، لذا قد قرأت هذه الكتييبات بسرعة هائلة.

ومن أفضال الله تعالى عليّ أن أحد تجار الكتب في كالكوتا، الذي كان يوصل الأموال إلى المجاهدين أيام مفسدة الهند عام ١٨٥٧م، نزل عندنا ووجهني إلى ضرورة تعلّم ترجمة القرآن الكريم، أو بالأحرى إلى هذا المعدن من اللآلئ والجواهر الثمينة الذي بسببه أعيش عيش السعادة والبهجة والسرور حتى في سن متقدم. وذلك فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

هذا ما استفدته من تاجر كالكوتا. ثم جاء تاجر من مومباي وأوصاني بقراءة كتابين: "تقوية الإيمان" و"مشارك الأنوار". كان الكتابان باللغة الأردية وكنت معجبا بهما كثيرا، فقرأتهما جيدا، وبعد عدة أيام جئت إلى لاهور.

وكنت سلفا أتعلم اللغة العربية، هناك عُين لي طبيب معروف في الطب الشعبي، اسمه "الحكيم إله دين" المقيم في "غمتي بازار" أستاذ. كان هذا الطبيب يعلمني "الموجز في قواعد اللغة العربية"، وكان شديد الاهتمام بقراءة العربية بصورة سليمة، ولفظها بشكل سليم. ولكنني اضطرت للعودة إلى وطني بغيره بعد بضعة أيام، وهكذا حرمت من هذا الدرس الممتع. ومن هناك اضطرت للذهاب إلى راولبندي بحسب البرنامج الخصوصي، وعينت أستاذا في مدرسة نارمل.

في عام ١٨٥٨م حين بلغت من العمر ١٨ عاما تقريبا اتفق لي أن سافرت لأمرٍ ما إلى مدينة راولبندي حيث ألحقت بمدرسة "نارمل". وقد تبينت لي قيمة تعلّم الفارسية على يد المرحوم المنشي محمد قاسم حين أصبحت أحتل

دائما في المدرسة المرتبة الأولى في دراسة الكتب مثل "سه نثري ظهوري" و"أبو الفضل". ولقد سُرَّ بذلك مدير المدرسة المولوي اسكندر علي، حتى رفع عني تكليف الحضور إلى المدرسة. قد استفدتُ من عدم الحضور في المدرسة بحيث استأجرتُ شخصا ليعلمني الرياضيات والجغرافيا، وبدلاً من الذهاب والإياب إلى المدرسة كنت أوفر وقتي لدراسة هندسة إقليدس والرياضيات والجغرافيا، لأن مدرسة "نارمل" كانت تقع على بُعد ميلين أو ثلاثة من بيتنا. لقد طلبت من الشيخ غلام نبي رئيس المدرسين في مدرسة "مياني" أن يعلمني الجبر لأني نويت تعلمه قبل غيره. وعندما فرغت من تعلم الجبر سبقتُ حتى أستاذي الشيخ غلام نبي في تعلم مبادئ الرياضيات. ولتعلم هندسة إقليدس وقع اختياري على "المنشي نihal تشند" المقيم في محافظة شاه بور. فقد علمني المقالة الأولى بكل جهد، ثم تمكنتُ بفضل الله تعالى من دراسة بقية الأجزاء بنفسني. ونجحت في الامتحان على مستوى المقاطعة، حتى عُيِّنت رئيس المدرسين في مدرسة "بند دادنخان". لقد أفادني تعليم المنشي محمد قاسم المحترم في بند دادنخان جدا، لأن أساتذة اللغة الفارسية في بند دادنخان كانوا يرسلون تلامذتهم لمعارضتي، وكانوا يرون الأمور الفارسية العادية جدا بتعظيم، وكانوا يسألونني وكنت أفرح. أما اللغة العربية فقد بدأ أخي الأكبر يدرّسني إياها عند تعييني رئيس المدرسين، وكنت قد قرأت الألفية وكتب المنطق وشرح العقائد، لكن وظيفتي قد انقطعت أخيرا بعد أربعة أعوام بفضل الله المحض. وأوصاني والذي بإنهاء دراسة اللغة العربية. لقد عُين المولوي أحمد دين الذي كان مشهورا باسم القاضي بجي والي، أستاذاً لي، وكان أستاذاً إخوتي أيضاً، لكنه كان قلنا لبناء المسجد الجامع بحيث

كان يستحيل عليه الإقامة في مكان واحد، فقد رافقته في الحل والترحال لمدة سنة وقرأت كتباً دراسية بالعربية بمعاملة كبيرة، وقلت ذلك بانزعاج لأخي المولوي سلطان أحمد، ف جاء بي إلى لاهور وسلمني للحكيم محمد بنخش وبعض الأساتذة الآخرين وعاد إلى بهيره. حتى الآن لم تكن لي علاقة بالمطبعة هناك. وفور عودة أخي ذهبت إلى الهند بترغيب أحد الطلاب، وبدأت أدرس في موضع روهيل كهند في رامبور.

رامبور ولكهناو

كان معي المولوي محمد مصطفى والمولوي علاء الدين، وهكذا كنا ثلاثة نفر، وقررنا أن يكون لنا أمير يجب أن يطيعه الآخرون نظراً للغاية المنشودة من هذا السفر، وقررنا أن نقيم في مدينة واحدة ثلاثة أعوام - لأن هذه المدة كانت أكثر من كافية لتعلم اللغة العربية - ونقيم في مدينة لا يكون فيها عالمان أو ثلاثة علماء بل تكون عامرة بكثير من العلماء، لكي نتلقى بسهولة شتى العلوم بما فيه الكفاية، وكانت مدينة كاندهله في طريقنا، وقابلني فيها الرجل الطيب مشغول الأوقات المولوي نور الحسن، فطلب مني أن أقيم هناك، لكنني لم أحب السكن هناك زعمًا مني فقررنا السفر إلى رامبور، أنا أدعو للمولوي نور الحسن لأنه قال لي بلطف وإخلاص إن السفر بلا أمير لا يجوز. الله أعلم لماذا أهل المسلمون هذه العادة. فلما وصلنا إلى رامبور حللنا في مسجد مهجور غير كبير. وصباحاً حين جاء موعد الطعام جاءت فتاة بالغة من العمر ستة أو سبعة أعوام بالطعام، وبعد تناول الطعام خرجنا إلى المدينة بحثاً عن العلماء، ومساءً جاءت الفتاة نفسها بالطعام، وفي اليوم التالي أيضاً أحضرت الغداء

والعشاء، وفي اليوم الثالث حين قدّمت لنا الطعام قالت: إن أمي تقول: أرجو أن تدعوا الله لها حتى تحظى باهتمام زوجها. كنت أعرف اسم زوجها فذهبتُ إليه وبذلت جهدي قدر المستطاع في نصحه. فكانت النتيجة أن ذلك الشخص بدأ ينادي زوجته باحترام، فشكرت الله تعالى كثيرا.

في اليوم نفسه مررت وحدي من زقاق في حارة البنجابيين فلقيت في الطريق شخصا اسمه عبد الحق، فقال لي: يمكنك الإقامة في مسجدي، قلت: لست وحيدا، بل نحن ثلاثة نفر. فاستعد للاهتمام بنا نحن الثلاثة. عندها قلت له بأننا جئنا هنا من أجل الدراسة، لذا أرجو ألا يصل الأمر إلى أن نضطر لتسول الأرغفة من بيوت الناس. فقال: لن يحدث ذلك. ثم قلت: يجب ألا تحيلوا إلينا فتیان حارتكم لندرسهم، قال: لن أفعل. قلت: إننا نبحث عن الكتب والمعلمين. قال: سوف أساعدكم في ذلك، فجزاه الله خيرا. فقد وفي بوعده إلى سنة كاملة بمنتهى الإخلاص، رحمه الله تعالى.

وحين أقمت عند الحكيم علي حسين لمدة سنة في عام آخر عاملني الحافظ عبد الحق وأهل حارته باللطف نفسه مرة أخرى، فأنا أدعو الله له ولأولاده أيضا. في أوائل أيام السكن في رامبور كنت أخشى أن لا يكون ما قرأته في الماضي مفيدا لي، ومن أين سوف أبدأ، لذا كنت دوما أضطرب وأخشى، فالذي كان قد رعبنا في الذهاب إلى هناك أخلف الوعد وعاد منزعجا من البطالة، وأستغرب أنه لم يخبرنا عند الانصراف، فبقينا نحن الاثنان في تلك الأيام. كنت أتردد إلى طلاب العلم، فذات يوم رأيت لفيفا من الطلاب يُناقشون أمرا فيما بينهم مجتمعين، وحين تأملت في السؤال الذي كانوا يناقشونه

خطر ببالي جوابٌ رأيت فيه رداً كافياً. فقلت بصوت عالٍ -واضعاً في البال أني إذا نجحت في الرد على هذا السؤال فسأعدّ ما قرأته في الماضي نافعاً- بأنني سوف أرد على هذا السؤال. فنظرًا إلى مذهري البسيط سخر مني كثير من الطلاب وقالوا: أي ردّ سوف يعطيه هذا؟ غير أن الطلاب البنجاييين قالوا: ما الحرج في أن نسمع منه؟ فقالوا ينبغي أن نختبره فيما إذا فهم السؤال أم لا؟ وإذا فهم السؤال فيجب الاستماع إلى رده باهتمام، فهدأوا قليلاً، وعندما استعدوا للاستماع قلت لهم: يجب أن نجعل أحد علماء النحو الكبار حكماً في القضية. فاتفق الجميع أن يكون السيد الصالح غلام نبي المحترم حكماً، فهو متمكن من علوم النحو، فنهضنا جميعاً وذهبنا إليه، فقلت في نفسي: إذا تبين لي أنه عالم فسوف أتخذه أستاذاً، فكان المولوي غلام نبي أبيض اللحية وسيما ذا هيبة، فلاحظت أنه قال بلهجة الاحتقار: لماذا أتيتم؟ فتقدمت وقلت له: هناك سؤال أود أن أرد عليه، ونريد أن نجعلك حكماً في ذلك. فسمح لنا بالجلوس، ولما سمع السؤال وردّي عليه خاطبني بلقب "حضرة المولوي". عندئذ سررت كثيراً بسماع تلقيبي بـ "حضرة المولوي" وأدركت أن ما قرأته في الماضي من النحو لم يضع، مع أنني لم أكن قد درست "شرح جامي" بل كنت قرأت الألفية بدلا منه. هذا السؤال ورد في حاشية عبد الرحمن على شرح جامي، وقد ورد فيه ردّان على هذا السؤال أيضاً، فقرأت الردين كليهما، إلا أنهما كانا ضعيفين، وقال المولوي نفسه إنهما ضعيفان جداً، بينما جوابك قوي جداً، أما هؤلاء فلم يكونوا ليقبلوا منك ما لم تقرأ عليهم الردين الواردين في الكتاب، ويبدو أنك رددت بعد تدبر. فسررت بخطاب المولوي المحترم، وقررت أني لن أقرأ الآن

الكتب حتى شرح جامي، فبدأت أدرس عند مختلف الأساتذة، فدرست مختصر ملا حسن والمشكاة وأصول الشاشي وشرح الوقاية، والمبيدي. أثناء دراسة المبيدي كنت أتعجب وأستغرب جدا لأن الفقرة التي لم أكن أفهمها كان أستاذي أيضا لم يفهمها، فكرهت هذا الكتاب أشد الكراهية.

بعد مجيئي إلى هنا تأسفت كثيرا وقلتُ في نفسي، ليت المسلمين في الهند يختارون كتباً مدرسية بعد تأمل وتفكير جيد ثم يُمتحنون بها، ويركزون فيها على تقدم الطلاب في الدين والدنيا. ولو فعلوا ذلك لكانت منتهم على الأمة كبيرة، فالمدارس المختلفة تسبب مشاكل كبيرة. إن أهم المشاكل التي واجهتها هي عدم إشارة المعلمين على الطلاب بما يجب دراسته، وعدم تشجيع الطلاب على استخدام القوى التي أعطاها الله تعالى إياها لاختيار الكتب بمحض إرادتهم وحريرتهم، كما أنه لا يتم تعليم الأخلاق الفاضلة أو التأكيد عليها. ويمكنني القول بناء على بحثي بأني لم أجد ذلك عند أي معلم، وإنني أشعر بالألم من هذه الأمور إلى الآن؛ فعندما أفكر في هذه الأمور أتأذى كثيرا لعدم انتباه أحدٍ من معلمينا إلى أفعالنا أو أقوالنا وعاداتنا وأخلاقنا، بل لم ينبسوا ببنت شفة بالنسبة إلى عقائدنا أيضا. لا أذكر أن أحدا وجه أنظارنا إلى الأخلاق حتى أثناء دراسة المشكاة.

حدثان في أثناء إقامتي في "رامبور" جديران بالتأمل، أحدهما أي كنت أتردد كثيرا إلى شخص صالح اسمه "سيد عبد الرزاق"، وفي إحدى المرات ظهر مني التقاعس فزرتُه بعد تغيب لبضعة أيام، فقال لي:

"يا نور الدين، أين كنت كل هذه الفترة؟ قلت: يا سيدي إن الطلاب لا يجدون وقت فراغ لكثرة دروسهم، كما قد صدر مني بعض الكسل أيضا. فقال: هل زرت ملحمة؟ قلت: مرارًا. قال: فلا بد أنك شاهدت أن اللحام يقوم بحكِّ سكاكينه بغية شحذها عندما تصبح غير ماضية بعد إعمالها باللحم لفترة طويلة ليزيل الشحوم المتراكمة عليها. قلت: ماذا تقصدون من هذا البيان؟ قال: لا أقصد شيئًا إلا أنه بسبب عدم اللقاء تستولي عليك وعليّ أيضا بعض الغفلة في بعض الأحيان، وعلى إثر اللقاء نصبح نشطاء مجددًا، فلا تنقطع عن الزيارة طويلاً.

قد استفدت من كلامه فوائد جمة، وكانت أمنيتي دائما مجالسة الصالحين، لأن صحبتهم تزيل الكسل مهما كان شديداً.

والثاني أني كنت مولعًا بالكتب، وكان هناك صالحٌ اسمه السيد شاه وكان ينسخ الكتب لي، وكان يكسب من خلال النسخ كثيرا، إلا أنه كان ينفق كل ما يكسب على صناعة الكيمياء. ذات مرة قال لي أن أدفع له عشر روبيات دينًا، وبعده لن يحتاج إلى مهنة نسخ الكتب، وسوف يعيد لي هذا المبلغ نقداً، فلما سألته السبب قال: أنا مشغوف بوصفات الكيمياء منذ كان عمري ثمانية عشر عامًا. ولقد أصبحت خبيرًا جدًا في صناعة الكيمياء، والآن عثرت على الوصفة الأصلية للكيمياء، فسوف أصنع الفضة وأسد لك الدين، فدفعت له عشر روبيات، وبعد ذلك لم يقابلني لأيام عدة. وذات يوم ذهبت إلى المسجد الذي كان فيه إماما فلم أجده هناك، فقصدت الحجرة التي كان يقيم فيها، ووجدتها مغلقة من الداخل، فطرقت عليه الباب فانفتح لأن الأبواب لم تكن

محكمة، وكان السيد شاه جالسا على سريره، فانتبه لرؤيتي، فقال: انظر، لقد صنعنا الكيمياء، وأراني إناء من الفخار حيث كان فيه شيء يحترق، وكانت بعض الذرات أيضا تلمع، وقال: كادت الفضة تجهز وتأخرت أنا، إذ لم أُحْكَم الإناء جيدا، والآن لا بد أن أنسخ لك الكتاب لتسدّد الدين، لكنني في المستقبل لن أنسخ. فلما رأيت ذلك بدأت أنفر جدا من صناعة الكيمياء. قبل ذلك عندما كنت ذات مرة عائدا من راولبندي إلى بهيره صليت في مسجد في الطريق، ووجدت فيه رجلين يناقشان بيتا من الشعر من "إسكندر نامه" فحكمت بينهما بعد الصلاة وشرحت لهما البيت، فقبلاه، وكان منهما شاب جاء بيتي وبدأ يدرس عندي. كان يقيم في بيتنا ويتعلم، وقد درس اللغة العربية جيدا، وبعد أيام كثيرة جاء جده فقدمنا له ضيافة جيدة، فشكرنا كثيرا وقال لي: لقد أحسنت إلينا كثيرا إذ جعلت حفيدي عالما، وأنا أريد أن أعلمك الكيمياء جزاء لك، فلما كنت أحب والدي كثيرا ولم أكن أخفي عنه شيئا، ذهبت إليه فقلت له: فعلا قد أحسنا إلى هذا الشاب كثيرا، والآن جاء جده ويريد أن يعلمني الكيمياء مقابل ذلك، فما رأيك فيه؟ فقال لي أن أقول لجد ذلك الشاب: من الأفضل أن تصنع لنا عشرة آلاف روبية ولسنا بحاجة إلى تعلم الكيمياء. فقلت له ذلك، فانصرف. وبعد ذلك قال لي حفيده "إنه نصّاب"، فأشكر الله على أنه نجاني من الرغبة في الكيمياء، فلم تكن في أي زاوية من قلبي رغبة في تعلم الكيمياء قط.

قد يكون من المفيد البيان أن في ذلك الزمن كان يقيم في رامبور "ميان سبحان شاه"، فذهب إليه أحد أصدقائي الأحبة جدا وحدثه شيئا عن

الشريعة، فتجاهله ميان سبحان شاه، وكان صديقي مزهواً نوعاً ما لذا تخض لينصرف فقال له ميان سبحان شاه: إنك تنصرف من هنا الآن، لكنك لن تقاوم العودة إلى هنا فيما بعد. فأقسم له صديقي مؤكداً على أنه لن يعود إليه أبداً. لكنه لما وصل إلى البيت شعر كأن أحداً ربط عنقه بحبل ويشده بقوة، فهو ينجذب إلى سبحان شاه عنوة، فقرأ في الطريق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلا أنه كان ينجرّ إلى بيت سبحان شاه. ثم دعا الله بإلحاح وضراعة حتى انقطع الحبل، فعاد من الطريق إلى بيته. وبعد أيام عدة ذهب إلى بيت سبحان شاه من تلقاء نفسه ودون أي إكراه، فقال له سبحان شاه فوراً: انصرف، إنا قد قطعنا حبلك. فهذه من العجائب التي ظهرت هناك. في رامبور تعلمت المشكاة من حسن شاه المحترم، وشرح الوقاية من المولوي عزيز الله الأفغان المحترم، وأصول الشاشي والمبيدي من المولوي إرشاد حسين المحترم، وديوان المتنبي من المفتي سعد الله المحترم، وديوان صدري وغيره من المولوي عبد العلي المحترم، ومختصر ملا حسن من الحافظ سعد الله من "رريان" في البنجاب.

عندما قال لي بعض الأعرزة أن أقرأ الزواهد الثلاثة واجهتُ أمراً عجيباً وغريباً، فسألتهم بأي علم تتعلق هذه الكتب؟ فأثار سؤالي ضجة، وواجهت بسببه معارضة شديدة، لكنني استفدت من ذلك إذ ظهر عندي تردد في قراءتها، وصحيح أنني قرأت طوعاً وكرهاً "مير زاهد رسالة" و"مير زاهد ملا جلال" لكن بكراهية. ذات مرة كنت أمر من الشارع وكان معي عدد من الطلاب، وفي الطريق قابلني شخص أنيق الملبس برفقة عدد من الطلاب، فلما رأني سألتني:

أأنت نور الدين، وأنت تكلمت مع الناس عن الزواهد الثلاثة؟ فقلت له: يا سيدي هذا قد حصل، فربت على ظهري وقال: أنا أتفق معك، الآن إذا ناقشك أحد حول الزواهد الثلاثة وهزمتك فأتني به. لقد تكلم معي بلطف كبير، ثم قال: كل ما يدرس في الزواهد ليس بعلم، فلما سألت أحدا عن اسمه عرفت أنه الحكيم المولوي عبد الكريم، وكان في لسانه شيء من اللكنة. ولما كنت قد أقمت في رامبور عامين أو ثلاثة، لذا فهناك أمور كثيرة جديدة بالذكر، إلا أنني أحببت أن أذكر منها واحدة هي من منن الله ﷻ.

كان المولوي إرشاد حسين شيخا من قومي، وكنت مريدا للفئة النقشبندية، ومع ذلك كان كثيرا ما يحدث نزاع بحق المولوي محمد إسماعيل الشهيد، وكنت أسعى جاهدا أن لا تحدث خصومات من هذا القبيل، لأن ذلك يؤثر في دراستنا سلبيًا، إلا أن سكوتي هناك لم يفد. ذات يوم قال لي المولوي المحترم: إنك تمدح محمد إسماعيل الشهيد كثيرا وتعظمه، فهل رأيته؟ قلت لا، فقال: ألسنتُ أكثر منه علمًا؟ قلت: نعم، قد تكون أكثر منه علما، ولكن الفضل يعود إلى قوة الجذب فيه، إذ لا أراك ولا غيرك شيئا يُذكر إزاءه. وبسماع هذا الجواب استشاط المولوي إرشاد حسين غضبا. كنت أدرس عنده كتاب أصول الشاشي فقط، فأخذت الكتاب فبدأت أقرأ منه. فهذا بعد قليل.

كان بين الطلاب طالب يسمى عبد القادر خان، وكان يبدو غنيا. وكان في الحارة التي كنت أوأم الصلاة فيها شخص بسيط وأمي اسمه "كلن خان". وفي إحدى المرات حاول الطالب عبد القادر خان إثارته ضدي بقوله: إن هذا الطالب الذي يؤم الصلاة هنا لا يستحق أي احترام لأنه

يختلف مع المولوي إرشاد حسين في بعض القضايا. فقال كلن خان: لا يؤم الصلاة في مسجدنا أي طالب، فأخبره عبد القادر عن عنواني المفصل وذكر اسمي وأني طالب، عندها سلّ "كلن خان" سيّقه وقال: إن هذه القضايا مكتوبة هنا على حد السيف، فإذا أردت أن تقرّها فإني جاهز لأعلّمك إياها. عندما سمع عبد القادر المسكين كلام "كلن خان" فرّ من هناك على الفور، ثم جاء فيما بعد إلى المكتب وقصّ عليّ بنفسه القصة كلها. ولكن واهّا لنبل "كلن خان"! فهو لم يذكر لي هذا الحادث على الإطلاق، مع أننا كنا نتقابل يوميا، ثم بعد أيام كثيرة سألتُه شخصيا: هل تكلم معك عبد القادر بحقي؟ قال مبتسما: أراد أن يتكلم ضدك شيئا فامتنع، ولو تفوّه بكلمة أخرى لقطعْتُ عنقه.

قلت له: كان من المفروض ألا تفعل ذلك. فلو وصل هذا الخبر إلى سيادة حاكم الولاية لواجهت مشكلة، قال: كلا، لا يمكن أن يمسك أحد بسوء، سواء كان الحاكم أو غيره، قبل أن يُذبح كل واحد في حارتنا. إنني إلى الآن أمدح كلن خان، وأرى ذلك رحمةً من الله تعالى.

واجهت مشكلة حيث كان لي درسٌ ظهرا أو مساء في مكان بعيد فأمرضتني تلك السهرات وأصّبت بمرض الأرق، وتضايقت منه جدا، فبحثت هناك عن أعظم طبيب في الهند في هذه الأيام. فلم أسمع في الجماعة المحدودة هناك غير اسم الحكيم علي حسين اللكهنأوي، ومع ذلك قال الجميع إنه لا يملك الشفاء، وعرفت عاجلا أنه كان يقصده أغلب الأحيان المسلولون والمدقوقون والمجنودمون والمصابون بمرض السكر، فندرة شفاء هؤلاء المرضى لم تكن بسببه.

بما أن المرض كان قد أعياني سلفا فقد توجهت فورا إلى مدينة "مراد آباد" حيث لقيت شيخا صالحا اسمه عبد الرشيد من سكان مدينة "بنارس" عن طريق تاجر شاب بنجابي. فوَقَّر لي هذا الشخص الطيب من الراحة أكثر من الوالدين، مما تسبَّب في شفائي الكامل خلال شهر ونصف. فاستعدت صحتي وعوفيت تماما، وبعد أن تمتعت بالصحة الممتازة توجهت إلى لكهنأؤ، فأقمت عند صديق أخي السيد عبد الرحمن خان صاحب المطبعة النظامية في كانبور، فأثني كثيرا على الحكيم علي حسين اللكهنأوي، ثم ودَّعني في مركبة إلى لكهنأؤ حيث كان الجو صيفا وكان الشارع غير ممهد، فتراكم عليَّ الغبار، وعند وصولي إلى لكهنأؤ سألت عن الحكيم حيث توقفت السيارة، ومن عجائب قدرات الله أن بيت الحكيم كان حيث وقفت السيارة بالضبط.

هناك مثل في البنجابية جدير بالذكر في هذا المقام ومعناه: العدو يخرب والله يعمر. دخلتُ المنزل وأنا رثُّ الهيئة، وإذ أنا بقاعة كبيرة، فيها شخص ملائكي، جميل الشكل، جذاب المنظر، خلاب المشهد، أبيض اللحية، مرتديا لباسا أبيض ناصعا، متكئا على وسادة، وهناك وسادة جميلة أخرى موضوعة خلفه، وعلى جانبه وسادتان صغيرتان أخريان، أمامه مبصقة، وإناء توضع فيه أوراق نبات التنبول، وقلمٌ ومحبرة وبعض الأوراق. وفي أطراف القاعة تربعتُ وجوه جميلة بانتظام في صفوف مرصوفة. كانت أرضية القاعة فضيةً برّاقة. ذهلت برؤية هذا المنظر، لأني لم أره في البنجاب قط. المهم، وضعتُ حقيقتي قرب الباب وقصدت الطبيب المحترم من الباب الشرقي للقاعة. وحين وقعت قدمي الملطَّختان على تلك الأرضية الفضية خجلتُ في نفسي من الآثار التي

تركتها عليها. ووصلتُ إلى الطبيب بدون تكلف، وسلّمت عليه بصوت عالٍ حسب عادتي، الأمر الذي كان غريبا في مدينة لكهنأؤ. لا أستطيع القول ما إذا كان الطبيب المحترم قد ردّ على سلامي بصوت عالٍ أو منخفض، إلا أنني لما مددت يدي إليه للمصافحة مدّ هو أيضًا يده، وأصبحتُ يده ملطخة بالغبار بسبب يدي المغبرة. فتربعتُ إزاءه، وكان جلوسي هكذا على الأرضية الفضية أمرًا غريبًا آخر. فناداني شخص كان من سكان لكهنأؤ وقال: من أي بلد متحضر جئت؟ كنت معترفًا بخطئي سلفًا، ولكن كما يقول المثل الفارسي: يأتي الله تعالى بشرّ جعل تحته خيرًا لنا. فقلتُ له بحماس الشباب: إن عدم التكلف هذا والصوت العفوي بـ "السلام عليكم" هو نتيجة لتعليم النبي الأُمِّيّ المبعوث في وادٍ غير ذي زرع، راعي الغنم، فداه أبي وأمي. فكان لكلامي مفعول السحر على الشيخ، فاستولتُ عليه حالة من الوجد، وفي هذه الحالة قال للأمر: لقد كنتَ في مجلس الحاكم، فهل تعرضتَ لموقف محرج كهذا من قبل؟ ثم قال لي بعد برهة: ما الذي جاء بك إلينا؟ قلت: جئت لأتعلّم. فقال: لقد أصبحتُ شيخًا عجوزًا، وأشعر بالضيق من التدريس، فلا أقدر على تدريسك لأني آليت ألا أدرّس أحدا. وكنت في تلك الأيام أجد في نفسي حماسًا شديدًا، وقد يكون ذلك ناتجًا عن مرض الأرق الذي كنت قد أُصبت به قبل أيام. والحق أن الأمور كلها بيد الله يديرها كما يشاء، وبفضل تعلّمي اللغة الفارسية على يد السيد المنشي محمد قاسم قلتُ للشيخ بصوت ملؤه الأمل والحماس: إن قد ارتكب الشيرازي خطأ كبيرًا إذ قال ما معناه: "كسرُ القلوب جهل، وكفارةُ اليمين سهل". فاستولتُ عليه حالة من الوجد ثانية، واغرورقت عيناه، ثم قال

بعد هنيهة: هناك طيب بارع ومتمكن اسمه المولوي حكيم نور كريم، سوف أسلمك إليه، وسوف يدركك بشكل جيد. فقلت له بالفارسية ما معناه: "أرض الله واسعة، وما بي عرج". فاستولت عليه حالة الوجد للمرة الثالثة وقال: أحللت نفسي من قسَمي. ثم دخل الطيب إلى بيته، وانصرف الآخرون الذين كانوا قد جاؤوا بمرضاهم أو لأسباب أخرى. فانتهزت هذه الفرصة وحملتُ حقيقتي وخرجتُ من البيت.

كان لأخي صديق اسمه علي بحش خان، رحمه الله، صاحب "مطبعة علوي"، فوصلتُ إلى بيته حيث نلت قسطا كبيرا من الراحة، واغتسلت، وغيرت ملابسي. ثم أراني السيد "علي بحش" شجرة رمان جميلة في بيته الكائن عند المطبعة، وقال هذه تذكرك أخيك. استقررتُ هناك ولقيتُ كثيرا من العلماء الموجودين في مدينة لكهنأؤ وسمعت منهم أشياء متنوعة وعجيبة.

أعطاني السيد علي بحش غرفة للسكن، وكان عليّ أن أدبر طعامي بنفسي. وكما قلت سابقا بأن الحرف لا تناسب طبيعتي. فاستخدمتُ المنطق من أجل الخبز، فأشعلتُ النار في الموقد، ووضعت عليه لوحة حديدية. ثم جعلت العجين أشبه بسائل ووضعت في إناء، ثم صببت العجين السائل على اللوحة الساخنة ليكون الرغيف مدورا، وذلك دون إضافة الزبدة إليه. وعندما نضج نصفه السفلي حاولتُ كثيرا أن أقلبته على اللوحة ولكن دون جدوى. وفي أثناء هذه المحاولات نضج الخبز من كلا الوجهين. ثم دفعتني مخيلتي إلى إزالة اللوحة من الموقد ووضعتها أمام النار المشتعلة. ثم حاولت إزالة الخبز عن اللوحة بالسكين، ففشلت، فتوجهت إلى الدعاء، وخرجت من البيت وبدأت أدعو الله تعالى رافعا الرأس إلى

السَّمَاءَ بِالْكَلِمَاتِ التَّالِيَةِ: رَبِّ إِنْ تَفْوِيضَ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى شَخْصٍ غَيْرِ مُجْرَبٍ مِثْلِي إِنَّمَا هُوَ بِمِثَابَةِ إِضَاعَةِ رِزْقِكَ. إِنْ الَّذِي كَلَّفْتَهُ بِالْحَبْزِ لَا يَصْلِحُ لَشِيءٍ.

بَعْدَ تَأْمِينِ الْحَبْزِ وَالِدَعَاءِ ذَهَبْتَ رَأْسًا إِلَى بَيْتِ الطَّبِيبِ الْمَذْكُورِ فِي لِبَاسِ أَنْيَقٍ، وَفُورٍ وَصُولِي هُنَاكَ رَأَيْتَ تَأْثِيرَ دَعَائِي، حَيْثُ قَالَ لِي الطَّبِيبُ فُورٌ رُؤَيْتَهُ لِي:

"لَقَدْ جِئْتَ وَانصرفت دون استئذان، أيليق هذا بالطلاب؟ من الآن فصاعداً يجب أن تأكل معنا وتسكنُ عندنا أيضاً، أو يمكنك أن تبقى حيث تسكن الآن ولكن يجب أن تأكل معنا. فقبلتُ عرضه بعد تقديم الاعتذار، ثم سألتني ماذا تريد أن تدرس؟ قلت أحب أن أدرس الطب، وإلى ذلك الوقت لم أكن أعرف من هو أعظم طبيب في العالم، فسألني الطبيب المحترم: إلى أي مستوى تريد أن تدرس الطب؟ قلتُ: إلى مستوى أفلاطون، ولم أكن أعلم ما إذا كان أفلاطون طبيباً أم لا. فضحك وقال: إذن لا بد أنك ستتعلم شيئاً، ولو سميت شخصاً أقل منه علماً لصدمتُ؛ لأن كل إنسان لا يبلغ غايته المنشودة. كنت قبل هذا قد درست من الحكيم المرحوم إله دين اللاهوري والحكيم المرحوم محمد بنخش اللاهوري شيئاً من كتاب "موجز"، وكانت دراستي السابقة أكثر من كافية للخوض في النقاشات العلمية، فقلت يمكن أن نبدأ القانون، فتبسم الحكيم المحترم فقلت له: أستطيع أن أفهم كتاب الله وأفهمه فعلاً، فهل أبو علي ابن سينا وكتابه أكبر من كتاب الله؟ فأصر الحكيم المحترم أن يدرّسني كتاب "النفيسي" والجزء العملي منه، ولكن أتى لي أن أقنتع بدرس واحد في اليوم. فحاولت أن أتلقى درساً آخر في موضع آخر، لكن بارك الله في الوهابية، إذ لم يعجبني أي مكان بسببها، ومع ذلك شفع لي أحد عند المولوي فضل الله من

"فرنجي محل"، فوعد أن يدرسي "ملا حسن" أو "حمد الله"، وبدأ يدرّسني، كنت بالكاد درست عنده ولكني بعد بضعة دروس بدأت يوماً دراسة حياتي السابقة، وتوصلت إلى أنني إذا تابعت الدراسة بهذه السرعة فلن تتسنى لي الفرصة للانتفاع من هذه العلوم، وقررت أنني إذا لم أنجز ستة أو سبعة دروس يومياً لكان ذلك مضيعة للوقت. فعلى ذلك ذهبت إلى الحكيم المحترم لأودعه وأخبره أنني عائد إلى "رامبور".

"من عجائب قدر الله تعالى أنني فيما كنت في حالة من الشدّ والجذب، جاءت برقية إلى الطبيب المحترم من قبل "نواب كلب علي خان" حاكم رامبور، يطلب منه أن أتوظف عنده وأعالج أحد خدامه المقربين اسمه علي بحش. ذهبتُ إلى الطبيب بعد صلاة الظهر وعرضتُ مقصدي وقلتُ: أريد السفر إلى رامبور، فقال: أخبرني هل الوظيفة أفضل لشخص مثلي أم ممارسة الطب بحرية؟ أكسب في هذه المدينة ٤٠٠ روبية تقريباً، فهل من المناسب أن أترك هذا الدخل وأختار الوظيفة؟ قلتُ: إن الوظيفة ضرورية جداً لك، لأن في هذا الوضع الراهن عندما يتحرّك أحد عندك قليلاً ليحكّ جسمه، تظن أنه يريد أن يخرج مالاً ليعطيك إياه. فضحك الطبيب ملء فيه ضحكة عالية، ورسخ الله تعالى هذا الأمر في قلبه - ومن قدرة الله تعالى أنه جعل الناس هناك يظنون أنني من أولياء الله تعالى - عندها أخرج الطبيب البرقية وقال: أليس في ذلك مدعاة لسفرك إلى رامبور؟ وقلت: حسناً، نقبل الوظيفة، فاصحبنا أنت أيضاً. هكذا استعددتُ للعودة إلى رامبور. فتجهزنا للانطلاق إلى رامبور معاً.

عند الوصول إلى رامبور قال الطبيب المحترم، أرجوك أن تدعو لشفاء المريض. قلت: يبدو أنه غير ناجٍ من الموت، ولا تميل نفسي للتركيز في الدعاء له، ولا معنى للدعاء دون تركيز، ولا يهتَمنا الآن لو شُفي المريض أو مات، فقد وصلنا إلى رامبور على أية حال. ثم مات المريض علي بخش. فقال لي الطبيب المحترم: هناك طبيب آخر في مدينتنا اسمه "إبراهيم"، قد وجد فرصة للاستهزاء بنا في مجلس الحاكم بسبب موت "علي بخش". عندها خرج من فمي بصورة عفوية وأشهد الله على ما أقول: لا بد أن يموت عنده مريض مثل علي بخش، فلا داعي للقلق. لقد شاءت الأقدار أن يخرج هذا الكلام من فمي دون قصد أو تخطيط، ولم يكن شيء كهذا في الحسبان على الإطلاق. فأصيب خادم آخر من خدام الحاكم بالمرض نفسه، وعُيِّنَ الطبيب إبراهيم المذكور سابقا كعمالج له. كان المريض مصابا بالتهاب الكبد أيضا. وفي أحد الأيام سال من فمه دمٌ، فقال المعالج إن هذا الدم مؤشر جيد، وعندي أمل قوي في أنه سيستعيد الصحة. والرأي نفسه أبداه طبيبنا أيضا. ولكني قلت: إنه قد مات الآن. والله عجائب القدرات -ولا حول ولا قوة للإنسان- فمات المريض؛ وكان الأمر كما يقول المثل الفارسي: "لا يجوز لك الشكوى إن عوقبت على ما كسبته يداك". وهكذا توقف الطبيب إبراهيم عن الاستهزاء بنا بعد ذلك.

الأمر الذي وجدته مفيدا جدا في دراسة الطب وجربته واستفدت منه جدا، أرى أن بيانه مفيد، فالأول فيه أني لم أسأل الطبيب المحترم قط لعدة أيام كيف يُعدّ هذا الدواء المركَّب أو ما اسم ذاك الدواء المفرد، ذلك لأنه لو أخبرني لذكر الاسم المعروف لذلك الدواء في لكهنأؤ، ولم يكن سيفيدني

في وطني شيئاً، وكنت واثقاً من أنه تكفيني قراءة "أقرباذين" من أجل الاطلاع على تلك التركيبات.

ذات مرة سألني حضرة الطبيب عن الزرنخ والفلفل الأحمر وقال: كيف تُخرجهما من المفردات الدوائية؟ كان يمكن أن يكون هذا حافظاً قويا على أن أسأله في المستقبل عن أسماء الأدوية، إلا أنه خطر ببالي أن الدواء الواحد يمكن أن يكون له عشرون اسماً، فالدواء الذي يطلق عليه اسمٌ في منطقة البنجاب، له اسم آخر في هذا البلد، وفي هذه الحالة لا يمكن للطبيب أيضاً أن يخبرني عنها. غير أنني عثرت على جواب سؤاله عاجلاً بسبب عادتي في المطالعة، فاطمأن الطبيب.

وكان هناك أمر آخر أيضاً بالنسبة إلى الوصفات الدوائية وهو أن الطبيب المذكور كان يريد مني أن أكتب الوصفات للمرضى، ولكنني كنت أريد أن أتعلّم؛ فكلما رأيت أن الدراسة صعبت علي لازدحام المرضى عند الطبيب، ذهبت إلى معلمين آخرين. لأن في هذه الحالة كنت بالكاد أنهي الدرس من الصباح إلى المساء.

في أحد الأيام جاء مريض مصاب باستسقاء الرأس المزمن، وكان رأسه قد تضخم جداً حتى صار مثل رأس الفيل، وكانت شفثاه وعيناه أيضاً قد تشوهتا إلى حد مخيف. وكنت قد قرأت عن أعراض هذا المرض قبل يومين أو ثلاثة أيام، ولكنني لم أعرف أنه مرض استسقاء الرأس، وطلب مني الطبيب أن أصف الدواء للمريض. فقلقت من هذا الموقف كثيراً وتوجهت إلى الدعاء، فقال الطبيب بغتة وبصورة عفوية: لا يُرى مصاب بمرض استسقاء الرأس كهذا إلا نادراً.

فقلت له: قد ازدحم الناس لرؤية هذا المريض، فخذّه إلى الطابق العلوي وأتني لأخذ الوصفة، وهكذا أجلت الموضوع وذهبت إلى غرفة الطبيب وبدأت أتصفح الكتب التي كان الطبيب يقرأها مثل شرح القانون للجيلاني، وترويح الأرواح للطبري، ومجموعة البقائي، وكتبت وصفة مشتركة منها جميعاً، تحتوي على الضماد والطلاء والتناول، وأعدت الكتب إلى أماكنها، وحفظت الوصفة. وعندما عاد أهل المريض لاستلام الوصفة سألني الطبيب: هل كتبت الوصفة؟ قلت: سأكتبها الآن. وبما أنني كنت قد حفظت تلك الوصفة فأخذت القلم وكتبت الوصفة وقدمتها للطبيب. قال الطبيب بعد قراءة الوصفة: أحضِر لي "شرح الجيلاني"، و"ترويح الأرواح" و"مجموعة البقائي"، فألقى الطبيب نظرة عليها وسلّم الوصفة لأهل المريض. وسرّ الطبيب بهذه الوصفة كثيراً ونهض على الفور وقدم دفتره الخاص المحتوي على وصفاته الخاصة إلي، وقال: أنت أهل لها. قال هذا وانصرف إلى بيته.

وجدته يحتوي على عدد من الوصفات، فتركته في العيادة وذهبت إلى غرفتي، ثم جاء الطبيب في وقت آخر وحين رآه مفتوحاً هكذا أخذه وسلمه لي قائلاً: ألم تحتفظ به؟ قلت بكل أدب: ماذا سأفعل به؟ فإن وصف الأدوية يعتمد على الفحص وتشخيص المرض، وليس في الدفتر شيء يتعلق بالفحص. فتبسّم الطبيب وقال مبتسماً: صدقت.

الأمر الثالث الجدير بالذكر هنا أن قائمة طويلة للكتب مثل "قانونجه" و"الموجز" و"الاقصرائي" و"النفيسي" و"السديدي" و"شرح الأسباب" ضمن الكتب الدراسية كانت تحيرني، وكنت واثقاً من أنه كما أنّ العلوم الأخرى لا

تُكتسب من دون نشوء الملكة. كذلك لا يفيد الطب أيضا دون هذه الملكة، كما أنه في الكتب المدرسية راج خطأ؛ حيث يضاع الوقت في المختصرات والحواشي على الحواشي، ومثلما يخاف لديغ الحية من الحبل فقد حزنت جدا على ضياع عمري السابق، لذا اكتفيت بدراسة كتاب القانون والجزء العملي منه. وفي إحدى المرات قال لي الطبيب: أريدك أن تدرّس أحدهم كتاب "شرح الأسباب" أمامي. فقيلت ذلك بكل سرور، ودرّست أمامه شخصا اسمه المولوي محمد إسحاق بكل نجاح. لقد ذكرت كل هذه الأمور لعل أحدا يستفيد منها. يوم كنت أدرس الطب خطر ببالي ذات يوم أن أدرس ديوان المتنبي فذهبت إلى المفتي سعد الله وطلبت منه بإلحاح أن يعطيني درسا كل يوم، لكنه أبدى نوعا من الفتور وقدم العذر بضيق الوقت. فقلت: لا بأس، الآن لن أدرس عندك حتى تتوسل إليّ. وبعد العودة إلى المنزل قلت لأستاذي الطبيب: لم أعد أرغب في تلقي العلم، فسألني عن السبب فقلت له: لا فائدة من تلقي العلم، ثم سألته: ما هي الفائدة من العلم في النهاية؟ قال: العلم يزيّن صاحبه بالأخلاق الفاضلة. لكن لماذا تسألني ذلك؟ قلت: كنت قد حضرت عند المفتي سعد الله لدراسة ديوان المتنبي، فقال لي بفتور: ليس عندي الوقت لذلك. فكتب الطبيب في الحال رسالة إلى المفتي يطلب منه المرور عليه لدى عودته إلى البيت بعد تفرغه من المحكمة، وطلب مني أن أدخل عند مجيئه إلى الغرفة المجاورة. فلما جاء السيد المفتي قال له الطبيب: إذا أردت أن أتعلم منك شيئا فهل يمكنك أن تخصص بعض الوقت لذلك؟ فقال المفتي بكل حماس: طبعًا، أنا جاهز دائما لخدمتك. فقال الطبيب: وماذا لو أراد أحد من أساتذتنا أو مرشدينا أن

يتعلم على يدك؟ قال المفتي: أما بالنسبة له فلاذهب إليه حيثما كان وسأدرسه. فدعاني الطبيب. فلما خرجت إليه ضحك المفتي لدى رؤيته لي، وقال: تعال يا صاحبي، أتوسل إليك أن تدرس عندي. فعرفت أن ما ورد في الحديث أن الملائكة تفرش أجنحتها للطالب صحيحٌ تماما. فقد بدأ يدرّسني بفضل الله ﷻ الديوان درسا درسا، وكنت أتدلل عليه أحيانا أيضا، لكني لا زلت أloom الأساتذة؛ فعلى الرغم من حضوري عند أكابر العلماء فإنه لم يهتم أحد منهم بتعليم الأخلاق، ولم يقترح أحد منهم عليّ بأن أقرأ الكتاب الفلاني، ولم ينبهني أحد منهم للاحتياجات المستقبلية.

مرة دار النقاش بين الطلاب فيما إذا كان أهل الكمال يخبرون أحداً بكمالهم أم لا. كنت أقول إنهم يخبرون الآخرين بذلك برغبة عارمة ولا يجدون من يأخذ منهم، ولكن الطلاب الآخرين كانوا يرون العكس. فقلت لهم: لن تقبلوا ما قلته ولن تقبلوا الهزيمة، لذا أخبروني عن أحد من أهل الكمال لنحكّمه، فأشار الجميع بالإجماع على السيد "أمير شاه عامل". وكان له حديقة داخل المدينة. توجه الطلاب كلهم إليه فلما حضروا عنده وجدوه متكئا على سرير من خشب، وبالقرب منه بساط صغير مفروش على الأرض. فجلس الطلاب الكبار والأكثر استحقاقا على البساط بينما جلس الآخرون على الأرض. أما أنا فلم يسبق لي الجلوس على الأرض مطلقا، بل ما زلت أكره الجلوس على الأرض، لذا ظللت واقفاً متكئا على جدار طيني. فلما جلس الجميع قال لهم أمير شاه المحترم: لماذا أتيتم؟ ثم خاطب السيد "أمير شاه" الطلاب وقال لهم بمنتهى الحفاوة: ما الذي جاء بكم إلى هنا. فقلت مشيرا إلى الطلاب: هناك

قضية، كلهم فيها مدّعون وأنا مدّعى عليه، أو العكس صحيح، ونريد منك الحكم فيها. عندها سألني حضرته: لماذا أنت واقف؟ قلت: إن البساط صغير والطلاب الجديرون بالاحترام أكثر قد جلسوا ولم يتبق أي مكان، ولذلك بقيتُ واقفًا. قال: تعال عندي، فجلستُ معه على السرير. فعلم حينها الطلابُ الحكمَ في القضية، إلا أن الحكمَ بعد سماع القضية قال لي بكلمات واضحة: أنت على الحق والآخرين مخطئون كلهم. فقلتُ للطلاب: ها قد صدر الحكم، فلننصرف الآن. فلما أردت الانصراف أمسكني وأجلسني مرة أخرى عنده، ودخل غرفته القريبة منه وأحضر لي مخطوطة ضخمة، فلما رأيتها كتابا ضخما يحتوي على تجاربه الشخصية، سلّمنيها قائلاً: هذا كل ما ادخرته طول حياتي، والآن أهدي لك هذا الكتاب. فقلت له: أنا ما زلت طالبا، فلا حاجة لي به. قال الشيخ والدموع في عينيه: أعطيك إياه فلا تأخذه، ويلحّ الآخرون على طلبه فلا أعطيهم!

عندما أردت الانصراف قال لي: إني قائل لك شيئا مهمًّا عن التجارب الروحية، فاسمعه جيدا. إذا أتاك شخص لحاجة فاخضع أمام الله تعالى وتضرّع، وادعُه كالتالي: ربِّ إني لم أقل له أن يأتي عندي، بل إنك أنت من أرسلته، فإن كان ما جاء من أجله غير صالح للتلبية بمقتضى حكمتك، فإن ذني الذي بسببه قد ابتليتني بإرسالك إياه إلي أتوب إليك منه. وإذا أصرَّ هذا الشخص بعد دعائك فاكتب له شيئا من الأوراد بعد أن تعيد الدعاء مرة ثانية.

إن هذه النكتة التي بيّنها لي السيد "أمير شاه" قد نفعني كثيرا إلى اليوم. ولكن الطلاب الآخرين لم يلقوا لها بالاً، ولم ينتبهوا إلى أهمية ما أفاد به "أمير شاه".

وبعد الخروج من هناك قال الطلاب مشيرين إلي: إنه يعلم كيف يأسر قلوب الآخرين بالحب، لذا فقد استولى على السيد شاه، ولذلك فقط يعاشر الأثرياء وكبار الناس دائما وهم يحترمونه.

لقد أقمت سنتين هناك عند حضرة الطبيب وبالكاد أنهيت الجزء العملي من القانون، وبعد الحصول على الشهادة والإذن استأذنته للذهاب لتعلم اللغة العربية والحديث، فأشار عليّ بالذهاب إلى ميرته ودلّهي، وقال لي بمنتهى الحب واللطف: سنرسل لك النفقات المعقولة في هاتين المدينتين. فلما وصلت إلى ميرته وجدت الحافظ أحمد علي قد انتقل إلى كلكوتا، والمولوي نذير حسين المحترم كان معتقلا بسبب اتهامه بإرسال النقود إلى المجاهدين، فلم أستطع أن أتعلم من أحدهما حتى كلمة واحدة، فذهبت إلى بهوبال. صحيح أنني استفدت كثيرا فيما بعد من الحافظ أحمد علي السهارنبوري، لكن ذلك لم يكن في وقت التعلم.

أول مرة في مدينة "بهوبال"

في الطريق إلى بهوبال مررت بمدينة غواليار، حيث التقيت شخصا صالحا كان قد تربى على يد حضرة سيد أحمد البريلوي، وسُرت بصحبته كثيرا حتى قررت المكوث هناك. قرأ هذا الشخص الصالح مرة أثناء الحديث معي بيتين بالأردية معناهما:

إلهي لا تحاسبني على تقصيراتي وأخطائي الكثيرة، فمن أسمائك الغفور الرحيم، حتى لا يقول العدو بالنظر إلى حزني: إن هذا عبد ذلك الإله الذي يسمّى كريما. إن هذين البيتين قد أثرا في نفسي لدرجة أنه قد مضى على هذا الحادث خمسون عاما، ولكن لم تُزل لذته ومتعته من صفحة قلبي حتى اليوم. ومع أن

هذا الدعاء لا يعدل الأدعية المسنونة، ولكن لا أدري كيف كان قد خرج من الأعماق، فكان له تأثير عجيب.

بعد الإقامة هناك لبضعة أيام وصلت إلى معسكر "غونه". وفي الطريق جُرحت قدمي بسبب المشي الطويل، وأصابني الإرهاق الشديد فلم أعد قادراً على مزيد من المشي، فأقمت في مسجد شبه مهجور. وفي وقت متأخر من الليل جاء شخص للصلاة، فسألته عن سبب التأخير، فقال: نحن تجار وكنا نعيش هنا بأمن ووثام منذ فترة طويلة وكان المسجد عامراً، ولكن بسبب النزاع بين المصلين على رفع اليدين عند التكبير والجهر بـ "أمين" في الصلاة كاد المسجد يهدم. وفي الأخير أعلن أحد الأشخاص الماديين: عليكم أن تصلوا في البيوت واشتغلوا في تجارتكم. لماذا تعرضون أنفسكم للهلاك لأقوال المشايخ؟ فترك الجميع أداء الصلاة في المسجد، وأصبحوا يصلون في بيوتهم أو لا يصلون، ولكن قلبي معلق بالمسجد، فآتية متأخراً حتى لا يراني أحد. فقلت لذلك الشخص: أرجو أن تجمع هؤلاء الناس غدًا إذا أمكن، فإني أريد أن أنصحهم. فذهب بعد الصلاة وبعد هنيهة جاء بالأرز الذي كان كافياً لي وله. وفي اليوم التالي أحضر كثيراً من الناس، فنصحتهم كثيراً ضد التباض قائلًا: إن الله واحد، والرسول واحد، والكتاب واحد، والقبلة واحدة، وإن معظم الفروض أيضاً مشتركة بينكم، فمن الخطأ أن تتركوا أمراً عظيماً كالصلاة جماعة بسبب خلافات تافهة. فكان لنصيحتي تأثير طيب فيهم، فتعاطف معي الكثيرون، وأحدهم المدعو الدكتور حبيب الله خان واساني كثيراً بخصوص علاج قدمي الجريحتين، وأخيراً انتقل إلى "بحيرة سانبره" وحافظ على علاقات الحب

والإخلاص معي طول الحياة، كنت في قاديان عندما توفي، رحمه الله، فقد ظل يواسيني ويلاطفني كثيرا.

إنني أستغرب وأعجب جدا من هذه النزاعات التافهة، وإذا لم يثر الملاحون في قومنا الشعب بسبب هذه المسائل البسيطة، ففي رأبي لم يسلم المشايخ وأصحاب الزوايا هم أنفسهم، لكن الحقيقة أن لا أحد ينبههم إلى هذه الأمور خلال الدراسة، كما أنهم نادرا ما يتمتعون بالرفقة الطاهرة في أيام الدراسة، ومن سوء حظهم أنه لا يوجد أي كتاب عملي حول الأخلاق.

ثم خرجت من معسكر "غونه"، وكان يرافقني شاب أفغاني وسيم جدا يدعى محمودا، ولم نقطع مسافة قصيرة حتى قال لي أحد الفلاحين: إن الطريق الذي تسافر فيه قد تفشى حوله وباء الكوليرا، فاختر طريقا آخر. فمحمود كان متوكلا كبيرا، وكان فهمه لمعنى التوكل خاطئا، الذي بالاستناد إليه أصبح المسلمون عموما كسالى ومتقاعسين في العصر الراهن، وكان هو الآخر مصابا بالكسل والتقاعس، فلم يُصنع نصيحة الفلاح، ولم يبال بتحذيري أيضًا، بل قال إن هذا الخبر من قبيل أخبار الآحاد ولا نعرف حقيقة الأمر. فقلت له أنا بريء من هذا التصرف لكنني مضطر، ثم لم نمض إلا بضعة دقائق حتى أصيب محمود هذا بالكوليرا، وأعياء إسهال واحد فقط. فتراءت لنا قرية على مسافة وحاولنا الدخول إليها بسرعة، لكن أهلها منعونا، فمكثنا تحت شجرة التمر الهندي، ثم مات بعد يومين أو ثلاثة أيام رغم بذل المساعي لمعالجته. ولقد واجهت مشقة كبيرة لعدم تيسر الطعام لأيام عديدة ودفنه. فبعد وفاته التمسنا كثيرا من العمدة أن يسمح لي بدفنه، لكنه تقاضى مبلغا باهظا لحفر قبره.

واشترط ألا يحمل الجثمان أحد من أهل القرية، وإنما سيحفرون له حفرة عميقة. وعندما أصبح القبر جاهزاً أنزلته بنفسه في القبر، ولم أتذكر صلاة الجنازة عليه إلا بعد أن حثوا عليه التراب.

كان في القرية مسلم وحيد يُدعى "كرجن" واسم أخيه "أرجن" الذي كنت قد طلبت منه المساعدة بالحاح، ولكنه رفض رفضاً باتاً. فحدث أن أصيب ولده الوحيد بالكوليرا، فجاء هذا الشخص إليّ مهرولاً - وذلك بسبب الأفكار الوثنية التي كان يحملها، وكذلك لأنه كان قد رأني أعالج صاحبي "محمود" الأفغاني - وقال: تعال إلى بيتنا وكُلْ عندنا أيضاً. فذهبت معه وفحصت الولد ووصفت له الأدوية، وتمائل المريض إلى الشفاء، وطبخت أمه طعاماً لي. كان المرض قد تفشى في القرية فعالجت كثيراً من المرضى الآخرين، عندها أعاد عمدة القرية إليّ المبلغ الذي قد أخذه لقاء حفر القبر لصاحبي "محمود"، بل زاد عليه وأوصلني أيضاً إلى بهوبال مع أمتعتي. وفي الطريق نفسه استفدت كثيراً في مشاهدة "غنج شهيدان" لحضرة الشاه وجيه الدين (أحد أجداد شيخ المشايخ الشاه ولي الله) وتلقيت الكثير من العبر، وكان الشاه معروفاً هناك بـ "ولي كغن".

فلما وصلت إلى بهوبال كان عندي بعض المال، وتركته مع أمتعتي في خانٍ خارج المدينة، وغيرت ثيابي وأخذت منه روبية واحدة ومشيت إلى المدينة. فلما كانوا لا يسمحون لأي أجنبي بالدخول فقد تركت الأمتعة في خان خارج المدينة، وفي المدينة وجدت مطعماً صغيراً دخلت فيه وتناولت الطعام مقابل نصف روبية، وهكذا لم يبق عندي إلا نصف روبية. عند دخولي المدينة بعد

استئذان حاجبها أدركت أن نصف الروبية التي كانت معي قد سقطت في الطريق، فعدت إلى الخان لآخذ نقوداً أخرى، فوجدت أن أمتعتي ما زالت كما كانت ولكن النقود مفقودة. وفي اليوم التالي حين دخلت المدينة مع أمتعتي، كنت أفكر أين أضع الكتب وغيرها، حتى تبقى مصونة. وحين مررت من أمام المطعم الذي كنت قد أكلت منه قبل يوم، دعاني صاحب المطعم وقال: كُلِ اليوم أيضاً. فوضعت الكتب والأمتعة عنده وأكلت بلا تكلف حتى شبعت. وكنت أفكر في نفسي أنه لم تبق عندي نقود الآن، غير أن قيمة الأمتعة لا تقل عن نصف روبية (وهي ثمن الطعام). فتركت الأمتعة عنده وانصرفت.

كان في مدينة بهوبال مسجد واسع جميل يقع قرب غدِير، فأعجبني كثيراً، وأصبحت أقضي معظم أوقاتي هناك.

الآن لم أعد أذهب إلى صاحب المطعم. وبعد أن قضيت عدة أيام بدون طعام تيقنت أنني لن أبقى على قيد الحياة إلى المساء. كان في المسجد مكان مرتفع، فجلست متكئاً عليه وقت العصر ثم استلقيت، وكنت أتصب عرقاً بسبب الضعف الشديد الناتج عن شدة الجوع، وخيّل إليّ أنني سأفارق الحياة حتى المساء.

في هذه الأثناء جاء للصلاة "المنشي جمال الدين" عمدة المدينة. وبعد الصلاة أرسل إليّ إمام المسجد الذي تحدث إليّ قليلاً. ولما كانت حالتي يرثي لها من شدة الجوع، رددتُ على أسئلته بفتور. والله أعلم ما قد قاله الإمام للسيد جمال الدين عني، إلا أنه فور عودته إليه جاء إلي مع بعض أصحابه - وكنت لا أستطيع النهوض بسبب الضعف الشديد وذلك ليس من عادتي

أيضا- فتقدم إلى الإمام وقال: حضرة المنشي قادم، فقلت له فليتفضل، فجاء المنشي وظللت مضطجعا فسألني: أنت شخص مثقف؟ قلت: نعم. ثم سألتني جمال الدين: ما هي العلوم التي أنت ملئٌ بها؟ قلت: أعرف كل شيء. فطلب مني السيد جمال الدين أن أجس نبضه. ففعلت، ولا أعرف بأي حذر جسست النبض، وإنما قلت له: إنك مصاب بسوء الهضم. فطلب مني الوصفة الطبية، فأملت عليه وصفة غالية الثمن جدا. فقال: وإن لم تنفع الوصفة؟ فرددت عليه بشدة. ثم طرح السيد جمال الدين سؤالاً وقال: هل تعرف علم المساحة؟ قلت: نعم. وكانت هناك بركة كبيرة أمامنا، فقال جمال الدين: هل لك أن تقدر مساحتها وأنت جالس هنا؟ قلت: نعم. ثم أشرت إلى قاعدة بهذا الخصوص وقلت: هذا يتم بجزء قلم واحدة.

بعد ذلك انصرف الناس كلهم، إلا أن السيد جمال الدين أرسل بواسطة مندوبه إليّ أنه يريد أن يقيم مأدبة من أجلي. فلما لم أكن أستطيع النهوض ولا المشي إليه قلت: ليس بي حاجة إلى الوليمة. فقال جمال الدين: إنها دعوة مسنونة! فقلت في نفسي: ما دمْتُ على وشك الموت من الجوع فالأفضل أن أعمل بالسنة النبوية وأقبل الدعوة، فقلت: حسنا قد قبلتُ الدعوة. وبعد برهة جاء شرطي وقال: تعال نطلق، فالطعام جاهز. قلت: لا أقدر على المشي. فقال لي ذلك الرجل الطيب: اركب على ظهري، ففعلتُ. فأوصلني هذا الشخص بكل حيطة وحذر إلى المائدة وأجلسني على مقربة من السيد جمال الدين.

"فكرت كثيرا بما يجب أن أكل. كنت أحب الأرز المطبوخ مع اللحم، فأخذت لقمة منه، وعندما قرّبتها من فمي خفتُ أن تغصّ في حلقي فأموت،

فتركتُها. ثم نظرت فوجدت في صحن آخر حساء من لحم الدجاج، فاحتسيت منه قليلا، مما بعث في نفسي رمق الحياة. ثم تابعت احتساءه شيئا فشيئا. عندها طلب السيد جمال الدين الطَّبَّاحُ وسأله: ما العيب في الأرز مع اللحم؟ قال: ليس فيه عيب إلا أن قليلا من لحم الديك الموجود فيه كان قد احترق في قعر القدر، وبما أن الطنجرة كبيرة وكمية الأرز أيضا كبيرة، فأخفيت هذا اللحم تحت الأرز. أخذ السيد جمال الدين لقمة منه وشمَّه لكنه لم يشعر بشيء، وظن بأني كنت شممتُ لقمة الأرز وشعرت بهذا العيب فتركتها. ثم سأل الطَّبَّاحُ: أي من هذه الأطعمة أطيب طبخا؟ قال: الحساء الذي بيد نور الدين. على أية حال شربْتُ الحساء كله، وكان مفيدا لي جدا، وأعاد إليَّ صوابي وقوتي، إن صح التعبير.

بعد الطعام صرف السيد جمال الدين أناسا آخرين وسألني: مَنْ أنت، ومن أين جئت؟ فأخبرته بلهجة أهل لكهنأؤ: "أنا من البنجاب، وجئت إلى هنا للدراسة."

لقد نفعني هذا الحديث كثيرا، إذ كان السيد جمال الدين يظن أنني شخص من أثرياء القوم ومطروح النوائب ومضروب النوازل، وأتخذ من الدراسة عذرا لي وأني عالم كبير. فقال لي: امكثْ هنا وكنْ أيضا معي دائما في المستقبل، وحيثما طاب لك المقام للدراسة سوف أساعدك على ذلك.

فعلى إثر ذلك أعطاني المنشي جمال الدين غرفة للإقامة قرب داره، وأمر مديرَ مكتبته ألا يمنعني من أي كتاب. قلت له: عندي أيضا بعض الكتب، وقد وضعت أمتعتي عند صاحب المحل، وعلي أن أدفع له. سوف أدفع له

شخصيا وإنما أرجو أن تنقل من هناك أمتعتي، فوصلت بعد قليل جميع أمتعتي، فسكنت هناك.

هناك بدأت أتعلم "البخاري"، و"الهداية" من حضرة المولوي عبد القيوم. وكان المنشي جمال الدين يعلم ترجمة حرفية للقرآن الكريم بعد صلاة المغرب كل يوم. فحضرت ذات مساء درسه. كان الدرس حول الآية: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسْنِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ...﴾، فاستأذنت لطرح سؤال أيضا، فسمح لي بكل سرور. فقلت: "الحديث هنا عن المنافقين، وقد استخدم الله هنا كلمة لينة إذ قال: ﴿وَإِذَا خَلَا بِغُسْنِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولكن في بداية السورة وردت كلمة قاسية جدًا عند ذكر المنافقين أنفسهم حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ﴾، فما السبب وراء تلك اللبونة هنا وتلك القسوة هناك؟" فسألني المنشي: هل تعرف؟ فقلت: "أرى أن المنافقين في المدينة كانوا على نوعين: أهل كتاب ومشركين. وقد استخدمت في حق أهل الكتاب كلمة لينة أي ﴿بَعْضُهُمْ﴾، أما المشركون فقد وردت في حقهم كلمة قاسية، أي ﴿إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ﴾. فهض حضرة المنشي من كرسيه عند سماع هذه النكتة العجيبة وجاء إلي وقال: "اجلس أنت على هذا الكرسي، أما أنا فلأدرس القرآن الكريم على يديك." من غرائب قدر الله تعالى أنني أصبحت مدرسا للقرآن الكريم بتعليقي على كلمة واحدة."

بدأ المنشي يزداد حبًا لي يوما بعد يوم. وذات يوم نشأت مسألة أخلاقية في مجلسه، وكنت موجودا هناك إذ استخدم قاضي المدينة بحق حضرة الشاه إسحاق كلمات قاسية في مجلس المنشي جمال الدين؛ فلم أستطع أن

أتحملها وخرجت من المجلس غيرَةً، وفي ذاك اليوم لم أذهب للطعام إلى بيت المنشي جمال الدين.

ويمكن تقدير حب المنشي جمال الدين لي بأنه هو أيضا لم يأكل الطعام في ذلك اليوم. أما أنا الغر والجاهل في تجارب الزمن فلم أكن أعرف أنه يجبني لهذه الدرجة. فسأل في اليوم التالي شخصا: أين يصلي نور الدين العصر؟ قال: في المسجد الفلاني. فذهب المنشي المحترم إلى ذلك المسجد ووجدني أصلي العصر، فجلس عن يميني. وحين سلمت إلى ذلك الجانب قائلًا: السلام عليكم ورحمة الله، قال المنشي على الفور: يا أخي قد سبقتني بالسلام. قال ذلك وأمسك بيدي وأهضني، ثم أركبني في عربة وأخذني بعيدا عن المدينة، وقال: لقد جعلتني أتصور جوعا منذ البارحة. قلت: قد أسيء في مجلسك إلى الشاه إسحاق الذي أعشقه. قال: هل رأيته؟ فقلت: لا. قال: أما أنا فقد تعلمتُ القرآن الكريم منه. كنت من الشيعة بل من عُلاتهم، وكان بيتنا في دلهي يقع في مكان يضطرنني للمرور أمام بيته، وفي نهاية المطاف بدأت أحضر درسه. ونتيجة لصحبته وصلت إلى ما أنا عليه الآن. ثم حكى المنشي المحترم قصة تشيُّعه ثم انضمامه إلى أهل السنة وقال: إني أحترم الشاه إسحاق كثيرا، ولكن الحادث الذي ذكرته كان يتعلق بأمور الدولة، فلم أر التدخل فيه مناسبا. وإن هؤلاء الناس (رجال الدولة) يتصرفون هكذا عادة، فلا تهتم بمثل هذه الأمور كثيرا. قال ذلك وأدار العربة وجاء بي إلى بيته حيث أكلنا معا.

لقد شاهدتُ حبه لآيات القرآن الكريم وكونه وقَّافا على القرآن بحيث لم أجد نظيرا له على ما أذكر.

مرة كنت ذاهبا مع السيد المنشي جمال الدين إلى حديقته، فسألني في الطريق: لقد ورد حرف "إذا" قبل "ما" في الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ﴾ فهل يوجد له نظير في الشعر العربي؟ فيا عجبًا لفترة صغر السن! كنت أنا وحفيده جالسين على مقعد واحد في العربة وكان السيد المنشي جالسا مقابلنا، إذ خرج من فمي بصورة عفوية البيت التالي:

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له
بشقي وتحتي شقها لم يُجول

لقد قرأت البيت بصورة عفوية، ولا تسألني عن خجلي حين طلب مني المنشي أن أترجم البيت. فنظرتُ إلى حفيده نظرة المتحرج، فوضع حفيده شيئا أمام وجهه وأحنى رأسه وتبسم قليلا، ثم لزمنا السكوت. كان حضرة المنشي ذا طبيعة طيبة وتقية جدا، ففهم على الفور أن في البيت شيئا من الفحش، فغيّر الموضوع. "تعلمت في ذلك اليوم درسًا أن على الإنسان أن يفكر جيدا قبل أن يتفوه بكلمة. صحيح أن التفكير الكثير أيضا يضر في بعض الأحيان، ولكن يمكن تداركه بالدعاء. لقد بقيت في حيرة شديدة واستغراب كثير على فعلتي تلك، ولكن انظروا إلى نباهة حضرة المنشي فإنه لم يسألني عن ذلك البيت بعد ذلك قط.

لقد ذهبت إلى بهوبال مرتين حيث درست "البخاري" و"الهداية" على يد المولوي عبد القيوم، كما سمعت من المفتي "حديث مسلسل بالأولية" الذي رواه من محمد بن ناصر الحضرمي، فجزاه الله أحسن الجزاء.

لقد حكى لي المنشي جمال الدين قصة عن السيد بأنه محمد بن ناصر الحضرمي فقال: لقد زار بيتي مرة، ولما كان رجلا صالحا جدا ومعروفا بين الناس، فوضعتُ أمامه كيسًا فيه ألف روية. فتغيرَ وجهه برؤية الكيس وظهرت عليه

أمارات الاستياء. فأخذت الكيس على الفور ووضعتُه أمامي، فعادت على وجهه أمارات البشاشة، فضحكتُ، فسألني لماذا ضحكت؟ قلت حين وضعت أمامك الروبيات تغير وجهك، فلما أخذتها وصرفتها من أمامك عادت إلى وجهك أمارات البشاشة، فقال: كنت أنوي أن أزورك وأسمعك حديثنا، ولكنك حين وضعت الكيس أمامي حزنت وقلتُ في نفسي إن هذا الشخص مادي؛ وقد ورد في الحديث إذا أعطاك أحد مالا فلا تردّه، لذا كان من الممكن أن آخذ المال دون أن أسمعك حديثنا، ولكن الآن بدا لي بأنك رجل ذكي، لذا سوف أكرر المجيء إلى هنا حتمًا لأسمعك الحديث. ثم قال: لا حاجة لي في النقود، لأن لدينا من النخيل ما يسد حاجتنا لسنة كاملة، ولدينا إبلٌ أيضًا، ففي كل سنة في موسم الحج نحمل التمور على الإبل في جانب من الهودج، وفي الجانب الثاني نُركب الخادِمَ وقربة ماء، ولا نحتاج إلى أي شيء آخر بفضل الله تعالى.

هذا الحادث قصه عليّ المنشي جمال الدين بلا أي وساطة، كما قال إن السيد محمد بن ناصر الحضرمي كان يسرع في الكلام ويتحدث بصورة سلسلة بدون كلل أو ملل، ولكن لم تخرج من فمه إلا كلمات القرآن الكريم والحديث. لقد وجدت في المنشي جمال الدين ميزة خاصة؛ وهي أنه كان دوماً يبحث عن الأعمى أو العمياء، وكان يطلبهم من أقصى البلاد، وأحياناً كان يأتيه الأعمى والعمياء كلاهما معاً فيزوجهما، وأحياناً يكون أحدهما فقط أعمى، وكان يتحمل نفقاتهم جميعاً، وكان قد عمّر على نفقته الخاصة حارة كاملة أسكن فيها العميان رجالاً ونساءً، وكان بنفسه يتحمل نفقات زواجهم، وكلما وُلد لهم أولاد مبصرون سُرّ كثيراً، وكان قد فتح مدرسة أيضاً لتعليمهم.

كان السيد المنشي عالما كبيرا في مجال الاقتصاد. كان يُطبخ له ما يساوي كيلو غراما من لحم عضلة الساق كل يوم. كان يأكل مرة واحدة في اليوم، وكان يُشرك في طعامه أناسا كثيرين. وقال يوماً: "حينما توظفت هنا كنت شابا، ولم أكل إلى اليوم لحمًا سعره أكثر من ثلاث روبيات."

تعجبت كثيرا بسماع كلامه، إذ قال: "أشتري عنزة بثلاث روبيات كل يوم، وأذبحها بعد صلاة الفجر. آخذ كيلو غراما من اللحم، ثم أقول للخادم أن يبيع الباقي بثلاث روبيات. فيباع اللحم الباقي بثلاث روبيات بسرعة، إذ يشتريه الناس في الصباح الباكر، وهكذا تتوفر لي ثلاث روبيات كل يوم. هذا كان أسلوبه في كل شيء يتعلق بالمأكولات، غير أنه لم يذكر لي إلا اللحم.

لقد حدثت لي أحداث غريبة كثيرة في بهوبال، ومنها حادثان متعلقان بموضوع الطب يجدران بالذكر بشكل خاص. الحادث الأول هو أنني طلبت خياطة صدريتين نفيستين لي - هي لباس بدون أكمام مثل الجاكيت، يلبسه الرجال في القارة الهندية - ولم أكن معتادا على لبسهما، فسُرقت إحداهما، فاعتبرت ذلك مصيبة في أيام الدراسة، وأيقنت أن الصابر على المصيبة ينال نعم البدل.

أما الثانية فأعطيها محتاج شكراً لله على أنه وفقني للصبر. ولم يمض على هذا الحادث إلا بضعة أيام حتى أصيب ابن شخص ثري في المدينة بمرض الزهري، وقال لشخص كان من معارفي اسمه بير أبو أحمد المجددي أن يأتيه بطبيب لا يعرفه الناس ليصف له دواء، فيصنعه بنفسه بسهولة حتى لا يضطر ليخبر عنه خدمه. فقال له إن هناك طالبا ولا يعرف الناس أنه طبيب، فجاءني

وأخذني إليه. كان ذلك الشاب جالسا على كرسي أمام شُرْفَة في بيته، وكانت هناك حديقة أيضا، وأحضرت إلى هناك الكراسي من أجلنا. وبعد أن سمعتُ منه أعراض المرض وصفت له الدواء وأوصيته بتناوله عدة مرات حتى المساء وإخباري عن أيِّ تحسن مساء، وانصرفت. فبفضل الله تحسن كثيرا حتى المساء. قلت إن هذا المرض ليس إلا الجدري. عندما وصلت إليه كان جالسا في حديقته، فجلستُ على الكرسي بالقرب منه، فبدأ يحدثني عن وضعه وطلب مني أن أصف له دواء يركّبه بنفسه. قلت: هذا ممكن. ثم وصفت له دواء وركّبه فورا وتناوله. ثم ذهبت إليه في اليوم التالي فقال لي إني قد شفيت من المرض إثر تناول جرعة واحدة من الدواء ولا حاجة لي به الآن. أما أنا فكنت أدرك أن الله تعالى قد هيا لي هذه الفرصة بفضله المحض، ووجهني إلى هذا العلاج أيضا. انصرفت من عنده ولكنه دعا صديقي المذكور وأرسل لي معه كثيرا من الألبسة الفاخرة المزركشة بالحرير مع نقود كثيرة. وعندما جاء صديقي بالألبسة قلت له: هذه هي صدريتي التي سُرقت من قبل. استغرب صديقي كثيرا من أمر الصدرية. فقصصت عليه القصة كلها وقلت إني لا ألبس الحرير فبِعَها في السوق. فباعها بثمن باهظ.

فقدم لي ألبسة فاخرة غالية الثمن بالإضافة إلى مبلغ كبير أوجب علي الحج. فقلت له إني مسافر للحج لأنه قد أصبح واجبا علي.

خلاصة الكلام أن الذي ينفق في سبيل الله لا يخسر شيئا. ولكن يجب أن يكون الإنفاق خاليا من شوائب الدنيا، وينبغي أن يكون خالصًا لوجه الله وللغفور برضاه وشفقةً على خلقه تعالى.

الحادث الثاني يتعلق بإصابتي -إثر حمى شديدة- بسيلان اللعاب بصورة خطيرة، وكان يرافق اللعاب ماءً أسود وثن. فأشار علي الطبيب "فرزند علي" قائلاً: إذا كان وطنك قريباً فارجع إليه فوراً، إذ لا أمل في حياتك بعد الإصابة بهذا المرض العُضال.

مساءً قال لي شخص طيب -وكان مهتماً بشؤون الطلاب هناك- وكان مخلصاً جداً: إنني شخص مسنٌ، يسيل اللعاب من فمي، فأخبرني عن شيء آكله عند الإفطار. قلت له أن يفطر بمرّي الإهليلج وحبّة الهيل وورق الذهب. فانصرف الرجل وعاد بعد هنيهة مع طنجرة من المرّي وكثير من حبات الهيل وأوراق الذهب ووضعها أمامي، وقال: إن اللعاب يسيل من فمك أيضاً، فكل منها أنت أيضاً. فبدأتُ بتناولها، فتحسن الوضع لبضع دقائق إثر تناولي قدراً يسيراً منها. ثم كلما سال اللعاب تناولت قليلاً من الدواء. لا أذكر كم تناولت من ذلك الدواء، غير أنني تحسنت إلى المساء، فعدت العزم على السفر إلى الحرمين الشريفين بدلاً من الوطن.

حين كنت على وشك السفر من مدينة بهوبال ذهبت إلى أستاذه المحترم المولوي عبد القيوم لتوديعه. وقد صحبني من أجل المشايعة مئاتٌ من الناس، ومعظمهم من العلماء ومن كرام الناس. فقلت للمولوي عبد القيوم: أرجو أن تخبرني بشيء أرتاح له دائماً، فقال: "لا تكن إلهاً ولا رسولاً". قلت: لم أفهم المقصود يا سيدي، ومعنا كثير من العلماء الآخرين وربما هم أيضاً لم يفهموا القصد. فقال الجميع: نعم، لم نفهم. فقال المولوي المحترم: من ذا الذي تعتبره إلهاً؟ قلت بصورة عفوية: الذي من صفاته أنه فعّالٌ لما يريد. قال: أجل، هذا ما

كنت أقصده. إن ما أعنيه أنه إذا لم تتحقق أمنية من أمنياتك فعليك أن تقول لنفسك: أنت لست إلهًا حتى يتحقق لك كل ما تريد. أما الرسول فيأتيه الأمر من الله تعالى، فيكون على يقين بأن الناس سوف يدخلون جهنم بسبب معصيته، فيتألم على إنكارهم له كثيرا. أما أنت فإذا لم يقبل أحد فتواك فليس ضروريا أن يكون من أهل جهنم، لذا فيجب ألا تستاء ولا تقلق من عدم قبوله فتواك. هذه الحكمة التي عَلَّمَنِيهَا المولوي المحترم أراحتني كثيرا إلى يومي هذا، فجزاه الله تعالى.

السفر إلى الحرمين الشريفين

لم تفارقني الحمى التي كانت تصيبني في بهوبال حتى بعد خروجي منها، إلا أنها كانت تصيبني ليومٍ بعد كل أسبوعين تقريبا، فعندما سافرت قاصداً الحرمين الشريفين نزلت في الطريق في مدينة "برهان بور"، فلقيني شخص يسمى المولوي عبد الله. فاستقبلني بحفاوة وإكرام وقال: "أنا صديق أبيك، ثم أعطاني سلة من الحلويات عند الوداع. وعندما فتحتها في الطريق وجدت فيها شيكا بألف روبية ليُصرف باسم شخص ثري في مكة المعظمة، بالإضافة إلى بعض النقود، وقد كتب على الشيك أن يدفع لنور الدين ألف روبية عندما يطلب، ويسجل هذا المبلغ في حسابه. فاستغربت جدا من رحابة صدره، ومع أنني لم أستلم منه ألف روبية، أي لم أصرف الشيك، أرى من الضروري الإشادة برحابة صدر المولوي المحترم. لقد أخبرني ذلك المولوي المحترم بقوله: إني من سكان ساهيवाल في محافظة شاه بور، وذهبتُ إلى مكة المعظمة للحج، وكنت في ذلك الزمن فقيرا جدا، وفي مكة المعظمة كنت أتسول من الصباح إلى المساء "الله..لقمة للمسكين" ومع

ذلك لم أكن أشبع، وكنت أهيم في الأزقة والشوارع متسولا، فخطر ببالي مرة: ماذا عسى أن أفعل لو أمّ بي مرض، فلم أستطع الخروج للتسول. فقررت إثر ذلك ألا أتسول حتى لو متّ، فذهبت إلى بيت الله تعالى وأمسكت بستائر الكعبة المشرفة وتعهدت بما يلي: "يا رب، صحيح أنك لست أمامي في هذا الوقت، ولكنني أعاهدك ممسكا بستار هذا البيت أني لن أسأل أحدا بعد الآن." قمت بهذا العهد وجلست بالقرب من المكان. فجاءني شخص ووضعه في يدي ستة مليمات، فخطر ببالي أن ملامحي تشبه الشحاذين وإن كنت لم أتسول، فهل هذه تجوز لي أم لا؟ فبدأت أفكر في ذلك وغاب عني ذلك الرجل. على كل حال قبلتها منه لأني لم أسأله إياها، ثم نهضت من هناك واشترت طعاما بلميمين واشترت علب كبريت بالمليمات الأربع الباقية. وبعثتها بست مليمات. ثم اشترت علب كبريت أخرى بست مليمات وبعثتها بتسع مليمات، حتى كسبت إلى المساء ربع روبية. فأكلت الطعام الذي اشترته بلميمين ونمت، ثم عاودت العملية نفسها في اليوم التالي. فبعد بضعة أيام اشترت من علب الكبريت كمية تعذر عليّ حملها. فتركت هذا العمل واشترت أشياء تحتاجها السيدات عادةً، فبدأت أتجول حاملا إياها على ظهري. فكنت أشتري أشياء مرغوبا فيها وأخذ ربحا بسيطا، فكنت أبيع إلى المساء كل ما كنت أشتري، فبارك الله في هذا العمل. وبعد أيام وجدت التجوال صعبا، فبدأت أبسط الحصير في مكان وأنشر عليه البضاعة، ثم استأجرت من نصف محل. ثم رزقني الله سعة مالية أكثر حتى عدت إلى بلادي في مومباي. فأصبحت أشتري من مدينة مومباي المصاحف وأبيعها في القرى المجاورة. وفي فترة وجيزة

ذاع صيتي حتى استطعت أن أشتري المصاحف بثلاثين ألف روبية، وذهبت بها إلى مدينتك بمیره، فاشتراها والدك المحترم جميعا، وهكذا كسبت ربحا كبيرا. وعلى هذا النحو ظلت أشتري المصاحف بآلاف الروبيات وأبيعها. فلما رأيت أن المبلغ كثر بدأت التجارة بالقماش، وكان من دأبي أن أبيع البضاعة عاجلا وأخذ الربح البسيط، الآن كثرت البضاعة عندي لدرجة أنني لم أستطع حملها من برهان بور، فبنيت البيت هنا والآن أصبحت رجلا كبيرا."

من هنا تبين لي صدق الحديث القائل بأن في التجارة رزقا كثيرا.

عندما وصلت إلى مومباي لقيت هناك المولوي عناية الله. وكانت عندي في تلك الأيام رغبة عارمة في اقتناء "الفوز الكبير" لشاه ولي الله الدهلوي. فطلبت منه أن يهيئ لي هذا الكتاب، فأراني نسخة مطبوعة في مومباي وقال لي بأنه يمكن أن أشتريها منه بخمسين روبية. فأعطيته خمسين روبية على الفور وأخذت الكتاب منه ونهضت للانصراف. فقال السيد عناية الله: لماذا أنت مستعجل لهذه الدرجة؟ قلت: إن قضية البيع والشراء مختلف فيها، إذ يقول الأحناف بالتفارق القولي، والمحدثون يقولون بالتفارق الجسدي، لذا أريد أن يصبح البيع صحيحا وقويا بحسب الرأيين كليهما. ولذلك أردت الانصراف من عندك. وهكذا كان عبد الله ابن عمر رضي الله عنه أيضا قد فعل ذات مرة. فأنا الآن أتأسى بأسوته، فانصرفت من عنده ثم عدت إليه من الشارع، فجلس معي قليلا، وظل يتكلم معي، فقد وجدته رجلا صالحا ورائعا جدا. فلما أردت الانطلاق من عنده أخرج من جيبه ورقة خمسين روبية وقدمها لي قائلا: أقدم لك هذه على المشهد الرائع الذي رأيته اليوم لحبك للكتب الجيدة، فقلت له: صحيح

أني طالب لكنني لست محتاجا، وقد وجب علي الحج، لكنه أعاد إليّ الخمسين روية أو يمكن القول بأنه قد أعطانيها من عنده.

عند الانطلاق من مومباي لقيني خمسة أشخاص من بلدي يذهبون للحج، وبسببهم نلت قسطاً ملحوظاً من الراحة في الباخرة، لأنهم أصبحوا خداما لي مجانا ودونما سبب. وحيث كانت الباخرة تتوقف قليلا في ميناء الحديدية، ولما كنت شابا، قررت أن أخرج لأقابل بعض العلماء من اليمن ما دامت الباخرة راسية، فوصلت من الحديدية إلى "مراة" واستفدت هناك كثيرا. وأستغرب أن شاباً التمس مني دراسة "الألفية" - فوجدت الأمر نادرا جدا- ثم قرأ ذلك الشاب مني شيئا من الألفية. ثم لاحظت اثنين من رفاقي في السفر يشاركان في النفقة دون كتابة التفصيل، فقلت لهما: أنا رجل مثقف، ويمكن أن تطلبا مني الكتابة، فانزعجا من قولي هذا كثيرا، وقالوا: إنك تريد أن تخلق الفرقة بين الإخوة. أما أنا فكنت أظن أن هؤلاء عمال، والنفقات هنا غالية، وإن نتيجة هذا الاتحاد لن تكون حسنة، لكنهما سخطا علي. وكان الثالث منهم مسناً ومن ثم كان جديرا بالاحترام. أما الرابع فكان يريخني كثيرا، وقد قال لي أن أضع كتيبي في صندوقه، فهو يتسع لها. أنا لم أكن خبيرا بالسفر، فوضعت الكتب. كنا قد انطلقنا من جدّة، وفي المحطة التي توقفنا فيها فقد هذا الرجل مفتاح الصندوق، وكان حادّ الطبع كثيرا فقال لي بأن الصندوق كان قد أصبح ثقيلًا بسبب كتبك، لذا فقد سرق أحدُ مفتاحه فلا بد أن تبحث لي عن المفتاح على الفور. قلت له: أنا لم أسرق مفتاحك، وكنت قد طلبت مني بإصرار أن أضع الكتب فيه دون أن أطلب ذلك منك، لكنه كان عنيدا فبدأ يصصر على

أن أعرثر على المفتاح فوراً، فأثيرت القضية لدرجة أن الناس اجتمعوا حولنا من هنا وهناك، وكان معنا حداً أيضاً، فقال: إنه سيصنع لهذا القفل أفضل مفتاح فور وصوله إلى مكة المعظمة. أما هنا فلا يستطيع ذلك لأنه لا يملك المعدّات، لكن صاحب الصندوق قال بإصرار إنه يريد المفتاح على كل حال، وتوسلت إليه كثيراً كما تملقه الآخرون وفهموه الأمر ولكنه لم يقنع. فمنا ليلاً جميعاً، وشاءت الأقدار أن يهاجم اللصوص مخيم الأتراك تلك الليلة، فطاردهم، فترك اللصوص وراءهم بعض المفاتيح عند الفرار. فكان ذلك ببركة دعائي ليلاً، فجاء الأتراك بتلك المفاتيح إلى مخيم الهنود ليحربوها بفتح صناديقهم، فيلقوا القبض على الذين تُفتح صناديقهم بها. فشاهدت المفتاح المفقود ضمن المفاتيح في يد أحدهم، وقلت له بأنكم إذا أردتم القبض على اللص بواسطة المفاتيح فهذا المفتاح لي، ويمكنكم أن تلقوا القبض عليّ ولكن أعطوني المفتاح. فأظهر هذا الشخص بعض السخط في البداية وهددني بالقبض عليّ، قلت لا بأس وإنما أريد أن تسلم لي المفتاح، ولكن شاء قدر الله أنه رمى المفاتيح كلها إلي وانصرف. فسلمت المفتاح لصاحب الصندوق فخجل كثيراً وبدأ يعتذر لي.

في مكة المعظمة كان رجلٌ صالحٌ يدعى محمد حسين السندي، فنزلنا عنده، فأرسل ابنه معنا ليساعدنا على طواف القدوم. أنا لم أنس قط ذكاء المطوفين ومهارتهم، وإلى الآن أستغرب كم هم أذكاء وحاذقون، فحين دخلنا مسجد بيت الله كان أول صوت للمطوف "يا بيت الله" وعند قوله هذا قلت أنا أعرف الأدعية المسنونة وسوف أرددها شخصياً بنفسي، وكان صوته الثاني "يا رب

البيت " فاستغربت من ذكائه استغربا لم يُزل من ذهني إلى الآن. فقد راعى في جميع السنن المراتب بمنتهى الحذر.

كنت قد سمعت من أحد روايَّة تقول بأن الدعاء الذي يدعو به الإنسان لدى رؤيته بيت الله لأول مرة يُستجاب حتما، فلم أكن مختصا في العلوم آنذاك حتى أميز الرواية الضعيفة من القوية، لذا دعوت الله قائلا:

" يا ربي إني محتاج إليك في كل حين وآن، ولا أدري أي دعاء أدعو به.

فأدعوك يا رب أن استجب من فضلك دعائي كلما دعوتك عند الحاجة." "إن للمحدثين كلاما في هذه الرواية، ولكنني قد جرّبتُ أن دعائي هذا قد أُجيب. فكثيرا ما جرى النقاش بيني وبين الطبيعيين والفلاسفة والملاحدة الكبار، ودائما كانت لي الغلبة عليهم بسبب الدعاء، وبالتالي ظل إيماني في ازدياد مستمر.

إثر وصولي إلى مكة شرعت أتعلّم الحديث، فبدأت بدراسة سنن أبي داود على يد الشيخ محمد الخزرجي، وصحيح مسلم على يد السيد حسين، والموطأ على يد المولوي رحمة الله. إن صحبة هؤلاء الصلحاء الثلاثة كانت جميلة جدا. بقيتُ في صحبة السيد حسين إلى فترة طويلة ولم أسمع منه كلمة دون كلمات الأحاديث النبوية الشريفة. لما ذكرت هذا الأمر للمولوي رحمة الله، قال: إنني أعرفه منذ عشرين سنة ولا أعلم أن له علاقة مع أحد من الناس، ولا أعرف من أين يأكل.

كان السيد حسين قليل الكلام جدًّا، وكان يتردد في الكلام كثيرا، بحيث ما كان يتكلم حتى عند الضرورة أحيانا. كنت أدرس عنده صحيح مسلم في

الحرم الشريف. كان يأتيه المتسولون أيضا، فكان يرمقهم لبعض الوقت ثم يقول لأحدهم مثلا: اقرأ: "يا باسط"، ويقول للآخر اقرأ: "يا غني"، ويقول لغيره اقرأ: "يا حميد"، ويطلب من الآخر أن يقرأ: "يا مجيد". هكذا كانت عاداته اليومية، ولكني لم أتمكن من أن أسأله لماذا يطلب من مختلف الناس أن يرددوا الأسماء الحسنى المختلفة. إن عاداته لقلة الكلام حالت دون ذلك.

كان الشيخ محمد الخزرجي ملماً بالصحاح الستة إماما جيدا. فكان يدرّس أحاديث بسيطة غير معقدة وينفر من النقاش نهائيا، ذات مرة كنت أقرأ حديثا في سنن أبي داود، وكان يبدو من الحديث أن الإنسان يجب أن يدخل المعتكف بعد صلاة الفجر، فأشار إلي أن أقرأ الحاشية، فهذا الحديث صعب جدا، فقلت له إن الحديث سهل، لكنني سأقرأ الحاشية استجابة لأمرك، لكنه قال إنه صعب جدا، فقرأت الحاشية بشكل عابر، وكان قد ورد فيها أن الحديث صعب جدا، لأنه لو اعتكف أحد صباح اليوم الحادي والعشرين من رمضان لكان من الممكن أن تكون ليلة الحادي والعشرين هي ليلة القدر. وإذا اعتكف بعد صلاة العصر من عشرين من رمضان فهذا غير ثابت عن النبي ﷺ. فبعد القراءة قلت: ليس فيه أي صعوبة وإنما أخطأ صاحب الحاشية، وقلت ينبغي أن يعتكف صباح يوم العشرين. فقال الشيخ: هذا يخالف الإجماع. قلت: اقرأ أقوال الإمام أحمد رحمه الله، فكلمة الإجماع يستخدمها الناس عبثا دون تأمل. فكل إنسان يستخدم كلمة الإجماع عندما يرى كثرة أتباع مذهبه، فاستخف الشيخ بهذا القول. كان من دأبي أن ألاحظ أي شرح للكتاب بعد قراءته في الدرس، أو إذا كنت لم أفهم أي كلمة فيه بحثت عنها في القاموس، فقرأت

الدرس بسرعة دون اهتمام، إذ واصلت القراءة من الصباح إلى الظهر من دون توقف، فظل جالسا بصمت، وإنما قال عند سماع أذان الظهر، اليوم سنلحق الصلاة بصعوبة، وسوى هذه الجملة لم يتكلم ذلك اليوم إلى ذلك الوقت، فأغلقت الكتاب، وكان الدرس في بيت الحلواني عبد الله، وكنت أنا والشيخ المحترم نتغدى عنده، فتوضأت وذهبت للصلاة، وبعد الصلاة دخلت غرفة خاصة بالمولوي رحمة الله، وعندما وصلتُ إليه سألتني: هل دار النقاش بينك وبين شيخك اليوم؟ قلت: أي نقاش يمكن أن يكون بين التلميذ والشيخ؟ فأنا طالب وأنى لي أن أناقشه وشيخنا رجل كبير؟ غير أن الطلاب يسألون الشيوخ عادة، فقال كلا بل القضية أكبر من ذلك، فقلت لا توجد هناك أي قضية وإنما حصل الاختلاف بيننا في بعض الجزئيات، وأدرت من أسلوب المولوي أن الخبر قد وصله كله، واستغربت أيضا كيف وصل إذ لم يكن معنا ثالث، فقال المولوي نفسه: لقد جاء شيخك، وقال: أحيانا يأتي بعض الطلاب الشجعان ونحن نتعرض للمشاكل بسبب تصرفاتهم، ثم قصَّ علينا القصة بحذافيرها، فلما لاحظت أن الإخفاء هنا لا داعي له، قلت له هناك مسألة فرعية وهي أنني قلتُ بأنه يمكن للإنسان أن يعتكف في اليوم العشرين من رمضان بدلا من الحادي والعشرين، وبذلك يحدث التوفيق بين الأحاديث، فقال المولوي رحمة الله: إن ذلك يخالف الإجماع. قلتُ: وكيف يتم الإجماع على مثل هذا الأمر البسيط؟ قال المولوي رحمة الله: طيب! سوف نواصل الدرس غدا والآن نذهب إلى البيت. وحين خرجنا من البيت ووصلنا إلى باحة المسجد قلتُ مشيرا إلى بيت الله: يا سيدي لماذا يسجد الناس متوجهين إلى هذه الغرفة؟

قال المولوي: لأن هذا ما أمر به النبي ﷺ. قلت: القبلية الإجماعية للأنبياء هي بيت المقدس، فلماذا تُعرضون عمّا أجمع عليه أنبياء بني إسرائيل كلهم لقول شخص واحد؟ فقد تركت إجماعا عظيما فأبيح حرج إذا اختلفت في شرح حديث بخصوص مسألة فرعية؟ فقال: القلب يخفق. قلت: إن الذي لا يرتجف قلبه فماذا يفعل؟ فقال القلب يخشع، ونهض. عندئذ قلت له بمنتهى الشجاعة إنك باحث وعالم، فقل لي ما رأيك في اتباع شخص واحد في كل مسألة؟ فقال إنما نقلد الإمام أبا حنيفة، لكننا لا نصدر الفتوى في كل أمر. فقلت له قد انحلت بقولك مسألة التقليد الشخصي. فقال إن مسألة التقليد سهلة جدا وفي الوقت نفسه صعبة جدا أيضا. فقلت لم أفهم، فقال في كل مسألة فرعية لم يقلد أحد أحدا ولا يقدر على ذلك، ومن هنا يثبت أن التقليد الشخصي ليس أمرا مهما ويتبين الأمر، لكن المشكلة أنا هربنا من الهند في اضطرابات ١٨٥٧م، فمكثنا في قرية قرب "بونا" فقام شخص لإلقاء الوعظ يوم الجمعة، فبدأ الخطبة بقوله: أنا لن أقبل قول الأحناف ولا الشافعيين، وإنما سأقول ما قاله النبي ﷺ، فقال هذا وبدأ يقرأ كتاب نصيحة المسلمين للمولوي خرم علي، وقال في بعض الأحيان إن ذلك ورد في "المسكاة"، فلما انتهى من الوعظ تبين أنه كان ينطق المشكاة "مسكاة"، لذا فإن مسألة التقليد معقدة، لأنهم إذا أفتوا أولا فإن الذين يقولون للمشكاة مسكاة، يصبحون هم أيضا مجتهدين اجتهدا مطلقا، فالأمر كان سهلا جدا وصار صعبا جدا، نحن لا نعارض هذه الأمور عادة، نحن قد شفّعنا لك عند أستاذك، ينبغي أن تأخذ منه الدرس، فلن يمنعك، فادرس بحرية، فقد أقنعتنا الشيخ، ونحن ندرك مزاجك جيدا، قلت إن

شيخنا يحترم الحديث كثيرا، وإذا تابعت الدراسة عنده فلن ينقطع عني. فقال إنه كان خائفا، لكننا طمأنأناه، فذهبت إليه في اليوم التالي، فلم يحدثني إلا أنني أخذت الدرس. درست منه النسائي وأبو داود وابن ماجة، في تلك الأيام كان المولوي أبو الخير الدهلوي الخلف الرشيد لحضرة محمد عمر النقشبندي يتعلم مني الدر المختار، وبعد مدة جاء حضرة الشاه عبد الغني المجددي من المدينة إلى مكة، فكان له استقبال عظيم فيها وانتشر خبر مجيئه فورا، فذهبت إليه أنا أيضا، فكان جالسا في الحرم ويحيط به آلاف الناس، فسألته قبل أي سائل عن موعد الاعتكاف. فالحياة زمن الدراسة أيضا عجيبة جدا، فقد طرحت المسألة البسيطة على ذلك العالم الحبر العظيم، قال بكل صراحة: صباح اليوم العشرين من رمضان. فانددهشت لسماع ذلك، ونشأت عظمتة وهيبته الكبيرة في قلبي، إلا أنني مع ذلك تشجعت وسألت قائلا: يا سيدي سمعت أن ذلك يخالف الإجماع. فدته نفسي لعلمه فقد قال بلهجة غريبة: إن الجهل طامة كبرى، ثم عدّد عدة أسماء من الأحناف والشوافع والحنابلة والمالكيين وقال: هناك علماء من كل فرقة يقولون بالاعتكاف في العشرين من رمضان أيضا.

فدت نفسي هذا العالم، استولت عليّ حالة من الوجد بسماع هذه المعلومات الدقيقة. ثم تنحيت عن المكان قليلا وكتبت ورقة سائلا الشيخ المحترم أن يسمح لي بمصاحبته إلى المدينة من أجل التعلّم على يده. قرأ الشيخ الورقة ثم قرأ علي الحديث: "المستشار مؤتمن"، وقال: يجب أن تأتي إلى المدينة بعد إتمام دراسة الكتب الأخرى كلها. قصصت القصة كلها للمولوي رحمة الله المحترم وقلت: هذا هو العلم! وقلت أيضا بأن شيخنا وجّل من هذا القول، أما الشاه

عبد الغني المحترم فقد أفتى بذلك في الحرم الشريف أمام أئمة من الناس ولم يكن لأحد أن ينسب بنت شفة. فقال: حضرة الشاه عالم كبير جدا.

أما الشيوخ الذين كنت أدرس عندهم في الحرمين فقد أصيبت والدة شيخ الحديث منهم بمرض القلاع وتضايق من تدلُّل الأطباء وقلة اعتنائهم، فقال لي إذا كان لك طبيب صديق فأرجو أن تحضر الدواء لي من عنده، وكنت مختصا في هذا الفن فصنعت الوصفة ولم أظهر عليه أني طبيب بنفسى وكانت الوصفة ناجعة، ولم يعرف فيما بعد أني شخصا طبيب. وظهر هناك أمر آخر جذب اهتمامي بالطب وهو أن الدكتور محمد وزير خان المحترم الذي هو صديق حميم لشيخنا المولوي رحمة الله وكان شريكا في مناظرة آغره، قد تعرفت إليه في بيت المولوي المحترم، وفي تلك الأيام كان في مئانة شريف مكة حصاة، فلما كان لشريف مكة علاقات بفرنسا فقد أحضر من فرنسا الجهاز الذي تفتت به الحصاة، وأخرجها الدكتور بعد تفتيتها، وبعد هذه التجربة الناجحة لفت انتباهي واهتمامي بالطب، إلا أن أوضاعى الحالية والأعمال الأخرى لم تسمح لي بالميل إليه، وبعد سنة ونصف تقريبا وجدت فسحة من الوقت فتعرفت على حضرة شيخ المشايخ والبير والمرشد الشاه عبد الغني رحمه الله، وبسبب طبيب الروح هذا، ذهبت إلى المدينة وأقمت عند حضرته مدة طويلة، وفي هذه المدة تركت جميع المشاغل الدنيوية وإنما حظيت بمخلص اعتنى بي وكان مختصا بعلاج سلّ النساء، وكنت عنده أذكر بعض الأمور الطبية، وأثناء إقامتى هناك لم أتجرأ قط على التجربة الشخصية بسبب الجذب الخاص من قبل حضرة الشاه.

أثناء الإقامة في مكة المعظمة تعرضت لحادث مؤسف وهو أن أحد سكان بلدي كان يقيم هناك، ولما كانت لي علاقات قديمة به فقد أودعته عنده أمتعتي وأموالي أيضا، وقلت له عند انطلاقي إلى المدينة إني سأقيم في المدينة مدة طويلة ويمكن أن تستثمر هذه الأموال وتكسب الأرباح، وعندما آتي في موسم الحج القادم سأخذ منك أموالي، وعليك أن تحتفظ بال مبلغ قبل موعد الحج، فلما أتيت وفرغت من مناسك الحج طلبت منه الأمتعة والأموال، فأخذني بعد إصراري لأيام طويلة ذات يوم إلى بيت فخم مقفل، فقال: لقد أودعت أمتعتك وأموالك عند صاحب هذا البيت، ولا أعرف أين ذهب. كان وضع ذلك البيت فاخرا جدا، وبينما كنا نتحدث هناك جاء عربي وسأل ما القضية؟ فقلت له لي بعض الأمتعة عند صاحب هذا البيت وأستغرب أن هذا المنزل الكبير والفخم مقفل، فسأل: لماذا يقف معك هذا الهندي؟ فقلت له هو الذي أودع.. ففور سماع ذلك قال بمنتهى الغضب والغيظ إنه كاذب، فقد أكل أموالك، أما صاحب هذا البيت فرجل عظيم جدا، فقد ذهب لتوديع ضيوفه مع أفراد أسرته، وسيقيم في جِدَّة حتى يعود جميع الحجاج. لقد تكلم معي برفق وعطف لكنه سب صاحبي بغضبٍ فخجل كثيرا. ثم قال العربي: هذا هو حال مكة، فقد أساء هؤلاء الهنود إلى مكة كثيرا، إذ لا يلتفتون إلى تقصيرهم مطلقا، ثم قال موجها الكلام إليّ: لقد باع ثيابك وأموالك وأمتعتك لسيدة بنغالية، وهؤلاء يكثرون من هذه التصرفات، فلا تتوقع منه أن يعيد إليك شيئا. ولقد استفدت من هذا الحادث أن أحد أساتذتي الذي كان يعمل في مكتبه حين أراد الذهاب للحج قلت له أن

يحفظ أمواله وأمتعته بنفسه ويدبر حمايته شخصيا، وينبغي أن لا يثق بأحد، فلما عاد من الحج شكرتني كثيرا، وقال: بسبب نصيحتك نجونا من احتيال تلميذنا. فهل يوجد مخلوق من هذا النوع؟ رحمهم الله.

والحادثة المؤسف الثاني الذي ظهر هناك هو أني ذات يوم كنت عائدا من مئى، فسألت أحدا أين "المُحَصَّب" (موضع رمي الجمار) فلم يخبرني، ثم سألت الناس أين خيف بني كنانة؟ ثم سألت أين البطحاء، فلما لم يدلني أحد على ذلك، استغربت جدا، فقال لي أحدهم وكان وهابيا متعنتا، رأيت إلى أين آل الأمر؟ ثم أخبرني أن جنة المعلى (المقبرة الشرقية هناك) هي المُحَصَّب، وهي نفسها خيف بني كنانة والبطحاء أيضا، فلما توجهت إلى المسجد هناك زاد عجبى حيث وجدت بعض المسنين البنغاليين هناك.

الأمر العجيب الثالث الذي لاحظته هناك هو أني رأيت في عرفات أن الناس يحركون ذيل ثيابهم بعد كل فترة، فاستغربت جدا لرؤية هذا المشهد، فسألت الناس هناك فقالوا أولا يتحرك هذا الثوب على الجبل أمامنا ومن هناك يمكن أن تستقصي. كنت شابا متحمسا فذهبت إلى هناك ركضا، وطففت حول ذلك الجبل باحثا عن مسلك، وأخيرا وجدت الطريق إلى فوق، فصعدت إلى الأعلى فوجدت هناك كثيرا من الأتراك حاملين الأسلحة، فنهوني بإشارة، لكنني لم أتوقف ولم يعترضوا هم أكثر، فلما وصلت إلى فوق وجدت أحد الأتراك راكبا على ناقة وفي يده كتاب يقرأه وحوله حرس، فشقققت صف الحرس أيضا فوصلت إلى الناقة ووقفت قريبا منها، فقد بذلت قصارى جهدي لأسمع شيئا من ذلك، لكنني لم أفهم ولا كلمة، إلا أن

القضية انحلت وهي أن ذلك التركي كان يحرك يده اليسرى بعد كل فترة أثناء قراءة ذلك الكتاب، والناس حوله كانوا اتّباعا يحركون ثيابهم، ولم أكن أعرف اللغة التركية وما زلت لا أعرفها ولم يكن هناك من يفهمها سوى أولئك الجنود الأتراك، فنزلت إلى تحت، وعرفت أخيرا أنه كان إماما وكان يقرأ الخطبة، وحيثما يردد: **الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر** والله الحمد يحرك يده، واتباعا له كان الناس يحركون ثوبهم، فبقي هذا التقليد ولا أحد يردد "الله أكبر".

المدينة الطيبة

ولما كنت قد استشرت حضرة الشاه عبد الغني سلفا في الذهاب إلى المدينة لذا قد حضرت عنده قبل كل شيء، فخصّص لي غرفة منفصلة للسكن فأقمت هناك، ولم أكن آخذ الدرس من أحد حتى من حضرة الشاه. ثم خطر ببالي أن أبايع على يده. كنت أفكر بذلك حين أكون في البيت، ولكن كلما ذهبت إليه قلتُ في نفسي، ماذا عسى أن تنفعني البيعة؟ وراودتني أفكار غريبة. فمرة كنت أفكر بأن الأوامر والنواهي كلها مذكورة في القرآن الكريم، فماذا سأتعلم من هؤلاء الناس؟ وإذا كانت هناك أية فائدة في حسن الاعتقاد فأنا أحبه ومعجب به كثيرا سلفا. ثم تراودني فكرة بأنه لو لم تكن هناك أية مصلحة من البيعة فلماذا يتهافت عليها آلاف الناس؟ فبقيت في هذا التردد والتذبذب لعدة أيام. وفي أوقات فراغي كنت أذهب إلى مكتبة تقع شرق المسجد النبوي لأقرأ الكتب. وبعد عدة أيام عقدتُ العزم على أن أبايع لأعرف على الأقل ما هي فائدة البيعة، فلو لم أر منها فائدة فإن لي الخيار في نبذها

على أية حال. وحينما وصلت إلى حضرته فكرت بأنه من الحمق أن يعقد الإنسان عهدا ثم ينقضه، فالأفضل أن يفكر الإنسان جيدا قبل الولوج فيه بدلا من أن ينقضه فيما بعد. ففي نهاية المطاف حضرتُ إليه يوما وقلتُ: أريد أن أبايعك. قال: يجب أن تستخير. قلت: قد استخرت وفكرت كثيرا. ولكن حين مدَّ حضرة الشاه يده لأخذ البيعة راودتني بشدة فكرة مدى معقولية عقد العهد قبل البحث والتحقيق جيدا، فسحبت يديّ رغم أن حضرة الشاه كان قد مد يده. ثم تربعت أمامه وقلت: ما الفائدة من البيعة؟ قال بالفارسية ما معناه: بعد البيعة يرى المبايع بأَم عينه ما كان يسمع عنه، وما كان يراه يصبح يسمعه. عندها مددت يديّ ولكن الشاه قبض يده قليلا وقال: هل تذكر حديثا حين قال أحد الصحابة للنبي ﷺ: "يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة" قلتُ: أذكره جيدا. قال: لذا فإذا كنت تريد أن تتعلم أصول الدين فلا بد أن تقيم عندي لستة شهور على الأقل. وإذا كنت ترغب في تعلم فروع الإسلام فلتبق لسنة كاملة. عندها مددت يدي أكثر فأخذ بيعتي وقال: لا أطلب منك وردا آخر إلا أن تنتبه دائما إلى الآية: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقال الشيء نفسه عن الآية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ففي أثناء التدبر في هاتين الآيتين رأيت النبي ﷺ مرارا كثيرة، وانتبهت أيضا إلى نتائج بعض أخطائي وتقصيراتي. على أية حال لقد وفي بوعدته في حقي خلال ستة شهور، جزاه الله عني أحسن الجزاء.

كان حضرته محتاطا وحذرا جدا، وكانت نظرتة في العلوم الدينية واسعة جدا، وكان قليل الكلام جدا، كان درسه مستمدا من أربعة كتب هي المشنوي

والترمذي والبخاري والرسالة القشيرية، ومن عجائب تصرفاته في الأكل والشرب أن أكبر خان السنوري وهو المرید الخاص للمسيح الموعود عليه السلام وخادمه الخاص كان يقيم هناك في قاديان، وكان له شقيق يدعى ولي داد خان، الذي كان يقيم في المدينة المنورة عند حضرة الشاه، فأرسله ذات يوم لشراء القمح، فجاء بأجود قمح ليس فيه حبة شعير واحدة، فلم يقل لولي داد خان شيئاً إلا أنه أوقف إرساله إلى السوق لشراء الأغراض. فلما كان ولي داد خان معدوداً من الأحبة الكبار فقلق كثيراً. وأخيراً أرسل حضرته شخصاً آخر لشراء القمح، فسلم الأخير النقود لولي داد خان ونصحه بأن القمح الذي يشتريه هذه المرة يجب أن تكون فيه حبات كثيرة من الشعير، فجاء بقمح خليط بكثير من الشعير، فسأل بفرحة من الذي جاء بالقمح، فقال بدافع الشفاعة: إن ولي داد خان جاء به، فقال: الآن قد عاد إليه صوابه، لذا يجب أن يُحضره هو حصراً مستقبلاً.

مرة سئل حضرة الشاه عن المذاهب الأربعة فقال: أشهر المذاهب مذهب أبي حنيفة، وأوسعها مذهب مالك، وأقواها مذهب الشافعي، وأحوطها مذهب أحمد بن حنبل.

لقد وجدته متخلقا بأخلاق سامية جداً. أما إيجازه للكلام فكنت أتعجب منه كثيراً، في بيته كان يقرأ القرآن الكريم بأكمله يومياً، وبعض مرديبه كانوا يرددون "لا إله إلا الله" ١٩٠٠٠ مرة كل يوم، اشتكى أحد منهم أن نور الدين لا يجتهد كثيراً، كما أنه يقرأ الفاتحة خلف الإمام ويقول برفع اليدين، فطلب إحضار سكين يمكن بها قطع مسألتي رفع اليدين وقراءة الفاتحة خلف الإمام

من البخاري. وإذا كان هناك سند يثبت قراءة "لا إله إلا الله" ١٩٠٠٠ فليُخرج نور الدين. إذا كان صحيحا فسوف يقبله. فلزم إخوتنا المشايخ كلهم الصمت. في الغرفة المجاورة لغرفتي كان يسكن المولوي نبي بخش الجشتي من مدينة جام بور. وفي إحدى المرات جرى بيني وبينه نقاش في جوّ ودي حول ركعة صلاة الوتر. فقال المولوي نبي بخش بأن أداء ركعة واحدة لصلاة الوتر ينافي بجوئا قام بها الإمام أبو حنيفة رحمه الله ولا ينافسه أي دليل، إذ يكفي قرار الإمام أنّ ركعة واحدة لا تسمى صلاة، وبعد بضعة أيام قدمت له كتابا فيه ذكر لـ "صلاة العشاق"، وهي عبارة عن ركعة واحدة وتؤدّى قيّامًا على رجل واحدة. فقال المولوي بأن هذه الصلاة وُجدت مفيدة من خلال التجربة. فقلت له: ولكنها تنافي بحث أبي حنيفة عن الركعة الواحدة. فاستخدم المولوي نبي بخش كلمات مسيئة جدا ضد الإمام أبي حنيفة. فقلت له: كنت من قبل تمدح الإمام كثيرا والآن بدأت تسيء إليه كثيرا؟ قال: كنت قد مدحته مقابل الأئمة، أما الآن فإننا أمام بحث قام به "سلطان جي" وأنتم تعرفون مكانة "سلطان جي"، إنه واصل إلى العرش، فما حقيقة شيخ مثل أبي حنيفة أمامه؟ عندها تأكدت أن الحب والتقليد يوقع الإنسان في كثير من الابتلاءات.

كان نبي بخش يقيم في المدينة بقصد أن يرى النبي ﷺ في اليقظة. وحدث أن رأيت النبي ﷺ مرة في الرؤيا فقال لي: "إنك مدعو على الطعام في بيتنا، ولكن يقلقني أمر المولوي نبي بخش."

فبحثت كثيرا عن المولوي نبي بخش ولم أعثر له على أثر مع أنه كان يقيم معي في الغرفة، إذ لم يأت إلى الغرفة. ثم حين لقيته بعد أيام عديدة قلت له: "إذا

كنت تواجه مشكلة فأخبرني، وإذا كنت بحاجة فيمكن أن أعطيك بعض النقود. قال نبي بحش: كنت في مشكلة عويصة ولكن اليوم وجدت عملا كأجير، وحصلت على بعض النقود، فلم أعد بحاجة إلى المساعدة.

كان في المدينة المنورة شخص من الأتراك يحبني كثيرا، فقال لي: إذا كنت بحاجة إلى كتاب فيمكن أن تأخذه من مكتبي. وهذا ليس من مبادئنا، إلا أنني أقول لك ذلك لحبك وعشقك للقرآن الكريم. فقلت له: إذا كان عندك كتاب حول موضوع الناسخ والمنسوخ فأحضره لي، فأحضر كتابا ذكرت فيه ست مائة آية منسوخة. فلم يعجبني ذلك، قرأت الكتاب كله ولم أستمتع، فأعدت الكتاب قائلا: أنا شاب وأستطيع حفظ الستمائة آية هذه بفضل الله، لكن هذا الكتاب لم يعجبني. لقد كان رجلا عجوزا ومحنكا، فأحضر لي "الإتقان"، ودلني على بحث الناسخ والمنسوخ فيه.

والشيء المفرح أني كنت قد اشتريت "الفوز الكبير" من مومباي بخمسين روبية ولم أكن قد قرأته. فأحضرت الإتقان وبدأت أقرؤه، وقد ورد فيه أن هناك ١٩ آية منسوخة، ففرحت كثيرا بالاطلاع على ذلك، فقلت في نفسي أستطيع أن أحفظ ١٩ أو ٢٠ آية بمنتهى السهولة، وصحيح أني فرحت كثيرا، إلا أنني رُزقت قلبا وعِلما من نوع جعل ذلك الكتاب أيضا لا يعجبني. الآن خطر ببالي أنه يجب أن أقرأ الفوز الكبير، فلما قرأته وجدت أن مؤلفه قال فيه إنه بحسب العلم الذي وهبه الله ﷻ له فإن المنسوخ هو خمس آيات، فسُررت بذلك كثيرا جدا، ولكنني حين تدبرت تلك الآيات الخمسة أيضا توصلت بناء على تفهيم من الله إلى أن قضية الناسخ والمنسوخ

باطلة كلها. إذ يقول البعض إن الآيات المنسوخة هي ست مائة آية، ويقول الآخر إنها تسع عشرة آية أو إحدى وعشرون، ويقول الثالث إنها خمس آيات، وهلم جرا، ومن هنا تبين لي وتوصلت بفضل الله إلى أن الأمر يتوقف على فهم العباد فقط. إذ إن هذه الخمسة قد أبطلتها كلها، فبعد أن أعطيت هذا الفهم وبعده بمدة، نزلت ذات مساء عند محطة القطار في لاهور؛ وبيان ذلك أني ذهبت لأمر ما إلى مسجد في مدينة "جينيان"، فوصلت المسجد، وكنت أتوضأ لصلاة المغرب إذ جاء السيد ميان أحمد علي أخو المولوي محمد حسين البطالوي، وسألني: إذا كان العمل بالقرآن الكريم والحديث الشريف ساري المفعول فما هي قصة الناسخ والمنسوخ إذن؟ قلت له: لا حقيقة لها. فذكر السيد أحمد علي هذا الأمر لأخيه محمد حسين الذي كان في تلك الأيام إماما في هذا المسجد. وفور فراغه من الصلاة قال لي محمد حسين بلهجة ملؤها الكبر والعجرفة: "تعال إلى هنا، أنت قلت لأخي بأنه لا ناسخ ولا منسوخ في القرآن؟". قلت: "نعم! قلت ذلك". قال محمد حسين بحماس شديد: "يبدو أنك قرأت كتابا لأبي مسلم الأصفهاني، فإن ذلك الغبي أيضا لم يكن يعتقد بذلك." قلت له: "فأصبحنا اثنين إذن." قال محمد حسين: هل تعرف سيد أحمد؟ إنه يحتل مكانة مرموقة في مدينة مراد آباد! قلت له: أنا أعرف علماء رامبور ولكهنائؤ وبهوبال ولا أعرفه. قال: هو أيضا لا يعتقد بالناسخ والمنسوخ. قلت: "حسنا! لقد أصبحنا ثلاثة إذن." قال: إن الإمام الشوكاني يقول بأن الذي لا يعتقد بالناسخ والمنسوخ هو مهرطق، وهكذا فإنكم جميعا من الهراطقة. فقلتُ له بعد ذلك:

أخبرك بكل سهل لقضية الناسخ والمنسوخ، وهو أن تقرأ آية تراها منسوخة. وخطر ببالي فوراً أنه لو قرأ آية من تلك الآيات الخمسة^١ فماذا سأفعل؟ فقرأ آية، فقلت له: بأن كتاب كذا وكذا - وهو موثوق به عندك أيضاً- قد ردّ على ذلك وأثبت أنها غير منسوخة. قال: نعم. قلتُ: اقرأ آية أخرى إذن، ولكنه لزم الصمت.

بعد هذا الحادث قرأت تلك الآيات الخمسة في التفسير الكبير للإمام الرازي بتدبر وتأمل كبيرين، ووجدت حلاً لثلاثة منها. ثم حدثت أنني كنت أقرأ كتاباً آخر أثناء سفري في القطار فوجدت حلاً لآية أخرى، وكم كان سروري لتوصّلي لهذا الحل. والآن لم تبق إلا آية واحدة، ففهمني الله هذه الآية أيضاً أثناء قراءتي كتاباً بسيطاً، وهكذا حُلَّت قضية الناسخ والمنسوخ بأكملها بفضل الله تعالى.

من العجائب التي ظهرت لي في المدينة المنورة أنني ذات يوم ذهبت إلى قناة تجري في الأسفل، وكان على الذهاب إليها أن ينزل عبر الدرج، فرأيت شخصاً عارياً تماماً في الأسفل يتحدث مع شخص واقف في الأعلى دون أي خجل، وكان هناك عدد من الناس أيضاً، فعند رؤية هذا المشهد لم أتمالك نفسي، فقلت له ألا تستحي بكونك عارياً هكذا، فقال بكل تجاسر: إن الله يرى وراء الستار، مما أثبت لي أن الأوضاع العملية للمسلمين وأخلاقهم الفاضلة قد تردت كثيراً، إذ لم يمنعه من ذلك أحد الموجودين هناك. كان في خارج المدينة يسكن كثير من الشيعة الزيدية وكانت فيهم عادة نكاح المتعة.

^١ أي الواردة في "الفوز الكبير". (المترجم)

كان لي صديق وكان قد بنى مضافة واسعة لإقامة الناس، وأنفق عليها أموالاً باهظة. طلب منه قاضي المدينة مائة جنيه قرضاً. فاستشار صديقي في ذلك مرشدنا السيد عبد الغني المحترم، فقال: لا تقرضه لأنه لن يعيد القرض إليك. فرفض صديقي طلب القاضي. وفي اليوم التالي جاءه من دار القضاء أمر يقول بأنك تبني مضافة في المكان الذي كان فيه زقاق لمرور الناس، وإغلاق مثل هذا الممر ممنوع بحسب الحديث، لذا يجب أن توقف بناء المضافة. ولما كان صديقي هذا قد أنفق ألوفاً من الروبيات على البناء، لذا قلق بذلك كثيراً بطبيعة الحال. ثم أشار عليه شخص من معارفي أن يسافر إلى مدينة جدّة ويزور المستشار الإنجليزي في الأمور القانونية. فذهب صديقي هذا إليه وقص القصة كلها، فكتب المستشار في الأمور القانونية رسالة إلى القاضي. وفي اليوم التالي بعد وصول الرسالة إلى القاضي وصل إلى صديقي أمرٌ من دار القضاء يقول بأن مرور الناس من ذلك الزقاق قد توقف، لذا فلا ينطبق حكم الممر على الزقاق، لذا يُسمح له بالاستمرار في بناء المضافة.

كان لي صديق آخر أراد أن يقيم بستانا كبيرا هناك، فساعده الفلاحون وأصحاب الأراضي كثيراً، فلما أثمر البستان كان السكان كلهم يتوجهون إليه ويجنون الثمار ليلاً. هذه الأخلاق مؤسفة ومحزنة وإنما بينها لكي يعتبر بها أحد، ولعل صالحاً من عباد الله يدعو لذلك. ذات يوم جاء أحدهم إلى حضرة الشاه وقال: لقد أتيت إلى المدينة المنورة مهاجراً، لكنني تضايقت جداً من أوضاع الناس هنا. فغضب حضرة الشاه كثيراً عند سماع ذلك، فقال: نحن أيضاً أتينا إلى هنا مهاجرين. فإذا كنت قد هاجرت لتقيم بجوار روضة النبي ﷺ فهي

موجودة، أما إذا كانت نيتك بأن تعايش أبا بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فلا شك أنهم غير موجودين هنا، فالأفضل أن تذهب من هنا.

في الأيام التي كنت ألتقى فيها التعليم على يد حضرة عبد الغني شاه فاتتني صلاة الظهر مرة. فقلقت من ذلك قلقا ما بعده قلق وظننت أن ذلك: "من الكبائر بحيث لا يمكن مغفرته."

شحب لوني خوفا، حتى شعرت بالخوف لدى دخولي المسجد أيضا. وهنالك باب باسم "باب الرحمة" وجدت مكتوبا عليه: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وبعد قراءة هذه الآية أيضا دخلت المسجد خائفا حيران، وبدأت أصلي بين منبر النبي صلى الله عليه وسلم وبيته. وفي حالة الركوع خطر ببالي بشدة أنه قد ورد في الحديث الشريف: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة"، والجنة مكان يُجاب فيه كل دعاء. فدعوت: يا رب اغفر لي هذا الذنب.

مرة ثانية في مكة المعظمة

حين انطلقت من المدينة إلى مكة تعرضت لحادثين غريبين جدا في الطريق، أولهما أنني كنت أسمع دائما عن وقوع الشجار بين المسافرين والبدو، وعندما فكرت شخصا في هذا الموضوع وجدت لذلك سببين اثنين:

الأول: البدو لا يفهمون اللغة الهندية، والهنود لا يعرفون العربية، وحين لا يفهم بعضهم الآخر يتحدث الخلاف بين الطرفين بسبب عدم معرفتهم لغة بعضهم البعض.

السبب الثاني في ذلك بحسب رأيي عائد إلى عادة العرب، حيث أنه إذا جاءهم أحد وهم يأكلون واشترك معهم فلا يمنعونه من ذلك. وتكون النتيجة أن الجميع

يقون جائعين. فإذا قدم أحد الهنود طعاما هنديا لأحد البدو يشاركه الجميع ولا أحد يشبع منهم، والمعلوم أن الجائع يسخط ويغضب بسرعة ودونما سبب يُذكر. فنظرا لهذين السببين اشتريت كمية من التمر وأخفيتته عندي حيث لا يعرف البدو، وفي منتصف الليل كنت أقدم كَفَّةً من التمور للبدوي المرافق لي بصمت، وكان يشبع جيدا، ومن ثم كان يخدمني خدمة الخادم الوفي لسيدته، فأحيانا كنت أحتفظ عندي بماء، وأحيانا كنت أطلب منه إحضار الماء، فكان يحضر لي الماء بطريقة أو بأخرى. وذات ليلة حين طلبت منه الماء قال: هناك على مسافة ميلين أو ثلاثة أميال ينبوع ماء بارد، توقّف قليلا. لكن من عجائب القدرة أي كنت عطشانا جدا، لذا قلت له إن لم يتوفر البارد فلا بأس، أريد الماء. كنت عندها شابا بالغا من العمر ٢٤ أو ٢٥ عاما وكنت قوي الجثة، وكنت أحتفظ معي ببعض التمور التي كنت آكلها عند الضرورة وأشرب الماء أو الحليب بعدها.

في فترة الشباب كنت أشعر بالعطش الشديد، ولا سيما في الصباح الباكر كنت أشعر به بشدة لا تطاق. ففي إحدى المرات شعرت به كالمعتاد في الهزيع الأخير من الليل ولم أجد ماء. فقلت للبدوي: أنا أشعر بالعطش فأرجو أن تحضر لي كأسا من الماء. فنهض على الفور وذهب إلى بعير كان بعض الهنود قد حملوا عليه قربة ماء، ولكن لاحظت في سلوك هؤلاء أنهم ليلا لا يقتربون أبداً من بعير غيرهم فضلاً عن بعيرهم، فقال لهم بمنتهى الأدب: أنا بحاجة إلى كأس من الماء لرجل نبيل محترم، فبدأوا ينادون فور سماع صوته: حرامي حرامي. ففور سماعه كلمة "حرامي" عاد البدوي إليّ مسرعا بحذر شديد وقال: لا مجال للماء في الوقت الحالي، فانتظر قليلا.

ثم ذهب إلى ينبوع على بُعد ميلين أو ثلاثة أميال وأحضر منه الماء البارد جدا من أجلي فشربت الماء، فمنت. وحين أصبحت وجدت هنديا مسكينا يصرخ بأعلى صوته مضطربا في المحطة التالية. فحين سألته ماذا أصابه قال: لقد ثقب القربة ليلا أحد الأندال، فسأل منها الماء رويدا رويدا، والآن لن نجد الماء قبل الوصول إلى مكة. فأدرت أنه فعل رفيقي البدوي، فسألته أنت ثقتب قربة هذا الهندي ليلا؟ قال: أيها الشيخ، قد سألتهم كأسا من الماء من أجلك ولم يقدّم لي، أفلم يكن جائزا لي أن يثور غضبي عليهم؟ فلمته كثيرا. وفي رأبي إن نصحهم على انفراد بلطف الحُجاج مفيد جدا. أنا لم آخذ معي أي قربة ولا إبريقا ذهابا ولا إيابا، ومع ذلك لم أجد أي صعوبة في الحصول على الماء للشرب والوضوء أيضا، فالقضية تتوقف كثيرا على معرفة اللغة، فكنت أسمعهم شعرا يوما، فكان البدو يرقصون طربًا لسماعه.

الحادث الثاني أننا حللنا في موضع. وكان قريبا من مكاني خيمة عظيمة، وكان يجري فيها نقاش، فلم أجد الدخول فيها مناسبا، وإنما ركزت على نقاشهم، والجملة الأخيرة التي نطق بها أحد المقلدين كانت أن تفضيل إنسان مقابل أحد الأئمة أمرٌ ممكن، ولكن لمن يملك الأدلة الكاملة وكان متمكنا من دحض أدلة خصمه كاملا، وإن لم يكن لديه معلومات واسعة لهذه الدرجة فكيف يمكن تفضيله؟ لذا لستم جديرين بالتفضيل في أي مسألة. عندئذ خطر ببالي أن أردّ بشيء على هذا وكنت شابا متحمسا، فقلت بصوت عال: إذا كانت مسألة واحدة بحاجة إلى هذا الكم الهائل من العلوم فإن تفضيل إمام على غيره في جميع المسائل تكون بحاجة لمئات الألوف من العلوم.

فصوتي هذا عمل عمل البرق، إلا أنهم كانوا أثرياء، وكنت في تلك الأيام أنفر من الأثرياء.

فلما اقتربنا من مكة كنت قد قرأت حديثا أن النبي ﷺ كان قد دخل مكة من طرف "كداء"، إلا أن المراكب والشاحنات لم تكن تستخدم تلك الطريق، لذا قفزت عن الجمل بعد أن تقدمت قليلا من ذي طُوًى، فدخلت مكة عن طريق "كداء"، وتأسفت على أن عددا قليلا جدا من الناس دخلوا عبر هذا الطريق مع أنه لم يكن هناك أي مانع، وإنما كانت تنقصهم الهمة والقوة والمعلومات الكافية.

كان من دأبي أن ألبس الإحرام لأداء العمرة من البيت الذي كنت أسكنه في مكة المكرمة. بعد ملاحظة تصرفي هذا قال لي صاحب البيت ذات مرة- وكان شخصا كبيرا في السن يدعى السيد المخدوم-: لماذا لا تلبس الإحرام من جبل "التنعيم" كما هي العادة؟ فقلت له: لأني طالب، ولا أجد وقتا كافيا، لأن الذهاب إلى هناك والإياب يستغرق قرابة سبع ساعات، كما لا أرى إلى ذلك حاجة أيضا إذ قد ثبت من الأحاديث الصحيحة أن أهل مكة يمكنهم أن يلبسوا الإحرام من مكة. لما سمع ذلك الشخص هذا الكلام مني قال لي بمنتهى الاضطراب: هكذا تخالف أهل مكة كلهم. قلت: لا أخالف أهل مكة كلهم وإنما أخالف أصحاب الحمير الذين يُقَلّ دخلهم. فابتسم الشيخ بسماع هذا الكلام ولزم الصمت.

أثناء الحج قمْتُ بالطواف مرتين وطفْتُ سبعا في كلتا المرتين، واصلت ركعتين كل مرة، وهذا فضل من الله تعالى وإلا لا يحظى الناس بهذه الفرصة

بسهولة، أو بالأحرى لا يجدون الفرصة لذلك أصلا. يُذكر اسم الله تعالى في الطواف في كل حين وآن ليلا ونهارا، ولا يوجد في الدنيا مكان يُذكر الله تعالى فيه بهذه الكثرة، لذا فإن رحمة الله تعالى أيضا لا تنزل في مكان آخر بالكثرة التي تنزل بها هناك.

إنَّ أعجب ما رأيت في هذا البيت هو أن صاحب البيت السيد المخدوم كان مُسِنَّاً هَرِمًا وكانت زوجته في مقتبل عمرها، وكانت على قدر من الجمال لا يضاهي. ولكنها كانت تخدم زوجها كثيرا إذ كانت تسحق الأوراق بيدها وتجهز بها طعاما لينا له. وكنت أتخير فعلا نظرا إلى خدمتها لزوجها، حتى قلت لها يوما على انفراد:

هل تعرفين كم أنت جميلة؟ قالت: أعرف ذلك جيدا، ويمكنني أن أشهد بذلك أيضا. والشهادة هي أن جميع السيدات من مكة يقمن بوشم على حدودهن، أما أنا فلم أُلجأ إلى أي وشم على خدي. فمن هذه الناحية أنا وحيدة فريدة في المدينة كلها. فهذا يدل على أنني مطلعة جيدا على مدى جمالي. وعندما أكرهتني النسوة على الوشم على خدي وثُمَّتْ عنقي تحت الشعر، ثم أرَتني إياها. قلت لها: السؤال الثاني هو أنك تخدمين زوجك الشيخ كثيرا، الأمر الذي يحيرني كثيرا. إنه رجل مسنٌّ وأنت ما زلت في مقتبل عمرك. قالت: لو لم يكن مسنًّا لما احتجت لسحق الأوراق. وبما أن الله تعالى قد أعطاني زوجا مسنا فمن واجبي أن أعامله باللطف والإحسان. فأعجبت بجوابها أيما إعجاب وفكرت في نفسي أن البر والحسنة توجد في طبيعتها بآتم وجهه وأكمله. ثم حين سألت السيد مخدوم عن زوجته قال: إنني أستطيع أن أحلف

على صدقها وصلاحتها، وهي لطيفة ومؤنسة جدا. إن اسمها صادقة، وإنه اسم على مسمى.

ثمة حاجة ماسة في مكة المعظمة إلى طبيب حاذق، فالطبيب الجيد الصالح يمكن أن يعيش هناك باحترام. لقد ذكرت مرض والدة أستاذي أيضا، فعندما كنت هناك كان الزمن ٨٥ أو ٨٦ الهجري^١ فقد لاحظت أن أغلب الحالات المنتشرة هناك هي قلة الأولاد وفقر الدم وشرب القهوة بكثرة والضعف العام، والطبيب المقيم يجب أن يكون ملماً بالأعمال اليدوية أيضا.

بعد الحج يبيع العرب عادة أثاث البيت بسعر رخيص جدا، وخاصة إذا كانوا يريدون السفر إلى الطائف للتمتع والرفاهية والتنزه، فهم يبيعون الأشياء التي سعرها روبيات بمليّمات، لكن عندما يأتي موسم الحج فهم يبيعون نفس الأشياء التي اشتروها بمليّمات مقابل الروبيات، فعلى المرء أن يشتري الأشياء بعيد الحج كبائعي الأشياء المستخدمة، ويبيعها عند حلول موسم الحج، فهكذا يتمكن من التجارة الراجحة جدا، ومسألة القرض خطيرة جدا.

لقد ظفرت بنقطة معرفة هناك أنه بما أن كل عام يأتي حجاج جدد ويعودون إلى بلادهم فورا، لذا يتعذر على السكان هناك أن يحبوا إنسانا كاملا بصدق، هناك يأتي كل يوم ضيوف جدد ويعودون، فإذا أحبوا أحدا حبا شديدا ففي ذلك هلاكهم، أنا أستنتج من ذلك أنه بما أن الوسيلة الصادقة لحب الله ﷻ تتوفر هناك، لذا لا أهمية لحب الإنسان. إن النبلاء والنجباء هناك والعرب سادة وسيدات يقدمون نموذجا رائعا للمجتمع

^١ أي ١٢٨٥ أو ١٢٨٦ هـ. (المترجم)

العربي ومدنيتهم إذ يتكلمون اللغة الفصيحة في مجالسهم ويتكلمون لغة عامية أيضا.

باختصار، قد وصلت إلى مومباي وشاهدت هناك زوجين كنت قد شاهدتهما في مكة، فقابلاني، وقلت لهما إذا كانا يريدان إرسال الأمتعة أو رسالة إلى أهلهم فيمكن أن آخذها، لأني سوف أسافر بالقطار، وكانا قد أخبراني أنهما سيذهبان إلى وطنهما عن طريق النهر غير مستعجلين، وكانا يبدوان نجيبين، فحين سمعا كلامي هذا، خلعت السيدة غطاء رأسها وسقطت على قدمي وقالت: أتوسل إليك وأرجوك رجاء حارا ألا تخبر عنا أحدا في بلادنا. سألتها مستغربا: ما القصة؟ قالت: أنا سيدة محترمة، كنت قد أصبحت أرملة في سن مبكرة. وعندنا لا يزوجون الأرملة مراعاة للعادات والتقاليد السائدة هناك. وإن هذا الشخص (زوجي) كان مرشدا، وكان يريدوه يسكنون في جوارنا، فتزوجت منه خفية، الأمر الذي لا يعرفه أهلي، فلأجل ذلك اضطرت للإجهاض إحدى عشرة مرة. ولكن مع ذلك دفعني ثوائر النفس في أيام شبابي إلى أن قلت له بأننا لا نستطيع العيش هنا كزوجين بحرية، لذا يجب أن تسافر إلى مدينة "ملتان" وتصل إلى مكان حددناه، وأنا أيضا سوف أصل إلى هناك، فسوف نعيش هنالك بحرية. وعندما عزمتم على الحج قال لي إخوتي، وكانوا أثرياء: نحن نساfer معك حتى لا تتعرضي لمشكلة، فوافقتم. فقضينا الليلة في قرية. وفي الليل نزل المطر غزيرا وهبت عاصفة عاتية حتى ساد القلق والاضطراب جميع المسافرين. أما أنا فبدأت أركض في طوفان المطر والعاصفة - تحسبا للعواقب - متجهة باتجاه الطوفان، وظللت أركض إلى أن أصبح الصباح بدون

أن أعرف إلى أين مسيري وما مصيري. وحين أصبح الصباح سألتُ الناس عن الطريق المؤدي إلى مدينة ملتان. فدلوني عليه. ولا أدري هل رجع إخوتي إلى بلادهم، أو إلى أي مدى بحثوا عني. وحين وصلت إلى ملتان وجدت زوجي ينتظري. ثم سافرنا إلى مكة ومكثنا هنا إلى مدة طويلة، وعشنا عيشا هادئا مطمئنا كما رأيت. أما أهلي فلا يعرفون عن ذلك شيئا. والآن أنا عائدة إلى ملتان، وحين نصل قرب مدينة ملتان سوف أنفصل عن زوجي. هذه هي قصتي فأرجو ألا تذكرنا لأحد.

يقول حضرته: لقد ذكرت هذه القصة للدلالة على أن عدم تزويج الأرامل ليس أمرا مستحسنا، إن هذه السيدة كانت فيما سبق قد زارتنا في البيت أيضا. أدعو الله تعالى أن يوفق الذين في بيوتهم عوانسُ وأراملُ أن يزوجهن بعد الاستخارة.

مدينة بهيره

عند العودة نزلت في دلهي، وقال لي أحد رفاقي القدامى إن أستاذك في الطب يقيم هنا في دلهي. فذهبت مع صديقي إلى أستاذه المحترم. فسألني: ما الذي أتيت به من الحرمين؟ فذكرت له بعض الكتب القيِّمة التي أحضرتها من هناك. قال الأستاذ: أعطني هذه الكتب كلها. قلت له بطيب خاطر: إنها كلها ملكك، إلا أنني قد وضعتها في الصناديق وأرسلتها إلى لاهور. وعند الوصول إلى هناك سأرسلها لك، فقال لي الأستاذ: أنا أيضا أريد أن أزور لاهور، فلنسافر اليوم، فحضرت عنده بكل سرور فجاء إلى لاهور، ورافقته أثناء زيارة أماكن كثيرة. وأثناء الحديث جرى ذكر الكتب وقال لي الطبيب: ينبغي أن

تُحضرها من المحطة. وحين أردت الانطلاق إلى المحطة، قال الأستاذ: أنا سأتولى أمر إحصارها بنفسي. ثم أرسل خادمه ودفع من عنده الضرائب المستحقة عليها (التي لم أكن قد دفعتها بعد) وأحضر الصناديق ثم قال: "لقد فعلتُ ذلك لأسهم أنا أيضا فيها ولو بقدر ضئيل."

معنى ذلك أنه دفع نفقات إرسال الصناديق من مومباي إلى لاهور. وأقول تحديثا بنعمة الله ورحمته أنه لم تكن في جيبى عندها نقود كافية لدفع الضرائب المستحقة على الصناديق.

باختصار؛ ودعته ودخلت لاهور، فقال لي أحد سكان بلدي من الهندوس والذي كان عنده وسائل للنقل: يمكن أن آخذ أمتعتك إلى بهيره، ويمكن أن تدفع لي الأجرة بعد الوصول إلى بهيره، وبذلك قد أوصلني الله ﷻ مع الأمتعة إلى بهيره.

كان كثير من المسلمين والهندوس قد اجتمعوا لاستقبالي، فذكر أحد المشايخ في الجلسة أن "البخاري" الذي كان متربعا في زاوية مجهولة منذ ألف عام قد نشره الآن شخص من دلهي يدعى إسماعيل. لم تكن أذناي متحملتين لسماع هذه الكلمة الخطيرة، ولم أكن قد سمعت مثل هذه الكلمة من أحد الخوارج ولا الشيعة ودونك من فم شيخ ممتاز من الأحناف، فاستغربت جدا، ثم ثار في قلبي الغيظ والغضب، وكان أول يوم لي في وطني بعد عودتي من السفر، فظهر في قلبي شيء من المد والجزر، وأخيرا لم أجد الامتناع عن الكلام مناسبا، فقلت إني الآن قد أتيت بعد تحصيل العلوم، ولم أتمكن من مطالعة كتب كثيرة، ولا أملك نظرة شاملة ثاقبة، ولا أملك الخبرة، ومع ذلك أتذكر أسماء ستين شرحا

للبخاري، وإذا كان شرحٌ واحد قد استغرق ١٦ عاما فهي ليست مدة طويلة، فخلال هذا الألف عام كُتِب شرح البخاري كل يوم، وهذه الشروح للمذهب الشافعي والأحناف والمالكيين والحنابلة أيضا. ولقد تعلمت البخاري شخصيا من المولوي الحنفي الكبير عبد القيوم في بهوبال، ثم درسته من الشاه عبد الغني المحترم أيضا، ففي صحبة كليهما لم أسمع مثل هذه الكلمات، فوقع قولي هذا على قلب ذلك الشيخ كالبرق.

وفي إحدى المرات كنت أدرّس "المشكاة" في مسجده فدار الحديث عن الدعاء بعد الأذان: من قال بعد رفع الأذان: اللهم رب هذه الدعوة التامة... إلخ، حلت له شفاعتي يوم القيامة. عندما سمع شخص يُدعى عبد العزيز البيشاوري هذا الدعاء قال لي: أرجو أن تكتب لي هذه الكلمات، ففعلت له ذلك بقلم إنجليزي حديدي يكتب كلمات دقيقة جدا، فلما كان كبير العمر وضعيف البصر حاول أن يقرأه فلم يستطع لضعف البصر، فذهب إلى خطاط مشهور اسمه "محمد دين" ليخطه له بخط حسن عريض وجميل. فأخذ الخطاط محمد دين الأوراق - دون أن ينظر إلى السياق بأن هذا الدعاء هو للشفاعة - وذهب رأسا إلى شخص كان يكنّ عداوة لصحيح البخاري، وقال له بأن هذا الشخص قد ترك الكلمات: "وارزقنا شفاعته" قصدا. فزادت أوراقي الطيّين بلّة، حيث زاد غضبه السابق، فاستعد لمبارزتي دون أن يفكر في الأمر أدنى تفكير. وبينما كان الشيخ ما زال يخطط للموضوع جاء لزيارتي شخص من السادات وشخص آخر، وقال لي السيد: إن في قرية أهل زوجتي جماعة يرفعون الأيدي عند الركوع والقيام في الصلاة، وسألني رأبي فيهم، وكيف ينبغي معاملتهم؟ فقد

جُعلت حكما في النزاع هناك. أبديت عندها بعض الضعف وقلت لهما: يجب أن نسأل أولا عن مذهب الذين يرفعون اليدين أمن الشيعة هم أم من أهل السنة؟ وإذا كانوا من أهل السنة، أمن أتباع الإمام الشافعي أم الإمام أحمد بن حنبل؟ فإذا كانوا من هؤلاء القوم فإن رفع اليدين ثابت في مذهبهم. أما إذا كانوا من الأحناف فيمكن إصدار فتوى مناسبة فيهم. أعجب السيد بهذه الفتوى كثيرا، وانصرفا. ثم لم يلبثا أن نزلا من الأدراج حتى مر بقربهما شيخ كان ناقما على صحيح البخاري وقلقا بالنسبة إلى دعاء الشفاعة، فسأل السيد: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ فقال السيد المحترم: لقد سألت سؤالا فوجدت جوابا معقولا جدا، فلما سمع الشيخ ذلك من السيد قال: أنا واقف هنا أرجو أن تذهب إليه وتسأله ما هو حكم رفع اليدين في رأيك؟ فلما رجع السيد المحترم ورأيته تأسفت على إبدائي الضعف في السابق، فسألني الفتوى قائما كما كان الشيخ قال له، كنت سلفا أبدي الأسف على جوابي السابق، فقلت له بكل شجاعة وبسالة: "رفع اليدين جائز عندي."

فقال السيد: إذا كان هذا رأيك فإن مكوثك في هذا البلد أو في هذه المدينة على الأقل يكاد يكون مستحيلا. فقلت له كما كنت مستعدا لذلك: هذه أفعال الله ولا دخل للعباد فيها، فالحوار في اليوم الأول والدعاء وسؤال السيد هذا قد أبدت معا تأثيرا ساحرا عجيبا.

ذات صباح خرجت من البيت فجاءني السيد حكيم فضل دين - وهو من أصدقائي المخلصين جدا وأحبائي والمحسنين إلي، والمطيعين لي بصدق القلب رحمه الله - في حالة من القلق والذعر وسألني ما هو الدعاء بعد الأذان؟

فقرأت عليه الدعاء المعروف بكل بساطة. فقال: أين ورد هذا الدعاء؟ فسألته عن سبب القلق، وقلت له: ستجده بهذه الصيغة في "كبيرى، شرح منيه" و"اللمعات، شرح المشكاة" للشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي. في العادة كان يمرض بعض المسلمين المقيمين تحت بيتي، أما في ذلك اليوم فلم يكن أي مريض خلافا للمعتاد، وكنت مشغولا في الحديث إذ جاءني شخص أشفق عليه كثيرا، كان اسمه غلام محمد، وكان متحمسا جدا، وأشفقت عليه لأني رأيت من أولاده شابا هو شيعي متحمس جدا، ويرى رفع اليدين من الفرائض تقريبا، فهذه أعاجيب الله، فقال: إن زوجة حضرة المرشد المحترم مريضة جدا فأرجوك أن تفحصها في بيتها. وكنت أكن لذلك المرشد احتراما كبيرا، فذهبت معه دون أدنى تردد. فانطلق الرجل بسرعة، ورأيت في الطريق خلقا كثيرا يندفعون إلى بيت المرشد المحترم تلقائيا، فلما وصلت إلى باب بيته، رأيت ازدحاما كبيرا للناس ولم أر شخصا يتوجه إلى القاعة المخصصة للنساء، كما اختفى غلام محمد أيضا، فتيقنت بأني قد استُدعيت إلى هناك لأمر آخر خدعة. لكنه لم يكن هناك سبيل للعودة أيضا فذهبت إلى قاعة الرجال فإذا بشيخ الطريقة مستقل على سرير كبير، وشيخ آخر - كنت معترفا بعلمه وقدسيته وتقواه - واضعا جبينه على قدمي شيخ الطريقة غير المثقف ويربتهما بيديه. فاضطربت للمشهد، وتوجهت إلى المرشد مُظهرا الكراهية لهذا الموقف وقلت: إن زوجتك مريضة، فلنذهب لأفحصها. فقال لي: أريد أن أسألك عن قضية دينية مهمة قبل أن نذهب. قلت له: إنك صاحب زاوية وما علاقة أصحاب الزوايا بالقضايا الدينية؟ إذ قد تحلّوا في العصر الراهن عن المسائل

الدينية نهائيا. كنت ما زلت واقفا فأصر الشيخ ثانية عليّ بالجلوس، لكنه كان ذكيا ومتفرسا، لذا فطن إلى أني لن أجلس على الأرض، بل سوف أجلس على السرير فقط، وكانت فراسته صحيحة تماما، فقال: "العلماء كلهم جالسون على الأرض، أما هذا فهو من سلالة النبي ﷺ، ولقد أخطأ خدامنا إذ وضعوا لي سريرا." ثم دعا خادما وأمره بإخراج السرير من الغرفة، وقال: سوف أجلس أنا أيضا على الأرض.

حينما جلس المرشد على الأرض قلت له تفضل الآن، عن أية قضية تريد أن تسألني؟ ومعلوم أن الله هو الذي يحقق الأعمال كلها، فالدافع الحقيقي كان كتابا في يد المرشد كان قد وضع إصبعه في موضع منه. فخطر ببالي أنه يريد السؤال عن مسألة قد ذكرت في هذا الكتاب، فأخذت منه الكتاب قائلا: ما هذا الكتاب يا أخي؟ قال المرشد غاضبا: أنت لست أخي. فقلت له: لا داعي للغضب، إذا كنت لا تريد أن تكون أخي من حيث الأخوة الإسلامية، فإن هناك عادة شائعة عندنا أن الناس يخاطبون السيخ أيضا بكلمة الأخ. عندها أرخى المرشد قبضته على الكتاب وقال: بهذا المعنى يمكن أن تقولها. وحين وقع الكتاب في يدي لم يعد المكان واضحا حيث كان البير قد وضع إصبعه. ولكن من عجائب قدر الله تعالى أنه حين فتحت الكتاب وقع نظري على الصفحة السابعة منه ووجدت فيها الكلمات بعد الأذان التي كنت قد كتبتها من قبل، والتي كانت سبب النزاع كله. فسئرت بذلك أيما سرور، وذهب وهلي إلى أن الله تعالى قدّر أن تُشطب جملة "وارزقنا شفاعته". ولو لم يكن الأمر هكذا لما أصر على ذلك هذا الشخص الذي هو عالم وذكي، ولما أعطاني

الكتاب أصلاً. عندها حكيت بكل حماس وقوة قصة شاب من بني إسرائيل كان يقرأ التوراة، وكلما قرأ فيها اسم رسول الله ﷺ شطبه، لكن اسمه ﷺ كان يُكتب تلقائياً بمشيئة الله تعالى. قصصت هذه القصة ثم سألت الحضور، هل سمعتم هذه القصة؟ فقال الجميع: نعم! لقد سمعناها من قبل. ثم قلت: "عندها كان الاسم المشطوب يُكتب تلقائياً، أما الآن فقد شطب الله تعالى جملة كانت مكتوبة من قبل. انظروا في هذا الكتاب: "دلائل الخيرات"، فقد شُطبت منه جملة "وارزقنا".

قلت: "إن هؤلاء الناس كانوا قد قرأوا سابقاً هذه الكلمات في كتاب: "دلائل الخيرات"، وكانت جملة "وارزقنا" موجودة ضمنها. فبدأوا الآن يبحثون عنها في الكتاب وهم لا يعرفون الصفحة التي قرأوا فيها تلك الكلمات من قبل، فأصيبوا بحيرة ما بعدها حيرة لعدم اطلاعهم عليها.

ولقد خجل المرشد بعد مشاهدته هذا المقتبس، ولكنه كان ذكياً على أية حال، لذا غيّر الموضوع فوراً وقال: إنه من بحوث المشايخ ولا علاقة لنا بها. أما القضية التي نريد أن نسألها فهي، هل يجوز القول: "يا شيخ عبد القادر الجيلاني شيئاً لله"، أم لا؟"

قلت له: "لا أدري كيف أحمد الله ربي! أنا لست شيئاً، ولو ضحيت بنفسي فلست قادراً على تأدية حق حمد الله تعالى ورحمته وقدرته. وقلت له: أيها الشيخ، أنت تسألني عن قضية "يا شيخ... الخ"، ولكن يجب أن تسأل مشايخك أولاً فيما إذا كانوا يعتبرونه من أهل اللجنة بصورة قطعية أم لا؟ قال الشيخ: هذا صحيح تماماً. كان هناك كثير من المشايخ موجودين، فقالوا

بالإجماع بأننا لا نعتبر أحدا من أهل الجنة بصورة قطعية إلا العشرة المبشرين. فقلت لشيخ الطريقة: إنهم لا يعتبرون جدك من أهل الجنة أصلا - علما أن شيخ الطريقة كان من نسل عبد القادر الجيلاني - فما بالك بورّد "شيئا لله"؟ فقال شيخ الطريقة في قلق وحيرة: أيها المشايخ، ما هذا الذي تفعلون؟

فبطل هذا السحر على أية حال، ووقع الشيخ في الفخ الذي نصبه هو. فقال لي: دعك من هؤلاء الناس وأخبرني عن رأيك أنت. قلت: لقد ورد في صحيح البخاري بأن الشيخ سيد عبد القادر الجيلاني من أهل الجنة حتما، بمعنى أنه قد ورد في البخاري أن جنازة مرت بالنبي ﷺ فأثنوا عليه خيرا، فقال: وجبت. ولما سئل ﷺ عن المراد من ذلك قال ما معناه، من أثنى عليه الناس وجبت له الجنة. وفيما يتعلق بالشيخ عبد القادر الجيلاني فإن ألوفاً من الناس قد أثنوا عليه حسب معلوماتي لذا أراه من أهل الجنة بصورة قاطعة بحسب الحديث المذكور.

فسكت المشايخ كلهم لدى سماعهم جوابي هذا، ولم يتشجع أحد على النقاش. أما شيخ الطريقة فقد نسي القضية المحورية وأمسك بيدي وقال: "لقد عرفت الحقيقة، يمكنك أن تذهب إلى بيتك الآن."

فوصلت إلى بيتي بسلام شاكرا فضل الله تعالى، والسحر الذي كان شيخ الطريقة يريد أن يطلقه عليّ قد بطل تلقائيا بفضل الله تعالى، فالحمد لله على ذلك. وكذلك اجتمع المشايخ مرة للمناظرة في المسجد الذي بناه "شير شاه" وبعد تبادل الحديث حول مواضيع شتى قلت لهم: تقرر إنكم ترون دعوة الأولياء شركا، فإذا كان أحد من العلماء قال ذلك فهل سوف تسلّمون بالأمر بلا نقاش، فقد

استصدرت هذا الإقرار الموثق من عدة مشايخ. وفي اليوم التالي أخذت معي "التفسير العزيزي" أيضا من أجل الاستشهاد به ولكن المشايخ كانوا ينوون شيئا آخر، لذا فقد قاموا بالرد والرفض رغم قراءتهم المقتبس بهذا الخصوص في الكتاب المذكور. فأدركت من القرائن أن الاجتماع في الحقيقة كان مؤامرة مدبرة من أجل نشر الفساد وإلحاق الضرر بي، إذ إن الموظف الحكومي الهندوسي أيضا كان يوافقهم الرأي وقام بتهديدي أيضا. فتوكلت على الله وضغطت بإبهامي وسبّاتي على حبل الوريد للموظف حتى انطلقتُ منه صرخة عفوية وسقط مغشيا عليه. وحين أدرك مدير المخفر أن صاحبه قد قُتل خطر بباله أنهما لم يسجلا خروجهما قبل مجيئهما إلى هناك في سجل التحركات بصورة رسمية، فلو علمت الجهات العليا بهذا الحادث فماذا عسى أن يكون الجواب؟ فانطلق إلى المخفر فوراً مع رجال الشرطة. ومن ناحية ثانية فإن إغماء الموظف الحكومي ورحيل مدير المخفر ترك على الناس تأثيراً بحيث أصبح المسجد خلواً من الناس في طرفة عين ولم يبق فيه إلا أنا والموظف الحكومي المغشي عليه واسمه "رام داس". وحين أفاق بعد قليل كان وجهه مصفراً ولونه شاحبا، فخاطبني بكثير من التواضع بصوت يعلوه الذعر وقال: يا سيدي أنا لست معاديا لك - ظنا منه بأني قد أقتله بسبب العداوة الدينية- ولكني حملته بكل محبة وتودد وضممته إلى صدري، إلا أن ذلك أيضا لم يساعد على زوال الشك والذعر من قلب الموظف. فلففت ذراعي حوله وخرجت به من المسجد. وعندما وصلنا قرب المدينة بدأ الموظف يتنفس الصعداء وعاد لونه إلى طبيعته بعد فترة وجيزة وقال لي: هل تسمح لي الآن أن أعود إلى مكنتي؟ فقلت له: نعم يمكنك أن تذهب.

ومما يدل على نبهته أنه احترمني احترامًا صادقًا إلى آخر لحظة في حياته، وكذلك ابنه "فتح تشند"، ولم يذكر هذا الحادث قط. وكفى الله المؤمنين القتال.

وكذلك رأيت مناظرة من المناظرات الغربية في بلدي حيث دُعيت للمناظرة، فلما وصلت إلى موقع المناظرة رأيت ميدانا واسعا قد وضعت فيه أسرة كثيرة وعليها كتب منشورة، فرأيت الكتب موضوعة من بعيد، لقد هُيئت الكتب بكثرة إذ غطت ذلك الميدان الواسع، فسألت المشرف على المناظرة ما القصة؟ فتبين لي أن كل هذه الكتب تدحض الحديث القائل برفع اليدين. فتعجبت كثيرا من ذلك إذ كان يمكن أن يمحضوا هذا الحديث بمجرد أقوال عدد من المحدثين والفقهاء، فما الفائدة من نثر الكتب الكثيرة على هذا النحو؟ دخلت أولا الغرفة التي كانت ستعقد فيها المناظرة، فسألت الشيخ ما قصة هذه الكتب؟ ثم ألقى الله في روعي أمرا سهلا، ودفعني إليه كتاب بعنوان: "معمولات مظهرية"، كان عندي، فسألت الشيخ: لنفترض أنه لو وُجد في كتاب "معمولات مظهرية" - وهو يحتوي على ملفوظات شيوخ طريقتك - شيء ينافي ما ورد في هذه الكتب، فهل أنت تارك شيخ طريقتك؟ قال: إنه شيخ طريقتنا فقط وليس مرشدنا الديني. قلت له: هل يمكن له أن يبقى شيخ طريقتك رغم مخالفته لأوامر الشريعة؟ قال: نعم. فقال المشرف على المناظرة الذي كان رجلا ماديا وكان ذكيا قد أدرك الحقيقة، فقال لي: لقد أصبت الحقيقة، فهؤلاء لا يستطيعون أن يبارزوك في المناظرة قط.

عندها امتطيت فرسي لأخرج من القرية، ولم أذهب إلا إلى مسافة بضع خطوات حتى جاءني رجل يسعى وسألني ممسكا زمام حصاني: هل تعرف مصدر

صوت الطبل هذا؟ قلت: لا. قال الرجل: إن فلانا أمر بضرب الطبول احتفالا بفشلك في المناظرة. فاستغربت كثيرا وهمزت فرسي وعدت إلى المكان نفسه على جناح السرعة، وقلت لذلك الشيخ: كنت تقول من قبل بأنك قد أصبت الحقيقة بأنهم لا يستطيعون أن يبارزوك في المناظرة، فكيف ضُربت الآن طبول الانتصار؟ فكال ذلك الشخص سبابا فاحشا للذي كان يضرب الطبل ومنعه من ذلك. لقد هددت ذلك الرجل المادي قائلا: إذا كان المرء يمكن أن ينتصر بهذا الأسلوب فيمكن أن يستعد معارضوك لقتلك بكل سهولة، فأنت لم تتدبر ولم تمنع النظر، فمن الغريب أن تعقد المناظرة الخطية والشفهية ثم تحسب نفسك محفوظا من هذه الفتن. ومن هناك انتقلت إلى مكان آمن جدا، وبعد مناظرة قصيرة خطيا أوقف الشيخ صاحب الكتب المناظرة، كنت أعرف أنهم كانوا يعيدون عن المناظرات، كنت أعدهم نجباء وصالحين جدا، لكنني إلى الآن أستغرب كلمته حيث قال: لم تكن في هذا البلد أي مناظرات دينية، وإن شيخ هذه القرية سبب الفرقة، ومعلوم أن مفرق الجماعة ملعون، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فارتجفتُ بسماع هذه الكلمة، وتبين لي أن النجيب أيضا يتجاوز الحدود في حال الثورة والغضب. لقد لاحظت أمرا غريبا في مسجدٍ وهو أن شيخا صالحا كان يذمّني كثيرا، فذهبت أنا أيضا إلى هناك وجلست في المجلس، فلم يرني، ومن ثم ظل مشغولا في عمله، وكنت أعرف أنه في الأمور المادية يحترمني إلى حد ما، فتحدثت مع شخص في المجلس لكي يسمع اللائم صوتي. فضُدم بسماع صوتي وقال بصورة عفوية: أنت أيضا جالس هنا؟ ثم استولت عليه الدهشة الشديدة. مما سبب لي الأسف، وقلت في نفسي من أي نوع هذا المخلوق؟

لقد حدث حادث مماثل إذ أخذ بعض الناس العهد من شيخ طريقة في مدينتي بأنه سيساعدهم على إخراجي من المدينة. ولما أفرغ المرشد ما في جعبته من كلمات نائية، ذهبْتُ لزيارته وقت الظهيرة، إذ يكون عادةً في هذا الوقت وحده، فقلت: لقد جئت لأسألك أمرا بسيطا عن هذا البستان المجاور لبيتك، فأنت من سكان "حجرة شاه مقيم" وهي بعيدة جدا من هنا، فكيف حصلت على هذا البستان في هذه المدينة؟ فهذا كل ما أريد أن أعرفه. قال الشيخ: إن جدك كان قد وهبها لجدي. قلت: هذا يعني أن عائلتنا أحسنت إليك على أية حال. ثم قال: كنتُ أنا وأخوك الأكبر نسكن معا في مكان واحد في لاهور، وكانت علاقتنا جيدة جدا. قلتُ: سمعت أنك شريك في مؤامرة إخراجي من المدينة؟ لعل هذا هو جزاء الإحسان! ولكن تذكّر أن مريديّ والمعتقدين بي على الأقل لن يسلموا عليك.

فعدت بعد هذا الحوار القصير، ولما ذهب إليه المشايخ مجتمعين بعد صلاة العصر وقدموا له فتوى لإخراجي من المدينة، قال لهم شيخ الطريقة مبتسما: إن باب الزهد عالٍ جدا. إن الهندوس والسيخ والمسيحيين والوهابيين كلهم معترفون بالزهد. قال المشايخ: قد قلت لنا البارحة أن نأتيك غدا لتخبرنا بخطة لإخراج نور الدين من المدينة، ولكنك اليوم تقول شيئا مختلفا تماما. قال الشيخ: هو من سلالة النبي ﷺ، لذا لا بد من مراعاته، وباب الفقر عال جدا والجميع يعترفون به. فبذل المشايخ قصارى جهدهم، ولكن شيخ الطريقة لم يقدر على أن يعض الطرف عن قولي "لن يسلموا عليك". ثم أرسل شيخ الطريقة شخصا إلي، وقال لي إن الشيخ سوف يمر أمام بابك، فحين يقترب

منك ينبغي أن تخرج من البيت لتقابله. فبحسب وعده مرَّ الشيخ وحده من هناك راكبا حصانه ولم يكن يرافقه أحد، فخرجت من البيت لمقابلته. فقال لي الشيخ: "أيها الفتى! لقد أنجزت تلك المهمة، لذا فأرجوك أن تقول لأتباعك أن يسلموا عليَّ على الأقل. قلت له: يا حضرة الشيخ: ما دمتُ أنا قد سلَّمْتُ عليك فلا بد أن يفعل ذلك أتباعي أيضا.

استشرت طبيبا في مدينة بميره بشأن فتح عيادة فيها، فقال: من الصعب جدا أن تجلب عيادتك هنا دخلا مناسباً لك. أنا أتقاضى من المرضى أجور العلاج، ومع ذلك لا يربو دخلي على خمس روبيات في هذه المدينة، أما أنت فإنك متعود على العلاج مجانا. والحجامون والعطارون أيضا سيخالفونك بسبب أسلوبك في العلاج، وذلك بالإضافة إلى معارضة المشايخ لك سلفا، ورغم ذلك فقد بدأتُ مزاوله مهنتي؛ حيث طلبت من تلميذي أن يعدَّ الكحل من المكونات الفلانية. ثم بعد العصر فحصت عين أحد فوصفت له ذلك الكحل، ثم طلبه الآخرون أيضا تقليدا به فأعطيهم، وهكذا كان ذلك إعلاني الأول. صباحا جاء الكثيرون وطلبوا الكحل، كان هذا المرض متفشيا في مدينتي بسبب الرطوبة الكثيرة، كما جاء المرضى المصابون بأمراض أخرى، فبذلك بارك الله في عملي وأحرزت النجاح الكبير بفضل الله.

رحلة عجيبة

هنا تعرضت لمشكلة أخرى وهي مع أن البيت الذي بدأت فيه العيادة كان واسعا ومناسبا للعيادة، إلا أنه بعد أيام قليلة من وفاة والدي المحترم قال لي أخي الأكبر - وكان قد أحسن إلي كثيرا فيما سبق - عن البيت: إن

شراءه وترميمه قد تم بمالي، لذا أرجوك أن تكتب لي فقط إن البيت ملك أخي. كنت جاهزا للتضحية بكل ما في وسعي من أجل أخي هذا، لذا لم أقصر على كتابة ذلك فقط بحسب رغبته، بل قلت أيضا لتلاميذي على الفور أن ينقلوا جميع الأدوية من البيت إلى حجرة المسجد الفلاني. لم أكن أملك المال آنذاك ولكني أحليت البيت لكي لا يتكدر صفو قلب أخي، فهو أستاذي ومريرٍ أيضا.

كنت في ذلك الوقت بحاجة ماسة إلى بيت مستقل، وكانت هناك قطعة أرض قريبة فارغة تملكها البلدية. فطلبت من بناء أن يبني فيها بيتا، وقلت لأحد الهندوس أن يهيئ النقود. وهكذا بدأ بناء البيت. ثم أرسل لي السيد منصب دار خان- الذي كان من سكان مدينة راولبندي وكان يعمل رئيسا للبلدية في مدينة بهيره- رسالة قال فيها: أولا: لا يجوز إنشاء البيت بدون إذن رسمي. وثانيا: إنشاء البيت على أرض حكومية يخالف القانون. لم أستطع أن أقول شيئا بسبب ما أكن لك من الاحترام، ولكن أحيطك علما أن موظفي البلدية أيضا لم يقولوا لك شيئا بسبب احترامهم لك غير أنهم قد حولوا القضية إلى نائب المفوض، الأمر الذي يؤدي إلى هدم البيت حتما.

لقد أبدى صديقي البناء أيضا الرأي نفسه، ولكن لما كان قلبي منشرجا أن البيت سوف يُبنى حتما، لذا فقد قلت له: استمر في عملك.

على أية حال، حين وصل التقرير إلى نائب المفوض كتب عليه بأني قادم إلى هناك قريبا وسأفحص الأمر بنفسي هناك. ثم جاء وفحص الأمر وقال: اتركوا البيت بقدر ما تم بناؤه وأوقفوا عملية البناء.

كنت موجودا عندئذ في بيت مجاور له، وإثر سماعي خبر مجيء نائب المفوض ذهبت إلى هناك، ولما وصلتُ كان نائب المفوض قد غادر وذهب بعيدا بعض الشيء. ولما رأوني قادمًا قال له -ربما أحد مصاحبيه- إن صاحب البيت قادم، فعاد نائب المفوض. وحين رأيته عائدا تيقنت أن القرار قد تغير. فخاطبني وقال: هل تعلم أن هذه الأرض ملك للحكومة؟ قلت: نعم، بل المدينة كلها ملك الحكومة. قال: وكيف ذلك؟ قلت: إذا اضطرت الحكومة لبناء ثكنات عسكرية على أراضي المدينة كلها فهل يسع أهلها أن يرفضوا ذلك؟ قال: كلا! لا يسعهم الرفض. قلت: وعليه فإن الأرض كلها ملك للحكومة. عندها قال نائب المفوض: حسنا! فما هي المساحة من الأرض الحكومية التي تحتاجها لبناء بيتك؟ قلت: هناك شارعان على جانبي قطعة الأرض هذه، ويمكن بناء البيت في قطعة تتوسط الشارعين. قال: حسنا، ولكن يجب أن تحدد تلك الأرض الآن، ففعلتُ. ثم سألت نائب المفوض رجال البلدية فيما إذا كان لديهم أي اعتراض. فقالوا: إن بيته يكون نافعا للناس عامة، فلا اعتراض لنا عليه. ثم قال لي: طيب، استمر في بناء البيت. وحين ذهب نائب المفوض جاءني رئيس البلدية وقال: إن هذا القرار شأنه شأن قرارات كانت تصدر أيام حكم الشيخ، لأن نائب المفوض أيضا ليس مخولا ليهب أحدا أرضًا حكومية هكذا. قلت له: اسكت أنت. ثم عاد نائب المفوض بعد أن كان قد قطع مسافة طويلة وقال لي: بجانب الشارع هناك جدول للمياه الآسنة وسوف يسبب لك إزعاجا كثيرا. قلت: سمعتُ أن الإنجليز يملكون من الذكاء قدرا كبيرا، لذا أرجو أن تخبرني أنت بالحل. قال: لقد بدرتُ إلى ذهني خطة أن تبني البلدية أساسا قويا

للبيت من قبل الحكومة. ثم سأل رجال البلدية مرة أخرى فيما إذا كان لديهم أي اعتراض على ذلك. قالوا: لا. فقال لي رئيس البلدية: لقد وقعت علينا غرامة إضافية بقدر ألف روبية! قلت له: أتى لك أن تفهم كنه هذه الأمور؟

عندما تم إنفاق ١٢٠٠ روبية على البيت خطر ببالي أن الهندوسي يمكن أن يطلب نقوده في أي وقت. وبينما تنتابني هذه الأفكار جاءني صديقي فتح خان المحترم ممتطياً جواده وقال: كنت مسافراً إلى راولبندي لأن اللورد "التن" سيعقد جلسة عامة في دهلي. وقد دُعي الزعماء الكبار إلى دهلي، أما الذين دونهم فسيجتمعون في راولبندي، وتكون هناك جلسة عامة ماثلة في الأيام نفسها. وأنا قد دُعيْتُ إلى راولبندي. همست في أذنه أنني أيضاً أنوي الاشتراك في الجلسة. قال: ها هو الجواد فاركنه. كان المرضى جالسين عندي، ولكنني ركبت الجواد وسافرت على الفور دون أن أخبر أهل بيتي أيضاً. حين وصلنا - أنا وفتح خان - إلى مدينة جهلم، سافر "فتح خان" إلى راولبندي بالقطار، وقلت له بأني مسافر إلى دهلي. كانت ثيابي متسخة بسبب السفر، فاستبدلت بها سروالا وعمامة ومعطفاً للسيد حاكم خان، رئيس البلدية في مدينة جهلم، بدون قميص تحت المعطف. فخرجت للتنزه ورحت أتمشى حتى وصلت إلى محطة القطار في جهلم.

في المحطة استفسرت عن ثمن التذكرة للسفر إلى لاهور في الدرجة الثالثة في القطار؟ فتبين لي أنه أقل بقليل من روبية واحدة. أدخلتُ يدي في جيب المعطف فوجدت فيه المبلغ المطلوب بالتحديد، فاشتريت التذكرة ووصلت إلى لاهور. كان هناك ازدحام كبير لأن الناس كانوا مسافرين إلى دهلي بكثرة بسبب

الجلسة العامة هناك، حتى إن الحصول على التذكرة أيضا كان متعذرا. ومن ناحية ثانية لم يكن لدي أية نقود. فلقيني قسٌ كانت بيني وبينه معرفة بسيطة بسبب استشارته إياي عن مرض معين، فسألني: إلى أين سفرك، والحصول على التذكرة أمر متعذر؟ قلت: أنا مسافر إلى دلهي. قال القس كولاك ناث: سوف أدبر لك التذكرة. فذهب وعاد مسرعا بتذكرة إلى دلهي. ولما أدخلت يدي في جيب المعطف قال القس: أرجو ألا تهينني هكذا، وأرجو المعذرة، فلن آخذ ثمن التذكرة قط، ثم أنا أيضا مسافر إلى دلهي، فسوف يرى أحدنا الآخر أثناء السفر. فظلت أبحث عنه أثناء السفر ولكني لم أعثر عليه ولم أجد له أي أثر في محطة القطار في دلهي أيضا رغم بحثي الكثير عنه.

حين نزلت في المحطة كان الوقت عصرا، فمشيت رويدا رويدا في الشارع حيث نُصبت خيم الزعماء، حتى مشيت مسافة خمسة أميال تقريبا. وحينها كان الوقت قد أوشك على الغروب، فأردت العودة. ففي هذه الأثناء جاءني خادم السيد المنشي جمال الدين رحمه الله مهرولا وقال: حضرة المنشي يدعوك. قلت: الوقت الآن ضيق جدا، لذا سوف أحضر غدا بإذن الله. قال: إنه يدعوك بإصرار شديد. قلت مرة ثانية بأني سأحضر غدا. فقال: إن خيمته ليست ببعيدة، فأرجو أن تعتذر إليه بنفسك. حين ذهبت إليه استقبلني بحفاوة كبيرة كعادته وقال: إن حفيدي "محمد عمر" مريض فأرجو أن تفحصه. قلت: سوف أحضر غدا وأفحصه. قال: أرجو أن تبيت هنا وسنذهب إلى بيتك غدا. فنُصبت لي خيمة مريحة ووثيرة منفصلة. ولما كان اليوم التالي هو يوم جمعة فأمر رحمه الله -لأنه كان قد منعني من الذهاب إلى

بيتي - بتجهيز ثياب جديدة لي، فصارت جاهزة قبل أن ينقضي الليل، فلبستها في اليوم التالي. ولما حانت صلاة الجمعة ذهبنا معًا إلى الجامع وصلينا هناك. نزل المنشي جمال الدين رحمه الله من الأدرج حيث يوجد قبر شيخنا، شيخ المشايخ، حضرة مظهر جان جانان رحمه الله. كانت عرباته موجودة في المكان نفسه، فقال لي: أين بيتك؟ فتحيرت من أمري حيرة ما بعدها حيرة. رأيت أمامي زقاقا ضيقا فقلت مشيرا إليه بصورة عفوية: في هذا الاتجاه. قال: إن عربتنا لا يمكن أن تمر من هناك. ثم أرسل معي خادمين له وطلب منهما أن يُحضرا الأمتعة.

وصلت معهما إلى ذلك الزقاق، وظللتُ أمشي بدون هدف، حتى وقع نظري على منزل كان كثير من الناس يتوافدون إليه جيئةً وذهابا. فدخلته أيضا بدون أدنى تردد نظرا إلى تردد الناس إليه. وحين دخلنا البيت وجدت باحة واسعة في الطابق الأسفل، والناس يصعدون إلى الطابق العلوي عن طريق الأدرج. فأجلست الخادمين في الباحة وصعدت إلى الطابق العلوي بدون تردد، ولم يخطر ببالي ولا للحظة ما هذا البيت ومن يملكه. وكأن يد قدرة الله أخذت بي إلى الطابق العلوي، حيث كان كثير من الناس جالسين، فتوجهت أنا أيضا إليهم ولم أعرف إلا واحدا منهم وهو المدعو "عبيد الله" مؤلف كتاب: "تحفة الهند" وهو من سكان مدينة "بنت". فسُرَّ كثيرا برؤيتي وقال: إن مجيئك مبارك لي جدا. إن معي بعضا من الشباب المسلمين الجدد، وأنا قلق وأفكر أين أسكنهم، ولا يمكن العثور على شخص أنسب منك لحل هذه المشكلة، فخذهم معك. وإنني على يقين بأنك ستستضيفهم بلطف ومحبة. وكان ضمن

هؤلاء المسلمين الجدد صديقنا "هدايت الله" وكان وقتها صغير السن. قلت: نعم! أنا جاهز لخدمتهم بكل سرور. أنا ذاهب إلى بيتي فأرسلهم معي. قال المولوي عبيد الله بأن معهم فُرْشهم وأمتعة ضرورية أخرى أيضا. قلت: إن رجالي - أي خدامي ومساعدتي - موجودون في الأسفل وسيحملون كل هذه الأشياء، فسَلِّموا إليهم. حمل المساعدون الأمتعة ووصلنا بسهولة سالمين إلى حضرة المنشي المحترم. فسُر بذلك وشكرنا كثيرا، وحملنا على العربات إلى المخيم. قلت: لا أستطيع أن أقيم عندكم إلا أياما قلائل. أما حفيدك محمد عمر فهو مصاب بورم لن يزول إلا بعد فترة طويلة. ومن ناحية ثانية أنا لم أخبر أهل بيتي أيضا قبل المجيء إلى هنا.

قال: لا بد أن تمكث هنا، وأرسل إلى أهل بيتك نقودا قدرها ٥٠٠ روبية. فقلقتُ بذلك وقلت في نفسي إني كنت قد خرجت من البيت وكان عليّ دينٌ قدره ١٢٠٠ روبية ولكنه يدفع لي ٥٠٠ روبية فقط، فلعل هذا ليس بمكان مناسب يجب عليّ الذهاب إليه. على أية حال أرسلت تلك النقود للهندوسي الذي كان يبني البيت وكتبْتُ إلى أهل بيتي ليطمئنوا. ثم بعد بضعة أيام أعطاني حضرة المنشي ٧٠٠ روبية أخرى وقال: أرجو أن ترافقني إلى مدينة بهوبال في كل الأحوال. قلت في نفسي: قد تم تسديد الدين المستحق عليّ على الأقل، والآن يمكنني أن أذهب حيثما أشاء.

مرة أخرى في بهوبال

وصلت برفقة المنشي المحترم إلى بهوبال حيث حدد لي مبلغا شهريا من عنده ومن خزينة الحكومة أيضا وقال لي يمكنك أن تأخذ من المرضى أجره الفحص

والعلاج أيضا. لقد استرحتُ هناك كثيرا، وكان ذلك بسبب ذهابي إلى بهوبال مرة ثانية، وإلى الآن أدعو لحضرة المنشي كثيرا.

مرة واجهت ابتلاء شديدا في بهوبال؛ وتفصيل ذلك أن "محمد عمر" حفيد المنشي المحترم حين كان قيّد العلاج على يدي، أخذ زجاجةً فيها دواء مسهل، وقال لي: ها أنا شاربه. فقلت له: إنه سمٌّ خطير؛ فحذار أن تهلك وتهلك معك. ولكنه لم يكثر نصيحتي، وشرب بضع قطرات منه. فقلقت كثيرا، ولكن لم يكن هناك ما يمكن فعله. فجرت على لساني بصورة عفوية كلمات: "فِعِلْ مَا قُدِّرَ". وبعد قليل ساءت حالته كثيرا، فلما كان ابنَ زوجة السيد نواب صديق حسن خان، فقد اجتمع الناس حوله وكثير من الأطباء والمعالجين حوله، ودُعيتُ أنا أيضا. فلم يعترف محمد عمر أنه كان قد أصرَّ على شربه ومسؤولية فعلته هذه تقع عليه وحده وأن لا دخل لي في ذلك قط، ولم أكشف أنا أيضا حقيقة الأمر. كنت قد أخذت معي دواءً شعيبيا وقلت فور وصولي عند المريض بأن يُعطى هذا الدواء فوراً. لقد قلقتُ أم المريض إلى حد لا يصدّق حتى هددتني أيضا، وشاع خبر تهديدها كثيرا. ولكنني عدتُ إلى بيتي مطمئناً لأن الدواء كان قد نفعه كثيرا.

رأيت شابة جاءت بكثير من الحلبي من الذهب والأقمشة، وتركتُ الحقيبة وانصرفت فوراً بدون أن تنبس بكلمة واحدة. فقلت للمنشي "هدايت الله": تحرَّ أمر هذه السيدة وهذه الحقيبة فحين فتحها وجدها مليئة بالأقمشة الثمينة والحلي الذهبية، فقلقتُ جدا وقلت في نفسي: لم تنحل القضية الأولى بعد (أي قضية تهديد أم المريض)، فهل هناك تخطيط لإثارة قضية أخرى؟

ثم جاءت بعد قليل سيدة أخرى يمثلها من الأشياء وتركته عندي وذهبت لحالها. فقلت للمنشي هدايت الله أن يتحرى من هاتان السيدتان وما شأنهما، فتبعها، فتبين له أن السيدتين، كانتا قد جاءتا من بيت أبي أحمد المجددي. ثم بعد برهة جاء حضرة البير نفسه وقال بلهجة قاسية: لماذا ما زلت موجودا هنا؟ هناك فتنة كبيرة على وشك الانفجار قريبا، فتعال نذهب إلى بيتي. قلت: سوف يُشْفَى الولدُ بإذن الله ولن تكون هناك أي فتنة. فقال أبو أحمد بعد هنيهة: لا حاجة للبقاء هنا. ثم قال: ألم يرسل أهل بيتي الحلبي؟ أعِدْ إليهم المال الذي أخذته منهم. عندها فقط علمت حقيقة الحلبي والأقمشة، والحق أني لم أستطع إلى الآن أن أحيط بحدود تقواه ورحابة صدره ونباهته وميزاته الأخرى قط. إن ذلك الوقت كان صعبا علي جدا بسبب التهديد. على كل حال قد شفي الولد بفضل الله تعالى. أما المعاملة التي عاملني بها الشيخ المحترم فليست مما أستطيع أن أجازيه عليها، بل الله تعالى سوف يجازيه عليها. أدعو الله تعالى أن يجزي حضرة البير وأولاده وزوجته أجرا حسنا كثيرا من عنده.

إن هذه القضية تشبه قضية أخرى حين رفع الأفغاني "كلن خان" سيفه على عبد القادر خان في مدينة رام بور، ولو بقي عبد القادر هناك لحظة واحدة لقتله كلن خان.

كذلك واجهت حادثا مماثلا في وطني حيث قدم لي "فتح خان ملك" مساعدة لا يستهان بها. وبيان ذلك أن الناس قاموا بإثارة الفساد ضدي في وطني بهيره، حتى أمر كبار الفريقين بدفع كفالات مالية. وجاء الحكم باسمي

أيضا رغم أنه لم تكن لي أية علاقة بالقضية، ولكن كان واجبا عليّ الذهاب إلى "سكيسر"، وهي مدينة سياحية وصحية في مقاطعة "شاه بور"، تقع على بُعد ستين ميلا من بهيره. وخطط معارضيّ من المشايخ لإيذائي؛ فنشروا في الطريق فتاوى ضدي تعرضت بسببها للمشاكل من حيث الأكل والشرب أثناء سفري الطويل. أحضرت حصانا سريع العدو وكان في بالي أني لو خرجت للسفر وقت العصر لوصلت إلى سكيسر صباح اليوم التالي. ولكني لم أقطع إلا مسافة تسعة أميال فقط حتى رأيت في الشارع كثيرا من الناس حاملين العصي خارج قرية "جكرم داس". وحين وصلت بالقرب منهم تبين لي أن "فتح خان ملك" ينتظرنني مع خدامه. وبعد السفر طول الليل في صحبة فتح خان وصلت إلى ثكنات عسكرية في مدينة شاه بور عند طلوع الفجر، حيث حضر للقائني جميع الموظفين صغارا وكبارا. فمكثت هناك يوما أو يومين. وحين وصلت إلى مدينة "خوشاب" التي كانت تقع على بعد ستة أميال في الجانب الآخر من نهر "جهلم" جاء لزيارتي السيد "فضل كريم شيخ" نائب رئيس البلدية مع لفييف من أشرف المدينة. فبقيت هناك يومين أو ثلاثة أيام. وحين بدأت السفر من هناك إلى مدينة سكيسر، قدم لي شخص قُرشي قدحا مليئا بالحليب. ولكني اعتذرت عن شربه لأن هضمه في تلك الأيام كان متعسرا بالنسبة لي. فقال هذا الشخص مظهرا أسفا شديدا: إذا جاءك للعلاج مريض لا يقدر على هضم الحليب فماذا تفعل؟ فترك كلامه هذا أثرا كبيرا في طبيعتي، فأخذت القدح وشربت الحليب حتى اكتفيت. ولكني كنت على يقين بأنني لن أقدر على هضمه، فأصببت بإسهال أصفر اللون بعد فترة قصيرة، ثم تحسنت حالتي كثيرا.

وإثر وصولي إلى سكيسر دخلت المصيف، مكان إقامتي، وإذ به سرير مفروش بفراش وثير، والشيخ السيد فتح خان جالس على البساط بالقرب من السرير. فالتمس فتح خان مني أن أجلس على السرير. فاعتذرت من ذلك بناء على إخلاص فتح خان وكونه أكبر مني سنًا، غير أنني اضطررت للجلوس عليه نزولاً على رغبة فتح خان الشديدة. ثم بعد هنيهة رأيت شخصاً يدخل الغرفة والغضبُ الشديد بادٍ على وجهه. ولكنه حالما رأى فتح خان ملك زالت ثورته تماماً، بل خضع أمامه ليلمس ركبته بحسب العادة السائدة في المنطقة. قال فتح خان: لا حاجة لتلمس ركبتي أنا بل يجب أن تلمس قدمي شيخنا. فتقدم الرجل إليّ وقام بأداء واجبات الأدب والاحترام. ثم جاء السيد ميان سلطان علي عمدة مدينة "ميانوالي"، فأمره أيضاً فتح خان ملك بالخضوع أمامي وقال لي مشيراً إلى هذا الشخص: إنه بمنزلة ابني، فأرجو أن تسدي له بعض النصائح. فبسماعه نصائحي وقف سلطان علي احتراماً وقال: مُرّني بشيء. وبما أنه كان قد حضر قضية متعلقة بالمولوي عبد الله الجكرالوي وكانت نيته سيئة، لذا فقد قلت له: اذهب الآن، هذا هو الأمر.

لا يسعني أنا وأولادي أن ننسى منّة الشيخ أبي أحمد. هذا الشيخ أبو أحمد هو ابن الشاه عبد الرؤوف. فكانت لي علاقات مهنية في مجال الطب بالملك المحترم. أما هذا الشيخ فلم تكن لي أي علاقة به من هذا القبيل، وإنما كانت منته فقط. والأجر على الله.

وكان قد أحسن إليّ كثيراً وقدم لي مساعدة كبيرة في أيام التلمذة من دون وجود أية علاقة بيننا. إنني أدعو له دائماً مقابل كل ذلك.

بهيره

في مدينة بهيره جاء إليّ شخص وقال: هناك مسجد لا توجد فيه بئر وأريد أن أحفر بئرا في باحته، فلما كان شيخا تعجبت أنه كيف يهتم بأمر المصلحة العامة، فذهبت معه إلى ذلك الحي، وقلت لأهل الحي أهنيكم على أن الله ﷻ قد ألقى في قلب هذا الرجل أن يحفر بئرا في حيّكم، فعليكم أن تقبلوا ذلك لأنكم تواجهون مشكلة في جلب المياه من بعيد، وإحضار الماء تمر بناتكم وكنائكم الشابات من السوق، أما بعد حفر البئر فستزول المصائب من وراء ذلك أيضا، فلم يبال مختار الحي بوجهتي ولم يستح في قلبه، فقال لي دون تردد: أيها المولوي المحترم، في جسم الإنسان فرج يمتلىء بالبراز، وكذلك إن حيناً هو فرج مدينة بهيره، لذا يجب أن تكون فينا كل أنواع الرذيلة والخبث، أما قولك بأن بناتنا وكنائنا يمررن من السوق لجلب الماء فهن لسن أكرم من أمهاتنا وجداتنا اللاتي ظللن يجلبن الماء. فانصرفت من هناك، وكنت واثقا بأن الله لن يضيع جهدي هذا. بعد ذلك تبين لي أن ذلك الشيخ كان يتمنى أن يكون في ذلك المسجد إماما، وكان يريد أن يحفر البئر لكي يفوز بالإمامة. ثم بعد بضعة أيام شقّت البلدية المحلية شارعاً عامّاً أمام بيوتهم، وبالتالي لم تبق لبيوتهم أية باحة. وكان يقيم في ذلك الحي صنّاع المراوح، فتألّموا كثيرا، أما الأرض الموجودة في الجانب الآخر من الشارع فتسلط عليها الهندوس. فقال الجميع لمختار الحي أن هناك سبيلا وحيدا وهو أن نور الدين إذا ساعدك فهو يستطيع أن يعيد لك الأرض، فجاء إليّ ذلك المختار - الذي كان من أول المعارضين لحفر البئر - مهرولا وقال: تعال يا سيدي وضّع بيدك لبنة الأساس لهذا البئر. فاستغربت

كثيرا بطبيعة الحال لهذا التغير الحادث فيه فقلت له أخبرني بصراحة؛ ما الأمر إذ كنت تعارض جدا حفر البئر والآن تطلب ذلك مني بنفسك؟ فقال يا سيدي كيف يمكن أن نعيش من دون تنفيذ أمرك، على كل حال ودعته آنذاك، وطلبت الشيخ المذكور لمعرفة الحقيقة. فأخبرني الشيخ أن الهندوس قد استولوا على الأرض الواقعة في الجانب الآخر من الشارع، فما لم تأمرهم أنت - والهندوس يحترمونك كثيرا- لا يمكن حفر البئر في أي مكان، كما لن يعيدوا الهندوس الأرض إلى أصحابها. كان الهندوس يحترموني كثيرا فقلت لهم أن يعيدوا إليهم نصف تلك الأرض حتى يحفروا فيها بئرا. قبل الهندوس اقتراحي فورا، وهكذا تم حفر البئر ونال الشيخ إمامة المسجد أيضا. عندها تبين لي أن كل هذا السعي من قبل الشيخ لم يكن ناتجا عن نيته للحصول على الثواب بل كان من أجل تولي منصب الإمام في المسجد. فلما كانت نية الشيخ مشوبة بالمادية لذا تأخر العمل لهذا الحد.

في مهنة الطب عرضني الله ﷻ مرتين لموقف محرج جدا ليعلمني التوحيد، وفي كلا الحادثين أخرج الله من قلبي الاعتماد على المخلوق نهائيا. الحادث الأول هو أن شخصا غنيا جدا أصيب بالتيفوئيد، فبذلتُ قصارى جهدي في علاجه. وكنت على يقين أنه سوف يتمثل إلى الشفاء في اليوم السابع من إصابته. فأصابه اضطراب شديد بدءًا من مساء اليوم السابع، واستبشرت به خيرا. أما أهل بيته فكانوا يجهلون هذا العلم. لذا فقد استدعوا في المساء من مدينة "بند دادنخان" طبيبا اسمه "حكيم كرم علي"، فوصل إليهم في الهزيع الأخير من الليل. كان الطبيب حاذقا فتيقن في أول وهلة أن أعراض المريض

أخذة في الزوال، والتحسن ظاهر قريبا. فأعطاه دواءً آخر مع ما كنت قد وصفته له من قبل، وكان موجودا عند المريض سلفا. فنظر الطبيب إليّ وضحك وقال لأهل البيت: إن هذه الحمى بسيطة وستزول الآن بدوائي هذا. وظنّ أهل البيت أن هذا الطبيب يملك ترياقاً، وإلا فإن نور الدين قد بذل قصارى جهده منذ ستة أيام ولكن بدون أدنى فائدة، ولا سيما أن ليلة البارحة كانت صعبة جدا. ثم طلب الطبيب منهم جائزة كبيرة جدا بعد تحسن المريض. أما أنا فقد نلتُ الجائزة القائلة: لا تعتمد ولا تتوكل على المخلوق، فالحمد لله رب العالمين.

الحادث الثاني هو أنه كان لي صديق يبلغ من العمر ثمانين سنة تقريبا، وكان يعاملني بلطف كبير دائما. رغبته كثيرا في الزواج ولكنه كان يتردد في ذلك دائما، وكان يحترمني كثيرا أيضا. وأخيرا قال لي: إني لا أجد في نفسي قوة جنسية. غير أنني كنت أرى أنه لو تزوج من عذراء لوجد هذه النزعة والرغبة. وأعطيته ظاهريا وصفة مركبة من بعض الأدوية، ثم تزوج. ومن عجائب قدر الله أن زوجته حملت وأنجبت له بنتا، فسُرّ بذلك كثيرا. ولما كان صاحب ثراء واسع لذا قلت له أن تُرضع البنتَ سيدهُ أخرى، ولكنه لم يرض بذلك. وفي السنة التالية حملت زوجته مرة أخرى، وأنجبت صبيا سماه "محمد حياة" ويعمل الآن بفضل الله نائبًا للمفوض، ويلقبني دائما بلقب "العم".

بارك الله في عمره بركات كثيرة فإنه تذكّر لصديق عزيز إليّ جدا. كان دخلي من مهنة الطب في تلك الأيام قليلا فكنت أنا وزوجتي أيضا نتعرض لبعض المشاكل من هذه الناحية. فعندما وُلد له صبي أرسل لي بعضَ الناس ليقدموا لي التهنئة. وكانت حالتي المادية وقتها ضعيفة جدا، غير أنه كان علي أن

أعطي القادمين شيئاً على أية حال. ثم ذهبت مرة إلى ثكنة عسكرية في مدينة "شاه بور" وتلقيت بعض النقود من هناك. ثم ذهبت إلى قريته (أي قرية صديقي المذكور آنفاً) باعتبار أنه لم يقدم لي أية مساعدة مالية. فجمع عدداً كبيراً من الصغار الذين كان سنهم في حدود سن ابنه تقريباً، وقال للجميع أن يسلموا عليّ. ولما لم أجد في جيبي من النقود ما يكفي لتوزيعه على الفتيان أعطيت لابنه كل ما كان في جيبي. فاستبشر بذلك خيراً بأن هذا الابن سيكون غنياً والآخرين كلهم يكونون محتاجين إليه، ثم طلب من ابنه أن يوزع النقود عليهم بيده. ولما وصلت إلى البيت قال صديق لي - واسمه حكيم فضل الدين، اللهم اغفر له وارحمه، والذي كان مهتماً براحتي كثيراً وكان عاكفاً على تقديم شتى أنواع المساعدة - إن هذا الشخص بخيل جداً، فلن يعطي شيئاً هكذا. فالأفضل أن ترسل لابنه لباساً جديداً، فقد يدفع لك بعض النقود كتمن اللباس. ومع ذلك لم يدفع أي شيء بل احتفظ باللباس دون أن يدفع ثمنه أيضاً، واستبشر هذا الصديق الغني خيراً بالنظر إلى كون اللباس فضفاضاً بأن الولد سوف يكبر، فاحتفظ باللباس لأيام شبابه.

عندما رجع من أخذ له اللباس قلت لحكيم فضل الدين: إن الله تعالى سمى المال فضلاً في القرآن الكريم، لذا فإنه لا يُنال إلا بفضل الله تعالى. وقد استفدت من هذا الحادث أنني لن أتوكل في المستقبل على المخلوق أبداً، وأن الله تعالى سوف يرزقني من خزائنه الخاصة. ولن أفكر في المستقبل أن أتقاضى من أحد ثمن الدواء. وهذا كان السبيل الأمثل للحصول على الثروة التي رزقتها اليوم، الحمد لله رب العالمين.

في تلك الأيام شُغفت باقتناء تاريخ ابن خلدون، وكان أحد التجار يبيعه بسبعين روية، فقلت له يمكن أن أدفع السعر بالأقساط، أما دفعة واحدة فلا أملك المبلغ حالياً، فلم يوافق التاجر على البيع بالتقسيط. ثم حين أتيت إلى عيادتي لصلاة الظهر وجدت الكتاب هناك. فسألت كثيراً عن من قد يكون قد ترك الكتاب في عيادتي، ولم أتمكن من معرفته، ولم أعثر بعد ذلك على التاجر أيضاً، وكنت أذكر الموضوع في العيادة بين حين وآخر وأستغرب من الذي جاء بهذا الكتاب دون أن يخبرني، فبعد فترة أخبرني أحد المرضى بأن شخصاً من الشيخ قد تركه هنا، وهو يعرفه بملاحه ولا يعرف اسمه، فهو يأتي إلى مكتب البلدية بين حين وآخر. وبعد أيام جاء بذلك السيخي. فسألته: لم وضعت الكتاب هنا هكذا، فقال: "مرة ذكر في مجلسكم أنكم لا تملكون نقوداً لشراء هذا الكتاب، فاشتريته مقابل سبعين روية وتركته هنا، واستلمت النقود من الرجل الغني فلان، الذي كان قد أوصاني من قبل بأنه كلما احتاج نور الدين إلى شيء يجب أن تؤمّنه له دون أن تسألني مهما كلف الأمر من النقود. فقد أنفقت المال بحسب توصيته واشتريت لك الكتاب." ولكنني كنت قد حصلت على النقود، فأعدت المبلغ إلى ذلك الغني بسرعة، إذ وصل إليه مندوبي ظهرها فاستلم منه المبلغ بغضب وحزن شديدين، ولم يقدم لمندوبي الطعام أيضاً، ثم دعا أخي الأكبر فاشتكاني إليه، قائلاً: إني كنت أريد أن أقدم أي هدية لنور الدين ولم أجد أي هدية مناسبة، فقررت في نفسي أن أكون كُليّ له، وأمرت الخدم عندي أن ينفقوا المال دون تفكير وخوف كلما احتاج نور الدين إلى شيء، ولكنه أعاد إليّ السبعين روية هذه. فحزناً على ذلك كثيراً فما الحل الآن؟ فأخذ أخي تلك

النقود منه قائلًا سأفهم نور الدين، فحين عاد من عنده لآمني كثيرا وأخبرني أنه أخذ منه المبلغ، فكان المبلغ الوحيد الذي وصلنا، إلا أنه ما رافقتني استعادة النقود بقدر المسرة والسعادة التي نلناها بسبب التوكل على الله.

وفي الأيام نفسها أصيب شخص بفالج خطير وشفي نتيجة علاجي، مما أدى إلى ذبوع صيتي بشكل غير عادي في مناطق حول مدينة بهيره. ثم حدث أن أصيب جاره "متهر داس" بالسل، وكان يعمل في قسم الشرطة في مدينة "جامون"، وجاء إلي للعلاج. وقد رزقني الله تعالى نجاحاً باهراً في علاجه أيضاً. وفي هذه الأثناء مرّ الديوان "كربارام"، رئيس الوزراء في جامون من مدينة "بند دادنخان"، فتناهى صيتي إلى أذنيه أيضاً. وبعد عودته ذكرني هو والديوان "متهر داس" كلاهما عند حكومة جامون، مما أدى إلى ترسيخ مكانتي في قلب حاكم كشمير.

في تلك الأيام علمت عن أرملة كنت معجبا بها لأسباب مختلفة، فخطبتهافرضيت. ولكن لما كان الناس في البلاد لا ينظرون إلى نكاح الأرمال باحترام، لذا اقترحت السيدة أن يُعقد القران أولاً ولسوف يرضى بذلك أولياؤها أيضا بعد أيام قليلة. لكنني اعتبرت أولياءها معزولين لمعارضتهم نكاح الأرملة مخالفين بذلك حكم الشريعة، وتشجعت على عقد القران. وقبل أن تصل السيدة إلى بيتي رأيت رسولَ الله ﷺ في الرؤيا -وقد اصفر وجهه الكريم- مستلقيا على الأرض وقد حلق لحيته. فبرؤيتي رسولَ الله ﷺ في هذه الحالة انتبهت إلى أن هذا النكاح قد عُقد بخلاف سنته الطاهرة. فكتبت رسالة إلى السيد نذير حسين الدهلوي والأخرى إلى الشيخ محمد حسين البطالوي أسألها ما هي

الفتوى، وكتبت أنها بالغةٌ ووليها يمانع في نكاحها؟ فجاءني الجواب من أحدهما -لا أتذكر أيهما كان- بأن الولي مثله يُعزَل وبإمكان الأرملة أن تُنكح باختيارها، لأن هناك كلاما في الحديث القائل: "لا نكاح إلا بولي".

فهذا الجواب كان منسجما تماما مع ما كنت أريد، لذا قد فرحت كثيرا فنهضت فورا لآتي بها إلى البيت. ولكن لم أصل إلا إلى باب غرفة الاستقبال حتى جاءني شخص بكتاب الحديث وأخرج النص كما يلي: "الإثم ما حاك في صدرك ولو أفتاك المفتون" وطلب مني أن أشرح له هذا الحديث.

فبمجرد النظر إلى هذا الحديث شعرت وكأن جسمي قد تحدّر تماما، وقلْتُ له: انصرف الآن، وسوف أشرح لك فيما بعد.

فحسبْتُ هذا الحادث بمنزلة تنبيه من الله إلى ألا أتكل على فتوى المفتي. فأغلقت الباب فدخلت إلى الشرفة، فكنت سابقا أفكر أنه من ناحية هناك كلام في هذا الحديث، ثم قد أفتى المفتي أيضا ضده. باختصار؛ حين جلست في الشرفة استولى عليَّ نوم غير طبيعي ورأيت في المنام سيدنا رسول الله ﷺ، وعمره يبدو قرب خمس وعشرين سنة -أي في عمر زواجه- ولحيته خفيفة في الجانب الأيسر، وطويلة الشعر في الجانب الأيمن وأنا جالس عند حضرته. فخطر ببالي أنه لو كان الشعر متساويا في كلا الجانبين لكان منظره أجمل. ثم تبادرت دفعة واحدة إلى ذهني فكرة أن هذا الفرق ناجم عن ترددي في الحديث قيد البحث. فقلت في نفسي بأنه لو اعتبر العالم كله هذا الحديث ضعيفا سوف اعتبره أنا صحيحا. فبمجرد هذه المبادرة رأيت لحية رسول الله ﷺ قد أصبحت متساوية في كلا الجانبين وابتسم النبي ﷺ، وقال لي: هل ترغب في زيارة كشمير؟

قلت: نعم يا رسول الله. ثم انطلق النبي ﷺ ومشيت وراءه ﷺ ووصلنا إلى كشمير مروراً بـ "بانهال"، وكان ذلك كان ترغيباً من رسول الله ﷺ في ترك مدينة بهيره والتوظيف في كشمير، لذا لن أُملي عليك عن بهيره شيئاً أكثر.

ولاية جامون وكشمير

وحين وصلت إلى جامون لاحظت مشهداً غريباً جداً، وبيان ذلك أني استأجرت منزلاً بسيطاً للسكن في الطابق العلوي، وكنت معجباً به لوقوعه قريباً من البلاط الملكي. وكان البيت في الحقيقة حكومياً، وكان المشرف عليه شخصاً عجوزاً عيّنته الحكومة. فقال لي الناس إنه ناقض العهد، فالأفضل أن أكتب العقد الخطي معه لسنة واحدة وذلك بورقة رسمية، ففعلت. ولكنه جاء بعد يوم أو يومين وقال بأن شخصاً آخر يدفع ضعف ما تدفعه أنت، لذا يجب أن تُخلي المنزل. قلت له: ولكننا قد كتبنا العقد على ورقة رسمية لسنة كاملة! فقال: لا ضمان لهذه الكتابة. فقلت: حسناً، إذن سأدفع ضعف الأجرة. ثم جاء هذا الشخص وقال بأن فلاناً جاهز ليدفع أربعة أضعاف ما دفعت من الأجرة. قلت: حسناً! سوف أدفع أربعة أضعاف الأجرة. ثم جاء العجوز بعد قليل، وقال بأن ذلك الشخص جاهز لأن يدفع اثني عشر ضعفاً. فعندما لاحظت تقدمه في العمر، وإشرافه على جميع البيوت الحكومية في المدينة ونقضه للعهد قررت أن أعادّر نُهائياً المدينة التي يتفشى فيها الفساد لهذه الدرجة، وبدأت أكرهها. وقلت لصاحبي: لا أريد السكن في مثل هذه المدينة، احزم الحقائب فوراً لنعود إلى بلادنا. فأنزل رجالي الأمتعة من الطابق العلوي وعزمتُ على الخروج فوراً من هذه المدينة حيث المشرف على البيوت الحكومية طاعن

في السن وهو ينقض العهد أيضا لهذه الدرجة. فأنزلت الحقائق، وما زلت في الأعلى إذ مر شخص من كبار المدينة اسمه فتح محمد، وسأل: لمن هذه الأمتعة؟ وفي هذه الأثناء نزلت وقلت له: هذه أمتعتي. فقال: لقد أتيتَ حالا وتعود بهذه السرعة؟ فقلت له بلهجة قاسية: إنكم ناقضو العهود ولا أريد أن أقيم بين ناقضي العهود. ففهم فتح محمد الموضوع، فطلب من رجاله أن ينقلوا أمتعتي إلى بيته، فقلت له بأنه لا يروق لي السكن في هذه المدينة أصلا. ولكنه لم يسمع لي مطلقا، بل أرسل أمتعتي إلى بيته.

قلت له بأنك سوف تتعرض لمشاكل كثيرة بسبب إقامتي عندك لأن هناك فلانا وفلانا يناصراني العداة بشكل خاص. وبما أنهما من كبار رجالات الحكومة ويخالفاني بشدة، لذا لا أرى مناسبا أن تتعرض لعداوة رجال الحكومة بسببي أنا. وشرحت له الموقف بأساليب مختلفة، لكنه أكد على عدم مبالاته بذلك. فأخذني إلى بيته وأسكنني في منزله لعشر سنوات، وما اشتكيت أنا ولا أحد من تلاميذي أو ضيوفني من شيء أثناء هذه المدة كلها.

إنني إلى الآن مستغرب من رحابة صدره، ويؤسفني أنني لست رحيب الصدر مثله. وإن رحابة الصدر هذه لم تكن مقتصرة عليه وحده بل كان جميع أهل بيته -صغارا وكبارا- يتحلون بهذه الصفة. ولقد تزوجتُ أيضا أثناء فترة إقامتي هناك، وحين جاءت زوجتي إلى البيت عاملتها أختها معاملة حسنة جدا كما تعامل الأم ابنتها.

كان السيد "ميان لعل دين" من الزعماء المحترمين في جامون، فحدث أن أصيبت ابنته بالزحار الكاذب. بذل المعالجون بالأعشاب قصارى جهدهم في

علاجها، ولكن وضعها ظل يزداد سوءا يوما بعد يوم. كان هذا الزعيم ساخطا علي لسبب ديني من ناحية، ومن ناحية أخرى أبدى المعالجون اليأس من شفائها، وربما أشار عليه الأطباء فدعاني للعلاج - وصدق المثل: إذا أراد الله كان العدو نافعا وخيرا- فلما رأيتها وجدتها قد تقيح جرحها، فأيقنت أنه الزحار الكاذب، وأخطأ المعالجون في العلاج، إلا أنني لم أتجرأ على إبداء أي رأي، فأفادني الطب الحديث، وكان المعالجون الموجودون هناك يجهلون الطب الإنجليزي، فوصفت لها العلاج، وكان التشخيص صحيحًا والعلاج ناجعًا، وتحسنت حالتها إلى حد كبير، فأعطيتها الدواء نفسه في اليوم التالي أيضا. فخلع الزعيمُ عليّ خلعةً إلى جانب جائزة أخرى رغم عداوته.

ثم حدث حادث ثانٍ إذ أصيب موظف في مجال الضرائب بالمغص. فجاء إلي شخص قرب منتصف الليل ليأخذني معه. فخطر ببالي أن الأدوية المسهلة ليست مفيدة في حالة الألم الشديد. فوصفت له مزيجا من أدوية أخرى مما أدى إلى زوال المغص.

مرة تفشت الكوليرا الشديدة في الولاية فسافر المهراجا إلى قلعة "باهو" من أجل تغيير الجو، وسافرت أنا أيضا معه. وكان في الركب "راجا موتي سنغ جي" أيضا، فأصيب بدوسنطاريا وإسهال شديدين. وكانت الكوليرا متفشية في تلك الأيام أيضا، لذا احتاج إلي لاستشارة طبية، وبسبب ترددي على المريض لعدة أيام نشأت بيننا علاقة قوية، والمبلغ الذي دفعه لي بهذه المناسبة تقديرا لي ظل يدفعه إلى عدة أعوام. كانت علاقات "راجا موتي سنغ" مع المهراجا فاترة بعض الشيء. وفي تلك الأيام كان هناك عرس لأحد الأمراء، فاستشارني فيما إذا

كان من المناسب له الاشتراك في العرس أم لا، فقلت له أن يشترك في العرس حتما، فسوف يؤدي ذلك إلى تحسين علاقته مع المهرجا بإذن الله، بالإضافة إلى نصائح مناسبة أخرى، فحصل الصلح بينهما واشترك في عرس ذلك الأمير. كنت أنا أيضا أرافقه ضمن موكب عرس ممتظيا فيلا عليه هودج يسع شخصين بكل سهولة. ففي المرحلة الأولى من السفر أصبت بجرح بسبب زنبرك (بُرغي) في الهودج، وعانيت منه كثيرا. وفي المرحلة الثانية ساءت حالتي لدرجة أني لم أعد قادرا على متابعة السفر، فاستدعيت في الساعة العاشرة ليلا طبيبا كان من البنغال، وقلت له أن يجري لي عملية جراحية فورا لخوفي من تحول الجرح إلى ناسور. فقال: يا سيدي! قد حزمت حقائي الطبية كلها خشية أن أنسى هنا أي أداة صباحا عند الانطلاق، فلا يمكن فعل أي شيء الآن، ولسوف أقوم بذلك غدا بإذن الله. ولكني أخرجت له سكيننا وناولته إياها قائلا بشيء من القسوة أن يجري العملية بها في الحال. قال الطبيب: ليس عندي الآن مادة مخدرة. قلت: لا حاجة لها. وكان قد اغتاض، فأجرى العملية بقسوة شديدة. وطلبت منه أن يضغط على حافتي الجرح بشدة ويُسيل كثيرا من الدم ثم يضمد الجرح، ففعل بأشد قسوة ممكنة، أما أنا فأعشي علي، وأنهى الطبيب عمله جيدا. وفي صباح اليوم التالي ذهب الطبيب بدون فحص الجرح. فلما فحصت الجرح بوضع المرأة تحتي وجدته ملتئما بفضل الله، فركبتُ الحصان متكلا على قواي وقدراتي، ومع أنني أخذت الحيطه بعين الاعتبار وجلست مائلا إلى جانب السرج، ولكن بعد أربعة أميال من السفر لم أعد قادرا على البقاء على المطية، فترجّلت. كانت في نفسي شائبة من الشرك، فخيّل إلي أن

المشرفين على المخيم سوف يمرون من هنا ويواسوني حتما. وبعد برهة من الزمن جاء ولي العهد وقال: لماذا ترجلت؟ قلت: لا أستطيع الركوب لأن صحتي ليست على ما يرام. قال ولي العهد: حسنا! تعال إلى المخيم، وسوف ندبر الأمر هناك، ثم همز حصانه وذهب مسرعا. قلتُ في نفسي: لقد تحطم واحد من الأوثان. ومع ذلك ظننت النفسُ الأمانة أن أخاه الآخر سيأتي، لأنه هو الذي كان يعالجني عادة، وكان على علاقة جيدة معي. فجاء ووقف بكل إخلاص. قلتُ: لا أستطيع الركوب. قال: تعال إلى المخيم، وهمز حصانه وانطلق هو الآخر مسرعا. ثم جاء الأخ الثالث واستفسر عن حالتي وانصرف هو أيضا. ثم جاء "راجا" وسأل عن حالتي بكل حب وقال: اركب. قلتُ: لا أستطيع. قال: المخيم يقع على بعد بضعة أميال من هنا، فتعال إلى هناك وسوف نجعل كل شيء على ما يرام. قال ذلك وانصرف هو أيضا. ثم جاء المشرف على المخيم - وكان آخر القادمين - وتصرف مثل من سبقه تماما. عندئذ توجهت إلى: "لا إله إلا الله"، وقلت في نفسي إن الذي يعلق آمالا على غير الله يرتكب خطأ كبيرا. الآن كان أمني الوحيد هو الله ﷻ وحده. في هذه الأثناء مرّ من هناك ديوان "لجهمن داس" الذي كان مسؤولا عسكريا في تلك الأيام. وحين رأني توقف فورا وقال: ما بك؟ قلتُ: بي جرح فلا أستطيع أن أركب الخيل، فيمكنك أن تذهب من فضلك. قال: كيف يمكن أن أتركك هنا في هذه الحالة وأذهب؟ فترجل وجلس بقربي وراح يحدثني. ففي هذه الأثناء جاءت عربته. فهض من عندي وتنحى بخادمه قليلا وأمره بشيء ثم ركب حصانه وذهب في طريقه. ثم جاءني خادمه بالعربة وطلب مني الركوب، وقال بأن العربة ستكون

معك إلى حين عودتك إلى جامون. حسبت الأمر فضلا من الله وركبتها. كانت العربة مفروشة بمضجع وثير فاضطجعت عليه وبدأت أتلو القرآن الكريم شكرا لله تعالى. كان السفر ممتدا إلى شهر كامل. شفيتُ بسرعة بفضل الله تعالى وأردت أن أعيد العربة، ولكن الخدام القائمين عليها قالوا بأننا مأمورون بخدمتك إلى أن تصل إلى جامون.

لقد حفظت أربعة عشر جزءا من القرآن الكريم خلال شهر واحد. وعندما وصلنا إلى جامون أردت أن أعطي الخدام القائمين على شؤون العربة والمشرف عليهم جائزة، ولكنهم قالوا: لقد تلقينا الجائزة، فقد أعطانا المسؤول المحترم في نفس اليوم مبلغا كافيا كجائزة وللإنفاق أيضا، وأمرنا ألا نأخذ منك شيئا. لقد أصررتُ على ذلك كثيرا، وقلت للمسؤول بأن لا تحيروا "لجهمن" المحترم بذلك، ولكن الموظف بدلا من أخذ النقود أخرج نقودا أخرى من عنده وقال بأن النقود التي أعطانا إياها "لجهمن" للإنفاق لم تُنفق كلها، ولا نقدر على أن نعيدها إليه. على أية حال لم يأخذ الموظف تلك النقود، فأخذتها أنا واثقا بكونها فضلا من الله. ثم بعد ذلك كان لديوان لجهمن داس عليّ أياذ يحتاج بيانها إلى وقت طويل.

سيادة لجهمن داس هذا الذي ذكرته آنفا صار رئيس الوزراء في الولاية، وكان مولعا بالحديث بلغة "بشتو"، وكان لا يضم إلى حاشيته إلا الناطقين بها والذين لم يكونوا يعرفون أي لغة أخرى، وأمر بأن لا يأتي أحد إلى مقره للزيارة الشخصية. في أحد الأيام قلت للشيخ فتح محمد أن يقابل رئيس الوزراء حتما، فقال هناك الموظفون الناطقون ببشتو فقط، وهم لا يسمعون لأحد ويطردون

الناس بركات أقدامهم، وقد واجه كبار الأشراف الذلة والهوان هناك، وكان ذلك في الساعة العاشرة ليلاً. فقلت له: سأكتب رسالة إلى رئيس الوزراء المحترم في الحال. فنهاني الشيخ عن ذلك بتاتا، فلم أقبل رأيه، وكتبت فيها: "الناس هنا معتادون على اللقاءات، وقد سمعت أنك وضعت حراسة مشددة. فالرجاء أن يتم إعداد صالة واسعة مفروشة بسجادة إيرانية، وأن يُحدد وقت للقاء حتى يجلس الناس هناك في الانتظار. ثم تأتي إلى صالة اللقاءات في الوقت الذي تراه مناسباً وتلتقي بمن تشاء. أما أن تجعل الناطقين بالبشتو يدفعون الشرفاء ويطردوهم فهذا لا يليق بك."

فوضعت هذه الرسالة في البريد في الحال وأوصلت إليه أيضاً على الفور. ولم تمض إلا بضع دقائق حتى جاء إلي صهري، الذي كان السكرتير الخاص له، أيضاً حاملاً مصباحاً في يده وقال: قد استلم "رئيس الوزراء" المحترم رسالة منك وقرأها، وهو الآن يدعوك. فمنعني الشيخ فتح محمد من الذهاب، لكنني ذهبت ولم أجد هناك أي حارس، فقال لي حضرته: انظر لا يوجد هنا أي حارس، فقد أنهيت الحراسة فوراً، وادخل القاعة الفلانية، فدخلت ورأيت هناك سجادة فارسية مفروشة، وقد خصت لزيارة الأشراف النبلاء. فشكرته كثيراً على ذلك، فردّ على ذلك بالكلمات التالية: "لا بد من وجود شخص في الولاية يقول الصدق بهذا الوضوح، لذا فإني أقدرك أيما تقدير. ومن الآن لن أمنع أحداً، أما بالنسبة لك فليس لك أي وقت محدد، فشرف متى تريد دون أي نوع من التكلف."

حين حضرت عند سيدنا المسيح الموعود عليه السلام سألته: "أي جهاد يجب

القيام به كوني مريداً لك من أجل التقدم في حب الله تعالى؟"

أجاب حضرته عليه السلام قائلاً: "جاهد في تأليف كتابٍ في دحض المسيحيين." أما أنا فلم أكن مطلعاً على المعتقدات المسيحية ولم أكن أعرف ما هي الاعتراضات التي يثيرها المسيحيون عادة، ومن عاداتي أنني لا أجلس عاطلاً، ولإنجاز هذه المهمة كنت بحاجة إلى الفراغ وسعة الوقت، بينما لم أكن أجد وقت فراغ في جامون إلا قليلاً جداً.

استفسرته: ما رأيك يا سيدي بالنسبة إلى الأجوبة الإلزامية؟

قال عليه السلام: "ليس من العدل في شيء أن يهتّب الإنسان لإقناع غيره بما ليس مقتنعا به هو بنفسه. أما إذا اعترضك سؤال صعب لا تعرف جوابه قط فالطريق الأنسب في هذه الحالة هو أن تخط ذلك السؤال بخط جميل وعريض وتُعلقه أمام مكان جلوسك لكي يقع عليه نظرك بشكل متكرر، إلى أن يُنزل الله تعالى عليك فيضاً منه بفضله الخاص وتنحل العقدة."

كنت مقتنعا بهذا الأسلوب من الدعاء سابقاً، فأقامني سيدنا المسيح الموعود عليه السلام على صخرة متينة منه.

أقول: ربما وجهني سيدنا المسيح الموعود عليه السلام إلى هذا الجهاد لأنه عليه السلام كان سيخوض في أشد أنواع المواجهة مع المسيحية، وإمامي بالمسيحية كان بسيطاً، ففكر سيدنا أحمد عليه السلام أنني لو درست الديانة المسيحية بعمق لكان نافعا للجماعة. فبناء على أمر منه عليه السلام درست كتب المسيحية بدقة وعمق. وبعد بحث وتحقيق عميق ألّفت كتاباً ضخماً بعنوان: "فصل الخطاب".

وعندما وصلت إلى وطني بعد تلقي هذا الأمر من قاديان، كان هناك زميل لي من أيام المدرسة - وكان حافظاً للقرآن الكريم - إماماً في المسجد. فأثار

أمامي قضية القضاء والقدر، وتحدث بكثير من الإساءة لدى تقديمها. وكنت أنظر إليه في حيرة إذ كان يتكلم بسرعة ولا يكاد يتوقف، ولا تلاحظ قلة الأدب إلى هذا الحد من قبل أئمة المساجد عادة. وحين انصرف الناس ناديتُه وقلت: أيها الحافظ المحترم، يبدو لي أنك قد تنصّرت. قال: إذن، ما الحرج في ذلك؟ قلت: أريد أن أقابل مرشدك. فأخذني إلى مدينة "بند دادنخان". وحين عبرنا النهر قال عُمدة إحدى القرى إنكما مدعوان إلى مأدبة. قلتُ: سوف نتناول طعام الضيافة عند العودة من المدينة. فوصلنا معا إلى بيت شامخ لشخص إنجليزي كان الحافظ المحترم يعرفه سابقا. جاء القسيس إلى غرفة الاستقبال. قلت: يا حضرة القس، ما حدا بي للمجيء إلى هنا هو أن أحد زملائي في المدرسة قد أصبح مريدا لك، فأرجو أن تُسمعني أيضا شيئا. وكنت أنوي من وراء ذلك أن أطلع على دينه. وإذا كان لديه اعتراض فلن يكون إلا اعتراض واحد أو اثنان، لأني كنت قد قلتُ له أيضا ألا يخوض في نقاش طويل، بل يلخص دينه وديننا ويطرح اعتراضا واحدا فقط كملخص. ولكن القسيس قد ارتعب كثيرا، فظل يماطل، وأراد أن يحضر لنا الشاي والبسكويت. قلتُ: لقد عملتُ في هذه المدينة مديرا للمدرسة إلى أربع سنوات، وعندني معرفة واسعة بالمدينة وأهلها، ولسنا بحاجة إلى الشاي بل أرجو أن نتحدث إلينا. وقلت للسيد الحافظ أيضا أن يحثه على الحديث. فأخذ الحافظ إلى جانب ثم عاد بعد أن حاوره طويلا وقال: لقد بذلتُ قصارى جهدي ولكنه لا يستجيب قط، ويقول بأنه لن يحاورك شفها بل سوف يكتب الاعتراضات فيما بعد ويرسلها. قلت للحافظ: يجب ألا تتعمد ما لم تصل اعتراضاته إلينا ولم نردّ

عليها. قال الحافظ: أنا أوكد لك ذلك. قلت للقسيس إن صاحبك الحافظ يقول هكذا. قال: نعم، هذا جيد، قلت للحافظ: هل هناك أحد غيرك فعل ما فعلت؟ قال: هناك شخص آخر وهو مدير محطة القطار. فذهبنا إلى المحطة، فقال مدير المحطة بكل جرأة بأنه لا يمكن المقارنة بين الديانة المسيحية وغيرها على الإطلاق. قلت للحافظ: لقد وقع هذا في شرك نفسه، وحين سمع مدير المحطة من الحافظ أن القسيس لزم الصمت عند النقاش تحير كثيرا. على أية حال، أرسل القسيس فيما بعد رزمة كبيرة من الاعتراضات. قلت للحافظ: قل لي هل أنا مُلزم بالرد عليها في يوم واحد فقط؟ قال: كلا. قلت: يمكنك أن تحدد بنفسك وقتا لهذا الأمر. قال: يجب أن يصلني كتاب مطبوع -محتويا على الردود على هذه الاعتراضات- إلى سنة.

عدت إلى جامون، وفي تلك الأيام كانت الزلازل تحدث بكثرة، حتى أصيب ابن أمير ولاية بونجه بالجنون بسببها. فكتب حاكمها إلى حاكم ولاية جامون بأنه بحاجة إلى طبيب حاذق، فذهبْتُ إلى هناك. وأعطيت بيتا منعزلا للسكن خارج المدينة. فكان عملي يقتصر على فحص هذا المريض الوحيد في اليوم ثم العزلة الكاملة. فبدأت هناك بدراسة التوراة والقرآن الكريم، وبدأت أضع خطوطاً تحت عبارات من التوراة تتعلق بتلك الاعتراضات. وكذلك فعلت في المصحف أيضا. ثم بدأت بتأليف الكتاب، وتم تأليف "فصل الخطاب" في أربع مجلدات. فاكتمل الكتاب من ناحية، ومن ناحية ثانية شُفي ابن الحاكم. والآن بدأت أفكر في النقود لنشر الكتاب، فأعطاني أمير ولاية (بونجه) آلاف الروبيات. وحين عدت إلى ولاية جامون سألني الحاكم: ماذا أعطاك حاكم

بونجه؟ فوضعت النقود كلَّها أمامه، فسخط الحاكم كثيرا على أنه أعطاني مالا أقل من حقي. فأمر بإعطائي مبلغا بقدر راتب سنة كاملة، بالإضافة إلى جائزة من قبل الحكومة. فأرسلت تلك النقود مع مجلدين من الكتاب للطباعة إلى دلهي. وعندما نشر الكتاب أرسلته إلى الحافظ المذكور آنفا وأمثاله. فكتب إلي بأني أسلمتُ بصدق القلب، ولا حاجة للرد على بقية الاعتراضات.

وبما أني كنت لا أزال أعمل في الولاية منذ عدة سنوات، فعلاقتي مع أمير بونجه وجامون وولي عهده قد أصبحت متينة وعميقة. كنت قد اطلعت جيدا كيف تسيطر الحاشية على الأمراء وغيرهم. فقد روى حضرته قصة من هذا القبيل تحتوي على عبرة، قد تكون ممتعة للقراء الكرام. وتتلخص القصة في أنه ذات مرة جاء أمير ولاية بونجه إلى ولاية جامون وسقط مريضا، فدعاني فعالجته. وعندما خرجت من بيته عائدا - وكان في الطريق بيوت رجال الشرطة - قال لي أحدهم أن فلانا من رجال الحاشية يدعوك. فقلت له: إن بيتي يقع في الطريق إلى بيته، فقل له أن يأخذ الدواء مني عند ذهابه إلى بيته. عندما وصلته هذه الرسالة قال: يبدو أن نور الدين صار متكبرا جدا، فلن نسمح له الآن بزيارة الحاكم. وكان من عادتي أني لم أكن أذهب إلى بيت أي أمير دون دعوة، فلم يأتي أحد في اليوم التالي من قبل الحاكم ليدعوني إليه ولم أذهب أنا الآخر دون دعوة، ومضت عدة شهور على هذا النحو. وفي أحد الأيام كنت واقفا أمام بابي إذ رأيت رجل الحاشية المذكور يأخذ معه طبيبا آخر إلى الحاكم. وكان جيراني بعض النجباء، وعندما نظر أحدهم إلى ذلك المسؤول ضحك كثيرا، وقال متوجها إلي، اليوم أثمرت جهوده. ثم أخبروني أنه كان يأخذ هذا الطبيب

كل يوم ويمر من هنا ليريك أنهم لم يعودوا بحاجة إليك، فقد وظّفوا طبيبا آخر. وبعد بضعة أيام احتاج مهراجا كشمير للسفر إلى لاهور ورافقته، وبالمصادفة لم يستطع الطبيب الآخر السفر إلى لاهور، وكان أمير بونجه ما زال مريضا. فلما كنت أنا الطبيب الوحيد هناك في الخيمة فاستدعاني الراجا ظهرا حيث كان الحر شديدا. كان وحده معي في الخيمة وكان معتل الصحة جدا، فقال لي: لم ندفع لك (أي الحكومة) المبلغ المحدد لهذه السنة، لذا فسوف نرسل لك الراتب لستينين. فأرجو أن تصف لي دواء. فقلت له: لعلك دعوتني وقت الظهيرة حتى لا يدرك مجيئي رجل حاشيتك الذي كان قد قال لي عند عدم ذهابي إلى بيته "إننا لن ندعوك بعد الآن" فإذا كنت خائفا منه إلى هذه الدرجة فهناك احتمال أيضا بأنه قد يلحق بك ضررا بسبب علاجي لك، كما لا أحب أنا أيضا أن أعالجك سرا. فقال: "إننا نخافهم دائما، لأن هؤلاء الأندال يمكن أن يدسوا لنا السم في أي وقت."

على كل حال عدنا من لاهور عاجلا، وهناك سمعت أن المهراجا يضعف يوما بعد يوم، حتى مات إثر عودته إلى ولايته، بيد أن ازدهار رجل الحاشية المذكور كان مقدرا لحكمة ما حتى تلك اللحظة. وكانت لي علاقة طيبة مع أمير بيغضه ولي عهد بونجه، فأخبرني أحد أصدقائي، أن هناك تخطيطا لرفع قضية ضدي، بسبب علاقتي بذلك الأمير. فولي عهد بونجه ينوي رفع قضية ضدي على أن والده لقي حتفه نتيجة علاجي الخاطيء له، وبأن الوصفة العلاجية كانت تتضمن السم. فضحكت كثيرا على هذا الكلام وقلت في نفسي: يا لعلاقات أهل الدنيا وخدماتهم ومعاهداتهم! ثم في مناسبة عندما

ذكرت ذلك للأمير قال من المؤسف أن الخبر وصلك، ويبدو أن الخبر تفسى كثيرا، أما أنا فكنت أحب أنه لو رفع القضية فسوف نسدد له الدين كله مع فوائده، فكن مطمئنا.

هؤلاء الناس خبيثون وأشرار جدا، فهم يعملون تحت موظفين أنذال ولئام. وهذه الفئة جديرة بالرحم جدا.

عندها تذكرت أنني عندما كنت أعالج هناك، كنت قد قلت له أن يستمع إلى القضايا وينشغل في حكمها، فبذلك سيجد فرصة للاستراحة، فاستجابة لاقتراحي كان يسمع الطلبات فقط.

وفي أحد الأيام أثناء سماع الأمير الشكاوى نظر أحد حاشيته إلى وجهه بإمعان وأخذ يسب سبًا فاحشًا ورمى بالورقة التي كانت في يده على الأرض وبدأ يجس نبضه. فلما كانت له هيبة فقد قال لجميع الحضور عنده: إنكم أنتم الأشرار، إن صحة الأمير ليست على ما يرام وأنتم تقدمون إليه الشكاوى تلو الشكاوى. لا تقدموا إليه هذه الشكاوى، فإنها تسبب اعتلال صحته، فأيده الجميع. انظروا كم تدهورت صحته، ثم أعطاه بعض الأدوية وأرسل إلي رجلا مستعجلا. فلما وصل إلي الراكب رسم صورة مخيفة جدا للمرض وقال قد تدهورت صحة ولي العهد كثيرا ولا ندري هل سنجده حيا عند العودة إليه أم لا، وأن علي أن أصل إليه فوراً. كان بيتي على مسافةٍ، فطرتُ إليه بالحصان، فوجدت ولي العهد نازلاً من الدرج، فقال فور النظر إلي: "أنت يا حضرة الشيخ المحترم تسكن بعيداً، لو سكنت قريبا لكان أفضل. فلقد قال لي هؤلاء الناس كلهم بأن حالتي قد تدهورت كثيرا، وقد تناولت بعض الأدوية، والآن يقولون

إنها قد تحسنت قليلا بعد تناولي الأدوية. " سألته: إلى أين تقصد الآن؟ قال: ذاهب للصيد. قلت له: سأرافقك أنا أيضا. وفي الطريق سألته منتهزا فرصة العزلة في الفلاة: هل شعرت أنت أيضا أن صحتك تتدهور؟ قال: كلا! لم أشعر بذلك إلا أن الناس قالوا ذلك. فسألت اثنين من رفقائه فقلا نحن لم نشعر بشيء وإنما قال ذلك من كان يقرأ عليه الطلبات، فأيدناه، عندئذ فهمت أن القضية تبدو شبيهة بقضية تلامذة سيادة الشيخ. على كل حال وجد هناك دبا فركضنا وراءه، أما أنا فتوقفت بعد بضعة أقدام، إلا أن ولي العهد المحترم الذي كان مريضا، قد صعد الجبل في متابعته كما يصعد الغزال، فلما عدتُ جاءني شخص مقرب إلى ولي العهد كثيرا، ومحل ثقته، وكان الأمير يلقبه "الوزير"، وقال لي: هل جئت هنا للعلاج أو لتعلم أميرنا أساليب الحكومة؟ ينبغي أن تصف الدواء فقط ولا تعلمه أساليب الحكم، فلتنتبه إلى عملك فقط وإلا سوف تواجه مشاكل. فإذا صار هؤلاء الناس كما تريد أنت، فمن أين سنأكل نحن؟ فأدركت لب القضية، رحم الله زعماء بلادنا وهداهم.

كان مهراجا كشمير يعاملني بكثير من اللطف والاحترام. لدرجة أنني كنت أيضا أستغرب من ذلك، ذات يوم قال لي بانفراد: هل تعلم أنني أخافك؟ قلت: كلا، وما معنى الخوف، فأنت ملك وأنا إنسان فقير! قال أنا أخافك كثيرا وأغض الطرف تماما عن تصرفاتك خلافا لطبعي، فاليوم أريد أن أخبرك السبب، وهو: من المعروف أن "سلطان محمود الغزنوي" لم يكن شخصا ذليلا، بل كان أميرا محترما من عائلة ملكية، ولا يحظى بمثل سلطنة محمود أي لئيم قط، فأنا خبير بنسب محمود وعائلته جيدا، فكان من سلالة ملوك إيران، لكن عجا

للحياة الطيبة والموت البئس، فقد طعنه الشاعر "فردوسي" بالبيتين التاليين بالفارسية ومعناها:

لو كانت أم الملك ملكةً، لألبستني ذهباً إلى الركبتين
ولو كان أبو الملك ملكاً، لوضع على رأسي تاجاً ذهبياً
فهذا الطعن خطير جداً لدرجة أننا نحن الملوك نتناول هذا البيت في مجالسنا،
ولذا أخاف المؤلفين كثيراً، وبما أنك أنت أيضاً مؤلف كُتِبَ لذا أنا أخافك كثيراً
وأهتم بك كثيراً.

يكون بعض هؤلاء الزعماء صالحين وينفعون الخلق كثيراً، بينما البعض على
عكس ذلك، وإنما بينت هذه الأمور لعل أحداً ينتفع بها.

كان المولوي عبد القدوس من سكان كشمير، وكان صالحاً جليلاً، وكان من
مريدي السيد شاه عبد الغني، وكنت أنا الآخر من مريدي الشاه المحترم، ونظراً
إلى ذلك كان أخي، وكان يجني، وكان يأتي إلى بيتي لتلقي الدروس في جامع
الترمذي على كبر سنه. ذات يوم رأيت في الرؤيا أنه يحمل في حضنه كثيراً من
الأولاد الصغار، وانتزعتهم كلهم دفعة واحدة، وأخذتهم في حضني ومشيت من
هناك. في الطريق سألت الصغار: من أنتم؟ قالوا: إننا ندعى: كهيعص.

فاستغربت جداً من هذه الرؤيا، ثم عندما بايعت سيدنا المسيح الموعود عليه السلام
سألته عن تفسيرها. قال حضرته عليه السلام: سوف تُعطى علمها، والمراد من
الأولاد هم الملائكة. حين ألف الهندوسي المدعو دهرم بال ضد الإسلام كتاباً
بعنوان: "ترك الإسلام" تذكرت أنني كنت قد رأيت رؤيا قبل مدة قال الله سبحانه

لي فيها بأنه إذا سألك أحدٌ من منكري القرآن الكريم معنى تفسير آية قرآنية ولم تعرفه سابقا فسوف نعلّمك إياه. فحين صدر كتاب "ترك الإسلام" هذا ووفقي للرد عليه، وحين وصلت إلى بحث حروف المقطعات؛ دعوت الله تعالى في أحد الأيام أثناء القعدة بين السجدين في صلاة المغرب قائلا: إن هذا المنكر للقرآن الكريم يعترض على حروف المقطعات فعلمّنيها من عندك يا ربّ. فأعطيته في وقت قصير بين السجدين، علماً واسعاً بالمقطعات، وقد كتبتُ جزءاً منه في الكتيب "نور الدين" ردّاً على اعتراضٍ حول المقطعات. ولما انتهيت من الرد اندهشت من روعة الجواب أنا الآخر.

في جامون معبد هندوسي قرب محلات تتهيرات في حارة جلاكا، فرأيت ذات مرة في رؤيا أن سيدنا رسول الله ﷺ جالس على مقعد خشبي في محل لبيع الطحين والملح والزيت أمام ذلك المعبد الهندوسي، فحين رأيت سيدنا رسول الله ﷺ من هناك قال لي: يمكنك أن تأخذ الطحين من عندنا. ثم وزن في ميزان خشبي طحيناً يعدل طعام شخص واحد ظاهرياً. فأخذته، وعندما انتهى رسول الله ﷺ من وضع الطحين في وعائي ضرب الكفة على عصا حديدية حتى يسقط الطحين في الوعاء، وحين أخذت الطحين قلت له: يا سيدي! هل علّمت أبا هريرة رضي الله عنه شيئاً خاصاً حتى أصبح قادراً على حفظ أحاديثك؟ قال ﷺ: نعم. قلت: أرجو أن تحبرني أيضاً به حتى أتمكن من حفظ أحاديثك. قال ﷺ: قرب أذنك إلي. فكان سيدنا رسول الله ﷺ موشكاً على أن يقول شيئاً إذ ضغط شخص اسمه نور الدين خليفة على قدمي بشدة بغية إيقاظي للصلاة وقال: قد حانت الصلاة. ففسّرت أن السبيل لحفظ الأحاديث هو

العمل بها، لأن الموقظ أيضا لا يكون إلا ملاك الرؤى، وفهمت هذا التفسير من اسم "نور الدين".

كان يتسنى لي هناك الجلوس مع الخدم والموظفين، وذات يوم قلت لهم تعالوا اقرأ عليكم القرآن الكريم، وكانوا كلهم هندوسا، فقرأت عليهم القرآن يومين أو ثلاثة أيام، وكان أحدهم المدعو رتي رام مسؤولا عن الخزينة وابن المسؤول عن الخزينة، فقال عني في مجلس عام بأنه يجب أن أُمْنَع من إسماع القرآن وإلا سوف يسلم. فالقرآن كتاب خلاب جدا لا يقاوم، كما أن أسلوب نور الدين في القراءة هو الآخر رائع وجذاب جدا.

وكان ديوان غوبند سهائي وديوان اننت رام وديوان كريا رام من الوزراء هناك عديمي النظر في الأخلاق الدنيوية، فكانوا بالإضافة إلى اتساع الفكر يتحلون بالمروءة أيضا، وديوان لجهمن داس وسردار روب سنغ وسردار لال من وسردار موتي رام أناس -بالإضافة إلى استشارتهم لي في الأمور الطيبة- قد أحسنوا إلي كثيرا في القضايا الخطيرة، فأنا ممتن لهم دوما.

ذات يوم قال لي الوزير، "بانديت رادها كشن" في بيت الحاكم امر سنغ: إن بعض الاعتراضات التي وجهها البانديت ليكهرام إلى الإسلام لا جواب عليها. فلا يقدر المسلمون على الرد عليها. فقلت له إن الأمر سهل جدا، فهات أقوى اعتراضاته. ولنحكّم القاضي الراجا، فقال: إن مكتبة الإسكندرية كانت قد أُحرقت بأمر من عمر رضي الله عنه. فسألته: اذكر لي -بحسب رأيك- أفضل وأوثق كتاب عن تاريخ الإسلام في العالم كُتِب في القرون الأربعة الأولى ذكر فيه أي مؤرخ هذا الحادث؟ فقال: إنه لم يقرأ كتب التاريخ العربية، فقلت له أنت تعرف

أني لم أقرأ الكتب الإنجليزية، ومع ذلك أرجو أن تذكر لي أي تاريخ إنجليزي يجدر بالثقة نسيها، فذكر كتاباً: (Decline and Fall of the Roman Empire by Gibbon) (انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها: لـ "جيبون") فقبلت. إذن سيكون هذا الكتاب وحده حكماً بيننا وبينكم، فليُحضَر الكتاب. فأُحضِر الكتاب من مكتبة الوزير "امر ناه" وقُدِّم إلى الوزير المذكور رأي مؤلف الكتاب فيما يتعلق بمكتبة الإسكندرية. ولما لم يكن هناك مجال للاعتراض عليه فقال الوزير المذكور بشيء من الخجل والندم بأننا قد علّمنا منذ البداية تعليمًا يخلق النفور من الإسلام، لذا فأبي اعتراض يوجّه إلى الإسلام نراه كبيراً. عندها قلت للمهراجا: ماذا يمكن أن يستفيد رعاياك المسلمون من هذا البانديت إذا كان يكرّ للإسلام إخلاصاً (يقصد أنه يكن للإسلام حقداً) على هذا النحو؟! فقال الحاكم: أنا لست هندوسياً بل من أتباع البوذية. ولما كنت حاكماً في منطقة "لداخ" كنت معجبا بتعليم البوذية. فسألته: لو جاء شخصان للتوظيف في دائرة حكومية أنت مسؤول عنها، أحدهما يُدعى فتح محمد^١ والآخر يُدعى فتح تشند^٢ وكان فتح محمد أكثر خبرة وكفاءة من فتح تشند فأيهما تختار للوظيفة عندك؟ قال: سوف أختار فتح تشند. قلت: في كلامك تناقض، لأن فتح تشند ليس بوذياً. فقال الحاكم: ذلك لأني متأثر بما علّمني والدي. عندها قلت للراجا: يجب أن تنتبه إلى هذا، ماذا عسى أن تكون حالة رعاياك المسلمين والحالة هذه؟! فقد ظهرت أحداث كثيرة من هذا القبيل، وأسأل الله ﷻ رحمته.

^١ أي المسلم. (المترجم)

^٢ أي الهندوسي. (المترجم)

ذات يوم مرض حاكم ولاية "بونجه" في مدينة "قلعة باهو" فاضطرت للذهاب لعلاجه، وشُغفت هناك بدراسة الطب الهندي نظرا إلى الفائدة الكبيرة لبعض الأعشاب المحلية. فدرست الكتابين "أمرت ساعر وسسرت" على يد بانديت عجوز اسمه هرنام داس. كنت أحترم هذا البانديت كثيرا لكونه أستاذا لي. أما حاكم الولاية فلم يعجبه هذا الأمر لأن البانديت كان خادما بسيطا لديه. فسألني الحاكم: لماذا تكرم البانديت هرنام داس إلى هذا الحد في البلاط؟ قلت: لأنه أستاذي. فآثر هذا الجواب الصريح والشجاع على قلب المهراجا فصار يحترمني ويجلني أكثر من ذي قبل.

إن أمر قطع مولاي ﷺ لغطرتي في تلك الأيام أيضا لعجيب وغريب، وتفصيل ذلك أن ابن ميان لعل دين فيروز الدين، الذي كانت تربطه بي علاقة مبنية على الإخلاص والحب الشديدين، أصيب بالجدري في أيام شبابه، ومات أمامي، والله وحده أعلم ما حلَّ بقلبي من صدمة عنيفة، وإلى الآن عندما أتذكره أتألم، فقد بذلت قصارى جهدي في علاجه ولكن دون جدوى، وكل هذه أمور تقودنا إلى فضل الله.

لقد وجدت في ولاية جامون نموذجا طيبا للحب والإخلاص لدى الشيخ فتح محمد المحترم وكافة أفراد أسرته وأخيه الشيخ إمام الدين. وكذلك الشيخ علي محمد -التاجر من مدينة وزير آباد والساكن في جامون- كان يحبني كثيرا، وكذلك "راجا عطا محمد خان" زعيم منطقة ياري بوره، وراجا فيروز الدين، وراجا قطب الدين، أيضا جديرون بالذكر، وإن الوصفات الطبية لهم أيضا تذكّرني بهم، لكن الحديث يطول، وإنما أذكر باختصار أن واحدا منهم كان

يعاني من ضعف جنسي شديد، فطلب مني أن أوّمن له دواء خاصا لهذا المرض، فأعددت له وصفة "زدجام عشق" فاستفاد منها جدا، فدعاني مع زوجتي للضيافة في بيته. فألبستُ زوجته زوجتي أسورة كبيرة من الذهب بمنتهى اللطف، وقدم المضيف إلي أحصنة ثمينة بإصرار شديد.

كان هناك شخص يدّعي أنه عالم بالتمائم وكان يدّعي أنه من مريدي الشاه عبد الغني وكان قد ألف كتابا أيضا حول هذا العلم، فأرسلتُ إليه برسالة بناءً على علاقتي بالشاه المحترم، فكتب لي تيممة وقال إن الإنسان بسببها يستطيع أن يكسب خمس روبيات يوميا بكل سهولة. فلما كان ينسب نفسه إلى الشاه المحترم، فقد جربت هذه التيممة. وكنت أمتهن الطب أيضا، وبعد أيام خطر ببالي أن أتأكد أن المال الذي أكسبه هل هو من ممارستي الطب أم بركة هذه التيممة، فلتلتأكد من التوصل إلى أي نتيجة إما أن أترك العمل أو الطب، فلم يعجبني ترك ممارسة الطب وأهملت التيممة، فكان دخلي ذلك الشهر ١٢٠٠ روبية، فحزنت على أني بسبب نحس تلك التيممة كنت أكسب في الماضي ١٥٠ روبية فقط. فلما ذهبت إلى جامون جاء الرجل نفسه إلى بيتي صباحا باكرا، فظننت أنه ربما يفكر أني توظفت هنا بسبب بركة تيممته، فلم ألتفت إليه مطلقا إكراها لنفسي على غير العادة، فلم أنظر إليه، ناهيك عن تقديم الضيافة له من شاي أو طعام. وأخيرا كانت الساعة العاشرة فقال لي: ألم تعرفني؟ قلت: بلى، أنا أعرفك، أنت مؤلف الكتاب الفلاني، ولم أظهر عليه معلوماتي عنه أكثر من هذا. فاستغرب جدا من معاملتي الجافية والفاترة، وقال: إذا قبلت فيمكن أن أقيم في بيت ميان لعل دين، قلت له نعم يمكنك بكل

سرور. فنهض ووصل إلى بيت ميان المحترم، وبعد قليل جاءني أحد خدام ميان المحترم الخصوصيين ركضاً، وقال: لقد جاء شخص يمارس التمام حالياً وكتب تيممة وألقاها في النار فأصبحت ورقة نقدية فوراً، فهو يتلقى التكريم والاحترام الكبير، حيث تعدّ له أوفر الأتعمة. لكن العالم نفسه جاءني بعد يومين أو ثلاثة أيام وقال إذا سعت لي فيمكن أن أتوظف بشفاعتك مهنة "الداعي"، هنا براتب ٦٠ روبية شهرياً. فعند سماع ذلك شككت فيه أكثر وقلت في نفسي: كان هذا قد أعطاني تيممة يمكن أن أكسب ببركتها مئة وخمسين روبية شهرياً، والآن يطلب مني الشفاعة ليتوظف بستين روبية شهرياً؟! قلت له إن الوظائف من هذا القبيل يمكن أن تُنال بواسطة ميان المحترم والحافظ الحكيم فداء محمد، أما أنا فرأى هذا الزعيم فيّ أي أحب العلاقات بمن يمارسون التمام. ولقد حزنت جداً على أنه مؤلف وأن له علاقة بحضرة الشاه عبد الغني، وقلت في نفسي كم تردّت أوضاع المسلمين في العالم، ثم تنازل إلى أن توظّف براتب شهري قدره ١٥ روبية فقط، إلا أنني لم أُلْمه.

ذات مرة رأيت متسولاً يقوم بتصرفات غريبة في أسواق مدينة "بونجه"، وحين سُئل عنها قال: إن مرشدي قد وعدني بثلاثة أشياء ودلّني أيضاً على عملٍ من أجل الحصول عليها. وإنني أقوم بهذا العمل منذ ذلك الوقت، ولكن دون جدوى. قلت له: أخبرني عن شيء واحد منها. قال: لقد أخبرني المرشد أنك لو أغمضت عينيك لعرفت الحقيقة كلها. قلت هذا يمكنني أن أخبرك أنا به الآن أيضاً، فأغمضُ عينيك. وحين أغمضُ عينيه قلت له هل ترى شيئاً؟

^١ أي من يمتن الدعاء فيتقاضى الأجر مقابل الدعاء لأحد. (المترجم)

قال: لا. قلت إذن علمت أنه ليس في هذا العمل إلا الظلام. قال المتسول: لقد قال لي المرشد إنك بواسطة هذا العمل سوف تطلع على سيئات الأموات وحسناتهم. كنت في ذلك الوقت في مكان حيث كانت زاوية السيد عبد الغفور شاه -أحد السلف الصالح- أمامي، كما كان قبر مومس أيضا بالقرب منه. فأشرت إلى قبر ذلك الصالح وسألت المتسول: لمن هذا القبر؟ قال: إن صاحبه كان من كبار أولياء الله تعالى والصالحين. ثم أشرت إلى القبر الآخر وسألته: ولمن ذاك القبر؟ قال المتسول: هذا قبر امرأة سيئة كانت مومسا. فقلت له: فإنك تملك هذه الميزة من السابق بحيث تعرف الصالحين والطحالين من الأموات. فتحير المتسول بذلك وبدأ يقبل يدي ووعد بالامتناع عن ذلك العمل في المستقبل وانصرف. ولكن بعد فترة من الزمن وجدته في السوق وهو يقوم بالتصرفات نفسها، فقلت في نفسي إن التخلي دفعة واحدة عن عادة جارية منذ أربعين عاما أمر متعذر.

كان هناك طبيب شيعي أيضا وكان متعصبا لدينه جدا، ولما كان زميلي في العمل وكان طبيبا خاصا لولي العهد، فقد ذكر يوما المطاعن في الصحابة، فقلت له باختصار: أنا أيضا من سلالة الصحابي عمر رضي الله عنه، الآن يمكن أن تعترض، وكان من نجابته أنه لم يثر أي قضية دينية بحضوري ما دمت هناك، وإنما أنا الذي كتبت إليه رسالة بحث من ولي العهد وهي مطبوعة ولم يردّ عليها.

ذات يوم اشتكاني أستاذ رئيس الوزراء ديوان انت رام المولوي عبد الله إليه أنه من سلالة شخص غصب خلافة النبي صلى الله عليه وسلم، ولما لم يحدث ذلك أمامي فلا

أعرف تفصيل ذلك، وإنما قال لي الحاكم لماذا لم يخلف النبيّ المحترم ابنه؟ فلم أعتبر القضية دينية وقلت له لم يكن للنبي أي ابن ذكر بالغ ولم يكن من أولاد الابنة أي ولد بالغ، ثم لم تكن خلافته مادية كأهل الدنيا، فلما قال لي إن المولى المرتضى كان ابنه وكان يستحق الخلافة فغضبها منه عمر، فخطر ببالي فوراً أنه يتكلم بإثارة المولوي عبد الله، فألقى الله ﷺ في قلبي أن علياً ﷺ كان صهره، وأن عمر ﷺ لم يخلف النبي ﷺ مباشرة، أي بلا فصل. فسألني: ألم يكن علي ابنه؟ وكان بالمصادفة يجلس معه أحد أصهاره فقلت: كانت علاقة علي بالنبي ﷺ مثل علاقة هذا الراجا بسيادة الحاكم، فقال ثائراً جيشاً: قد فهمت أساس هذه المناظرة، انظروا نحن لا نجعل الأصهار والوزراء من الذين يستحقون السلطة، فهذا صهري، وفي اضطرابات ١٨٥٧م قاوم الإنجليز فأرسل إلى معتقل "بورت بلير"، أما نحن فكنا نوالي الإنكليز فأرادوا أن يمنحونا مقابل ذلك بلداً، لكننا بدلاً من أن نأخذ سيادة المنطقة حررناه وأباه من بورت بلير وساعدناه على استعادة السلطة وزوجناه ابنتي، والآن إذا قام بأي تصرف معادٍ فبورت بلير موجود، وأن انت رام جي هذا هو رئيس الوزراء. الآن إذا سرحناه من منصبه فسوف يفتح محلاً لبيع الملح والزيت. وبعد ذلك لا أعرف ماذا قال للمولوي عبد الله.

"مرة رغبت كثيراً في كتاب: "طبقات الأنوار" الذي يناقش الحديث القائل: "من كنت مولاه فعليّ مولاه"، والذي ألفه السيد مير حامد حسين فيما يربو على ٧٠٠ صفحة. كان هناك طيب شيعي يُدعى "مير نواب" من مدينة لكهنأؤ، وسمعت أن هذا الكتاب موجود عنده. فطلبت منه فقال: إذا كان

بإمكانك أن تأخذ الساعة العاشرة ليلا وتعيده الساعة الرابعة صباحا عندها يمكنني أن أعطيك إياه. ظننت أنه مطلع على عادي في العمل طول النهار، لذا يكون قد خطر بباله أنني سأنام طول الليل مرهقا بسبب طول ساعات عمل النهار، وأنى لي أن أقرأ الكتاب؟ على أية حال، أحضرتُ الكتاب الساعة العاشرة ليلا وعندما أنهيت قراءته وسجلتُ الملخص بفضل الله تعالى ناديتُ الخادم وسألته عن الوقت، فقال: لا زالت الساعة دون الرابعة. فطلبتُ منه أن يوصل الكتاب إلى الطبيب المحترم. ثم ألقيت نظرة ثانية على الملخص، واستغربت وقلت في نفسي: لماذا كل هذا العناء الكبير؟ وأثناء إلقاءي النظرة الثانية على الملخص حضرت في ذهني بعض الردود^١ أيضا. وبعد بضعة أيام قال لي الشيخ السيد فتح محمد بأني وأنت مدعوان اليوم لدى أحد الزعماء الأثرياء اسمه السيد إلهي بخش، فذهبنا معا. وفي الطريق ذكر لي السيد فتح محمد أن السيد إلهي بخش الذي هو شيعي متحمس جدا قد دعا "المجتهدا" وسوف يكون هناك حوار بينك وبينه. والشرط هو أنه لو هُزمت أنت فلا بد لنا نحن أهل السنة جميعا الموجودين في المجلس من الانضمام إلى مذهب الشيعة، ولم أذكر لك هذا الأمر من قبل لأنك لو جئت مستعدا للنقاش لما كان النقاش ممتعا. لُمْتُه كثيرا وقلت: يجب ألا تكون هناك شروط كهذه، ولكنه أضع كلامي في الضحك والمزاح. عندما وصلنا إلى هنالك قال الشيخ فتح محمد، وما كان يعرف المجاملة إطلاقا: يا أهل التشيع، هاتوا عالمكم الذي جاء للنقاش. فقُدِّم لي كتاب "طبقات الأنوار". لم أعرف "المجتهد" حتى تلك

^١ أي على القضايا المطروحة في الكتاب. (المترجم)

اللحظة، لأنه لم يخرج أمامي بعد. وشكرت ربي كثيرا على أن الكتاب كان نفسه الذي قرأته من قبل، فجعلت أقلب أوراقه بسرعة حتى تصفحت الكتاب كله خلال بضع دقائق. ثم وضعت الكتاب أمام السيد إلهي بحش وقلت: ما هو المطلوب الآن؟ قال: اقرأ الكتاب جيدا!

والله إن أفضل الله تعالى على عباده الضعفاء لا تعرف أية حدود! فقد سررتُ بهذا الوضع أيما سرور، وقلتُ: لقد سبق لي أن قرأته، ولو أردت لسردتُ لك ملخصه ثم أرد عليه بإيجاز شديد. كان كثير من علماء الشيعة مجتمعين هناك، فقالوا: بين لنا ملخصه. ففعلت بفضل الله ﷻ، ثم خلا أهل الشيعة بعضهم إلى بعض وتناجوا وقرروا أن الخوض في النقاش مع هذا الشخص ليس بوسعنا. عندها أمر السيد إلهي بحش بإحضار الطعام. فما كان من شيخنا إلا أن بدأ يقفز فرحا ويقول بكل اعتزاز بأننا لن نأكل الطعام، فليكن الحوار أولا، فادعوا محاوريتكم. كانت الفائدة من سردي ملخص الكتاب أنه لم يبرز أحد للحوار، فخلصني الله تعالى من المناقشة."

لقد تدبرت كثيرا في شؤون الولاية فوجدت هناك أربعة عيوب بارزة. أولا: كلما ازداد جهل حاشية الرؤساء ازداد نفوذهم. والسبب في ذلك أنهم لا يتورعون حتى عن دس السم لسيدهم لأمر تافهة.

ثانيا: إنهم يظنون يقلّبون مناصب الشرفاء من أعضاء الحكومة رأسا على عقب ويزعجونهم، مما يؤدي إلى انتشار سوء الظن بالرئيس بين أعضاء البلاط والمعتمدين، وفيما بينهم أيضا، وبالتالي لا يستطيع أهل المناصب أن يركزوا على عملهم.

ثالثا: إن جشع الوزراء والأمرء يكون كبيرا تحسبا لعدم بقائهم في المناصب لمدة طويلة.

رابعا: عندما تتناهى إلى أذن عملاء الحكومة وعُمَّالها أمور متعارضة وغريبة يبدؤون بكرهية الرئيس إلى حد كبير.

جعلُ الكريم ذليلا والذليل عزيزا من صنع يدهم اليمنى، إن بيان تفصيل أمور الأشراف الذين فسدوا أمامي والفقراء الذين اغتنوا يُحدِّث الرعدة في القلوب، فالموظفون الذين يأخذون راتب رويبتين أو أربع روبيات، صاروا أثرياء يملكون مئات الألوف، أما الذين كانوا يملكون مئات الألوف فأفلسوا تماما.

كان من الكبار شخص يُدعى "لعل دين"، وكان ساخطا عليَّ لسبب، ولكنني ذهبت إلى بيته غير مبال بسخطه. كان البيت مزدحما بمن يطلبونه، وكان جالسا عند النافذة المرتفعة يملي على الكاتب شيئا، ثم بدأ الناس ينصرفون من عنده رويدا رويدا وخلا البيت، وتقدَّمت إليه أيضا رويدا رويدا، وأخيرا بقي عنده الخادم والكاتب، واقتربت منه جدا، وكان يعلم أنني لا أزوره في البيت قط، فسألني مستغربا جدا لماذا أتيت؟ ففهم خادمه والكاتب أيضا أنني أريد أن أقول له شيئا في الخلوة، فانصرفا هما أيضا، فبقينا نحن الاثنان، فقلت له: "إنك من الجاه والشوكة بحيث لا يستطيع عامة العلماء أن ينبسوا بينت شفة أمامك. والحق أن كل شخص بحاجة إلى واعظ، وقد جئتك لأسألك ما هو واعظك؟ فقال: أنا إنسان غير مثقف فلا أفهم هذه الأمور الدقيقة. قلت: قُرب كل مدينة عامرة هناك قرية خربة دائما، وبجوار بيت كل غني ثري هناك دائما بيت خربٍ لثري صار فقيرا، وهذا الخراب يمكن أن يكون واعظه. عندها تغيرت

ملاحم "لعل دين" قليلا وقال لي: اقترب أكثر يا حضرة الشيخ. وبما أني كنت جالسا قرب ركبته فلم يكن هناك مجال للاقتراب أكثر فمددت رأسي فقط. فقال: "انظر، إن وسادة جلوسي موضوعة هناك، ولكنني دائما أجلس إزاء هذا الشباك. أنظر! فإن أمام هذا الشباك باباً على شكل محراب، فقد علمت الآن أنه واعظي. فأضاف وقال: كان صاحب هذه الدار من قومنا، وكان شخصا كبيرا بحيث كانت تُنصب له مظلة حمراء كبيرة إزاء المهرجا، بينما لم يكن بوسعنا أن ننصب حتى مظلة صغيرة سوداء إزاءه. وإن هذا البيت أصبح الآن خرابا يبابا، حتى إن زوجة ذلك الشخص الكبير اضطرت لغسل الأواني في بيتي." سمعت ذلك وقمتُ على الفور وقلتُ: هذا يكفيك واعظا، وانطلقت من هناك. ثم كررتُ الموضوع نفسه أمام المهرجا فقال: إن لي أكثر من واعظ. أولا: البيوت الخربة المحيطة بالمكان الذي يتم فيه تتويجنا تكفينا واعظا.

ثانيا: المكان الذي أعقد فيه جلسة عامة كانت إزاءه مدينة شهيرة باسم "دهارا نغر" وقد أصبحت الآن خرابا يبابا.

ثالثا: هناك "قلعة باهو" أمامي، وكانت خاضعة للسلطين الأقوياء، ولا يمكن أن يكون هناك واعظ أقوى منها. ثم هؤلاء الناس الذين استولينا على بلادهم هم الآخرون ليسوا أقل موعظة وعبرة.

كان في الولاية شخص يُدعى "راجا سورج كول" وكان مسؤولاً كبيراً في المجلس البلدي المحلي، وكان يعاني الألم في الكلية منذ مدة، وأراد أن يتعالج على يدي. وبعد الفحص تبين أن في كليته حصاة، فأخبرته بنتيجة فحصه بدون تردد. فغضب المريض كثيرا وقال بلجهة ملؤها السخط والغضب: "ألا تعلم أن

سبعة من الإنجليز كانوا يعملون تحت إشرافي؟" قلت: "إن عمل الإنجليز تحت إشرافك لا يمنع تكوّن الحصاة في كليتك." فقال المريض: "إن ابني أيضا طبيب." قلت له: "كون الابن طبيبا أيضا لا يمنع تكوّن الحصاة في كلية الأب." فاستشاط غضبا أكثر من ذي قبل. وبعد بضعة أيام جاء إلى هناك طبيب إنجليزي اسمه "بيري" وكان أستاذا في كلية الطب في لاهور. فذكر المهراجا عنده المريض المذكور وأصرّ عليه أن يعالجه. ففحصه الطبيب وأبدى قلقه. فقال راجا سورج كول بأن طبيبا شعبيا كان قد أخبره بوجود الحصاة في الكلية. فقال الطبيب الإنجليزي لزميله الإنجليزي: يجب أن تجري له عملية جراحية في الكلية فوراً. ففعل ذلك زميله ولكن لم يعثر على الحصاة. عندها أخذ الطبيب "بيري" المبضع بيده ووسّع الجرح ورأى الحصاة قرب الحالب، فأخرجها وأبدى سروره البالغ. وقال في حقي ما تيسر له من كلمات المديح والثناء. عندها دعاني راجا سورج كول، ولكن ما راق لي الذهاب إليه، حتى سخط الراجا مرة أخرى.

إني لا أعلم على وجه اليقين، ولكن يبدو من القرائن القوية أنه لم يعجبه بقائي هناك، بل رؤيتي أيضا بعد ذلك.

ثم قال لي عضو المجلس البلدي بأنه من الأفضل أن أستقيل من عضوية المجلس، ففي ذلك تكمن مصالحى الكثيرة. قلت له: ترك العمل أو الوظيفة المهياة غير مستحب في شريعتنا، ولا بد من "الإقامة فيما أقام الله."

لقد رغبتني باغ رام في الاستقالة لكنني فضلت الأمر الشرعي، وأخيرا جاءني ورقة فصلي، ولما ذهبت إلى هناك في مناسبة قال لي المهراجا المحترم: لقد ظلّمت أنت أيضا بلا حق، فاعفُ، قلتُ: لقد أكرموا بحق الله تعالى، فهو وحده يمكن

أن يعفو عن ذلك، أما الإنسان فمتى يقدر على ذلك؟ كان والده المحترم يخاف العلماء من أي دين كانوا، وكان المهراجا في تلك الأيام ناقما على أخيه الأصغر، وكانت لي علاقات طيبة معه، فقد تسنى لهذا العضو فرصة سانحة.

كان في جامون هندوسي اسمه "حاكم" يمارس مهنة بائع أعشاب طبية، وكان ينصحني دائما بأن أدخر مائة روبية على الأقل كل شهر لأن الإنسان في بعض الأحيان يواجه حاجات طارئة. ولكني كنت أقول له دائما بأن أفكارا كهذه هي بمنزلة سوء الظن بالله تعالى، فلن نتعرض للمشاكل أبدا بإذن الله تعالى. وفي اليوم الذي تلقيت إشعار الإقالة من وظيفتي جاءني هذا الهندوسي وقال: حضرة المولوي، لعلك تذكرت اليوم نصيحتي التي كنت أسديها لك! فقلت له: إنني أحتقر نصيحتك اليوم أيضا كما كنت أحتقرها في الماضي. وبينما هو كذلك إذ جاءني مبلغ قدره ٤٨٠ روبية من الخزينة الحكومية مع رسالة تقول بأن هذا راتبٌ لأيام مضت من الشهر الجاري. عندها كال هذا الهندوسي بعض الشتائم للمسؤول الذي أرسل النقود وقال: "هل كان نور الدين رافعا قضية ضدك حتى أرسلت النقود إليه؟"

ما كان غضب هذا الهندوسي قد هدأ بعد، وإذ بالملكة (زوجة المهراجا) ترسل إلي مبلغا كبيرا من جيبتها الخاص، واعتذرت أيضا وقالت بأنه ليس لديها مبلغ أكثر من ذلك وإلا لأرسلته أيضا. فحين شاهد الهندوسي هذا المبلغ استشاط غضبا أكثر من ذي قبل. في تلك الأيام كان عليّ دينٌ قدره ١٩٥,٠٠٠ روبية، وكان الهندوسي على علم بذلك. فقال مشيرا إلى ذلك المبلغ الهائل: طيب، لقد جاءتك هذه النقود، ولكن عليك دينٌ يقارب مائتي ألف روبية، وأنت لمقرضيك أن يسمحوا لك بالذهاب

دون أن تسوي الحساب معهم؟ ولم يكمل الهندوسي حديثه بعد إذ جاء مندوب صاحب الدين وضّمّ كفيه محيياً - تعبيراً عن الاحترام البالغ حسب التقاليد السائدة في المجتمع الهندوسي - أمام حضرته وقال: لقد وصلتني برقية قبل قليل يقول فيها سيدي: "إن نور الدين على وشك المغادرة، وقد لا تكون لديه نقود كافية، لذا عليك أن تدبر له كل الأمور الضرورية لسفره، وأن تعطيه أيضاً ما يشاء من النقود، وإن لم يستطع أن يأخذ جميع أثاثه معه فأوصله إلى بيته على مسؤوليتك أنت." فقلت له: لستُ بحاجة إلى النقود، فقد جاءني النقود من الخزينة الحكومية، وبالإضافة إلى ذلك قد أرسلتُ الملكة أيضاً نقوداً لا بأس بها، ففيها أكثر من الكفاية، وأستطيع أيضاً أخذ الأثاث معي، وأعتقد أنني كنت قد حصلت على ١٢٠٠ روبية أو أكثر ذلك الوقت. فقام ذلك الهندوسي وبدأ يقول: إن الألهة أيضاً يراعون بعض الناس، فنحن من الصباح إلى المساء نتكبد أنواع المشقة والجهد، وبعدها فقط نتمكن من رؤية الروبيات، فدع عنك الآخرين وانظر إلى هذا الأحمق الذي بدلاً من أن يطالبه بتسديد الدين بدأ يعرض عليه نقوداً إضافية.

فقلت له: الله أعلم بذات الصدور، سوف نسدد دينه في القريب العاجل، أما أنت فلا يسعك إدراك هذه الأسرار.

بعد الوصول إلى بهيره أردت أن أفتح مستشفى كبيراً هناك وأبني منزلاً فخماً، فبدأت أعمال بناء البيت العظيم. وكان البيت قيد البناء وكنت قد أنفقت عليه قرابة سبعة آلاف روبية حين ذهبت إلى لاهور لشراء بعض الأشياء الضرورية للبناء. وحين وصلت إلى لاهور راق لي أن أسافر إلى قاديان لزيارة المسيح الموعود عليه السلام، فذهبت إلى قاديان. ولما كانت أعمال

البناء جارية على نطاق واسع في بهيره، فقد وصلتُ إلى محطة "بطالة" واستأجرت عربة للذهاب إلى قاديان والإياب منها على جناح السرعة. وعندما قابلت سيدنا المسيح الموعود عليه السلام وقبل أن أستأذنه في الانصراف، قال لي حضرته أثناء الحديث ما معناه: لقد أصبحت الآن فارغا. قلت: نعم يا سيدي أنا متفرغ الآن. فنهضتُ من هناك وقلت لصاحب العربة أن يرجع، وقلت في نفسي: ليس من المناسب أن أستأذن اليوم، وسوف أفعل ذلك غدا أو بعد غد. وفي اليوم التالي قال لي سيدنا المسيح الموعود عليه السلام: أظن أنك تشعر ببعض الصعوبة في المكث هنا وحدك، لذا يجب أن تطلب من إحدى زوجتيك أن تأتي إلى هنا. فكتبت امتثالا لأمر سيدنا المسيح الموعود عليه السلام رسالة إلى زوجتي الثانية أن تأتي إلى قاديان، وكتبت فيها أيضا أنني قد لا أستطيع العودة إلى بهيره في وقت قريب، لذا يجب إيقاف أعمال البناء. وعندما حضرت زوجتي قال لي حضرته عليه السلام: أنت مولع بالكتب، لذا يجب أن تنقل مكتبتك أيضا. وبعد بضعة أيام قال لي حضرته عليه السلام: إن زوجتك الأولى تعرف طبعك أكثر، وهي قديمة العهد معك، لذا يجب أن تدعوها أيضا إلى هنا حتما. وقال حضرته عليه السلام للمولوي عبد الكريم السيلكوتي: إنني تلقيت وحيًا عن نور الدين، وهو موجود في بيتٍ للحريري:

لا تصبُونَّ إلى الوطنِ فيه تُهانُ وُمتَحَنُ

من عجائب قدرة الله تعالى أنه لم يخطر وطني بعد ذلك على بالي مطلقا، فمن ثمَّ صيرتُ لقاديان وحدها.

خاتمة

مضمخة بالعطر

بعد انتهاء الجزء الأول من السيرة الذاتية لحضرة أمير المؤمنين التي أملاها علي قد خطر ببالي أن أكتب شيئاً عن سيرته وبكلماته من مذكراتي حول المواضيع التالية:

الدعاء، تعظيمه للقرآن الكريم، حبه وتعظيمه للنبي ﷺ، تعظيمه لأوامر الله، شفقتة على خلق الله، توكله على الله، غيرته على الإسلام، علم كلامه من طراز خاص، قوة الإيمان، شوقه لإلقاء دروس القرآن الكريم، بيانه لنكات القرآن الكريم، تقديره للعلم، تقديره لأهل الكتاب، حبه للكتب والاطلاع عليها وقراءتها، تحمُّله للمشاق، عزمه المتين، الشجاعة، السخاء، الفراسة، التدين والأمانة، المحبة، تقديره للوحدة، حبه للغة العربية، هيبته، بعض كراماته وخوارقه، تعظيمه لأساتذته، حبه للمرشدين، العفو والصفح، كشوفه وإلهاماته، اطلاعه على الأديان الأخرى، علومه الشاملة، حُكمه المقنع في المسائل العظيمة، أسلوبه في الحياة، وفاؤه، ولاؤه للحكومة، فرحته الدائمة، تجاربه التي هي أغلى من الكيمياء لكل إنسان، وغير ذلك.

فالحمد لله على أن الكمّ الهائل من كلماته الطيبة محفوظة عندي لدرجة أنني أستطيع أن أكتب كثيراً حول هذه العناوين دون أن أضيف أي حرف من عندي، لكن لما كان هذا الكتاب المنشور سيتناول أحداث حياته قبل هجرته إلى قاديان؛ أي هو الجزء الأول للكتاب، لذا رأيت من المناسب أن

أكتب حول هذه العناوين في الجزء الثاني الذي سيتناول حياته في قاديان. أما الآن فسأكتب بعض الأحداث المختارة من مذكراتي، التي لها علاقة بحياته السابقة تاريخيا. ولم تذكر في السوانح التي أملاها علي حضرته بالترتيب. كما تتضمن مذكراتي أحداثا كثيرة قد أملاها حضرته شخصا فلم تكن حاجة لتناولها مرة أخرى، (تلك الأحداث التاريخية التي لها علاقة بحياته في قاديان، محفوظة عندي في المذكرات لأجلها في الجزء الثاني) وبذلك سيصبح الجزء الأول المتعلق بحياته قبل الهجرة إلى قاديان جديرا بأن يوصف بالكامل إلى حد ما. إلا أن الذي سأكتبه في الجزء الثاني حول العناوين المذكورة آنفا، فهو يتعلق بحياته السابقة وحياته في قاديان كليهما، إلا أن المكان المناسب لإدراجها هو الجزء الثاني.

أذكر مرة أخرى أنني توخيت حذرا كبيرا في الكتابة عن حياة حضرة أمير المؤمنين أن يكون كل ما أكتبه بكلماته حصرا، وألا أضيف شيئا من عندي. وأنا أرى ميزة الكتاب هذه مدعاة شرف لي. فالحمد لله رب العالمين.

لقد كنت محتاطا أيضا عند نسخ أي رواية من مذكراتي (التي هي مسجلة عندي كمذكرات) أن أكتب التاريخ فوق الصفحة، ليتبين في أي تاريخ كان حضرته ﷺ قد ذكر الحادث الفلاني، وبذلك ستظهر عظمة عملي هذا أيضا بأي كنت حذرا ومحتاطا في حفظ كلمات حضرته الطيبات كما ينبغي، بحوله وقوته تعالى.

أفراد العائلة، أيام الطفولة

١٩١٠/٢/٨ بعد صلاة الظهر في المسجد المبارك

لم يكن لوالدي أي شقيق ولا شقيقة، ولم يكن لجدي أي شقيق ولا شقيقة، وكذلك جد والدي، باختصار كان شخص واحد فقط إلى أحد عشر جيلاً. ثم انظروا كم نحن من الأشقاء والشقيقات. أما أنا فأولادي أكثر من ذلك أيضاً.

١٩٠٩/٩/٢٣ بعد صلاة العصر في المسجد المبارك

نحن تسعة إخوة وأنا أصغرهم وآخر أولاد والديّ. لقد بذل والدي جهوداً كبيرة في تعليمنا جميعاً. كان أخونا الأكبر أكثرنا جمالاً، وكان يدرس عند "مدن تشند" المصاب بالجذام استجابة لأمر والدي. وكانت اللغة الفارسية رائجة بصفة عامة في ذلك العصر، وكان مدن تشند متمكناً من اللغة الفارسية، فقال أهل القرية لوالدي: كيف ترسل ابنك للدراسة إلى مجذوم؟ فقال والدي: العالم المجذوم أفضل من جاهل يتمتع بالصحة. فنحن جميع الإخوة بحمد الله متعلمون. كانت أخواتنا أيضاً متعلمات. كان والدنا يقدر العلم إلى درجة كبيرة جداً. فعندما تزوجتُ أختنا الكبرى وضع والدنا مصحفاً فوق جهاز العرس لها وقال: هذا كلُّ شيء من عندي. كان الورق المستخدم في هذا المصحف رقيقاً مثل الحرير، وتم الحصول عليه ببذل جهد ومال كثيرين، وكان المولوي نور أحمد من مدينة "جلال بور جتان" قد كتبه نظير مائة روبية، وإضافة إلى ذلك إن علامات الجداول والآيات وتلوينه وطلائه كان بماء الذهب.

ديسمبر ١٩٠٦ في العيادة

لا يجوز ضرب الأولاد؛ فقد ورد "أكرموا أولادكم" أيضا، فإذا كانت الشريعة لم تكلفهم فمن نحن حتى نكلفهم، ادعوا الله ليكون أولادكم صالحين. إن تربيتي وتربية إخوتي لم تتحقق بالضرب والعنف. كان والداي يشفقان علينا جميعا وخاصة علي أنا، ولم يكونا بياليان بأي نفقة مهما كانت كبيرة في سبيل تدريسنا. لم أسمع قط أي شتيمة من والدي أو والديتي. فوالديتي التي تعلم منها آلاف الأطفال والبنات القرآن الكريم، كانت إذا انزعجت من أحد قالت "يا شقي".

قال حضرته بعد الدرس قبل المغرب في إبريل ١٩٠٧ جالسا على أرض الميدان الذي بني عليه الآن مكتب جريدة بدر، وكان الدرس بالجانب الشرقي منه بدلا من المسجد الكبير بسبب الطاعون، ولا أذكر التاريخ.

"كان والدي معتادا على المشي الكثير، أما أنا فلا أستطيع أن أمشي لمسافة طويلة، حيث أشعر بالعطش والحر. كانت والديتي أيضا لا تقدر على المشي الطويل، فقد ورثت ذلك منها، كانت والديتي مثقفة ومطلعة على الدين جيدا، كانت لها عقائد صحيحة جدا، كانت قد حفظت مسائل فقهية كثيرة عن ظهر غيب."

١٩٠٧/٣/١٥

كانت والديتي متعلمة جدا، وكانت تفهم القرآن الكريم وتفقهه. كانت من عائلة "أعوان". كانت زوجة أخي من العائلة المشهورة "بكه والي"، لا أزال أتذكر زمن فطامي، فقد أخذتني زوجة أخي بعد فطامي وأقامتني عندها،

وكانت تردّد أثناء إطعامي ومداعبتي: أنت الهادي، أنت الحق، ليس الهادي إلا هو.

١٩٠٨/٨/٤

رحم الله والدي؛ فقد قال لي عند انطلاقي إلى خارج الوطن لتلقي العلم: تعلّم بعيدا عنا حتى لا يصلك خبر وفاة أحد منا، ولا تخبر عن ذلك والدتك.

١٩١٠/٢/٨

أنا لا أملّ الدعاء بحق والديّ قط، فلم أصلّ أي جنازة إلى اليوم لم أدعُ فيها لهما.

رحم الله والديّ، فقد علّمتني نكات عجيبة من القرآن الكريم بلُغتها وأسلوبها، منها أقوالها التالية:

ستنال إنعامات الله ﷻ بقدر طاعتك له، وكذلك سيصيبك عقابه بقدر معصيتك له ﷻ.

يقول شاعر ما معناه: لا تكن غافلا عن مكافأة أعمالك؛ فإنك إن تزرع قمحًا تحصد قمحًا، وإن تزرع شعيرًا تحصد شعيرًا.

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

ويقول شاعر: أيها المولوي إن دين الفلاح أقوى الأديان، أي أن ما تزرعه تحصده.

وكانت أمني كثيرًا ما تقول: "من أكل نازًا تغوّط جُدوةً"

١٩١٢/٤/٩

أنا لم أرَ والديَّ عابسين قط، بينما أغضب أحيانا على ابني عبد الحي.

١٩٠٩/٦/٨

قال حضرته بعد صلاة العصر قبل الدرس في المسجد المبارك:
لقد تسنت لوالديّ فُرص كثيرة لتعليم القرآن الكريم، فكانت قد بدأت تعلّم
القرآن الكريم منذ كان عمرها ١٣ عاما، فببركة ذلك نحن جميع الإخوة نحب
القرآن الكريم كثيرا.

١٩٠٩/٥/٧

كان والدي يحب كثيرا تربية الجاموس، وكان قد أكد على الراعي أن لا
يحبّه، وأنه سيدفع له أجره أكبر. لكنه ذات يوم رآه يلبه. فلما علم الراعي
أن والدي قد رآه قال له: يا سيدي، قد مات ابني، واليوم هناك تقليد
الاحتفال بيوم الخميس بعد وفاته، وأنا بحاجة إلى الحليب، وفكرت كثيرا
وأيقنت أخيرا أن جاموسك حلال طيب وينبغي أن أقدم حليبه في الاحتفال
بتقليد قراءة الفاتحة.

١٩٠٨/١٠/٢٧

بعد صلاة الظهر في المسجد المبارك يوم العيد بعد أن انصرف الجميع قال
ﷺ لهذا العبد المتواضع (الحقير أكبر) الذي كان حاضرا عنده:
ذات يوم كنت في بيتي ببهيره زفي تلك الأيام كانت الحرب دائرة بين الدولة
العثمانية وروسيا، وكانت الأخبار تشيع في الهند كل يوم.

كان الوقت ليلا وكان بيتنا عامرا بفضل الله تعالى بسبب إقامة ستة من إخواني وأختي ووالدي، وكان لكل شقيق لي خمسة أو ستة من الأولاد؛ إذ كان الجميع متزوجين إلا أنا، فقلت لأمي مرة: يا أماه! كل يوم تصل الأخبار بأن عدد كذا من الناس قد قُتلوا، واليوم قتل عدد كذا، فالمقتولون إما أبناء أحد أو إخوة أحد حتما. أما بيتنا فيسوده اليوم أمنٌ وسلام وليس هناك ما يبعث على القلق، فأندري حياة أحد من أبنائك، أي أنا، في سبيل الله؛ فأنا لم أتزوج بعد، ولا زوجة لي ولا أولاد. قالت: كيف يمكن أن يحدث ذلك أمام عيني؟ فلزمتُ الصمت.

فاسمعوا الآن ما الذي حدث بعده، فقد بدأ إخواني يموتون واحدا تلو الآخر بعد فترة وجيزة. وكلما مات أحدهم، خرجت أرملته من البيت بما وقعت عليه يدها من الأثاث ظنا منها أن الآخرين سوف يستولون عليه ولن يبقى في يدها شيء. وهكذا مات الجميع واحدا بعد الآخر، وأصبح البيت خاليا تماما. وكنت مرتبطا بولاية جامون بسبب عملي، فجئت مرة إلى بيتي في الصيف، ونمتُ وقت الظهر في مكان الجلوس، فجاءت والدتي إلى الغرفة المجاورة وقالت بصوت عال جدا: إنا لله وإنا إليه راجعون، فاستيقظتُ بسماعه وقلتُ: يجب ألا تقال كلمة الصبر هذه بما يدل على قلة الصبر. ثم قلتُ لها: هل تدرين لماذا أصبح البيت كله خرابا وخاليا؟ قالت: نعم! لا أزال أذكر جيدا كلاما قلته في تلك الليلة، بسببه حدث كل هذا، فكلما توفي لي ابن تذكرت كلامك هذا.

ثم قلت: هل فهمت شيئا آخر أيضا. قالت: نعم، وهو أنني لن ألفظ أنفاسي الأخيرة أمامك، بل سوف أموت حين لن تكون موجودا هنا. وهذا

ما حدث بالضبط فيما بعد، فقام السيد قاضي أمير حسين الذي كان موجودا آنذاك بإجراءات تكفينها ودفنها. إذ كنت في ولاية جامون بسبب عملي، وقد حدث ذلك لأنها تمت أن تموت أمامي وأشرت في مراسيم دفنها.

١٩٠٧/١/٥ في العيادة

عندما أردت الانطلاق للسفر تذكرت قول رجل صالح قال لي: حيثما ذهبت يجب أن تكون على علاقة مع أربعة أشخاص، وهم: ضابط في الشرطة، وطبيب، وصاحب ذوق رفيع وقلب رحيب، وشخص ثري. والمدينة التي لا يوجد فيها هؤلاء الأربعة، لا ينبغي شد الرحال إليها.

١٩٠٩/٦/٨

أخي المولوي سلطان أحمد الذي كان عالما متبحرا كان ذاهبا إلى هرن بور، فحين توقف تحت شجرة في قرية لاستراحة وجد كثيرا من المسلمين الجهلة قد اجتمعوا ويناقشون بمنتهى الحماس من هو المسلم ومن هم المسلمون، وكان أخي متحيرا، وكان يقول: كنت أفكر إلى أين آل جهل المسلمين، ومع ذلك هم فرحون بأوضاعهم.

مايو ١٩٠٩

"ألقي شقيقي الأكبر سلطان أحمد مرةً وعظا في المسجد الجامع في "بهيرو"، وكنت عندها صغير السن. أتذكر أنه قرأ أثناء كلمته حديث "الدنيا جيفة، وطلابها كلاب"، ثم قال معلقا عليه: لماذا لم تُستعمل هنا كلمة "غراب" بدل من "كلاب" مع أن الغراب أيضا يأكل الجيفة؟ ثم أجاب بنفسه: السبب أن الكلب

مهما وجد من كمية كبيرة من الجيفة، فإنه لا يسمح لكلب آخر أن يقترب منها، بل يثور عليه عند اقترابه منها، وهذه العادة لا توجد في الغراب، بل الغراب إذا رأى الجيفة أخذ يصرخ ويدعو بني جنسه كلهم. ليس في الكلب المواسة القومية، ولكن الغراب يتحلى بها كثيرا، لذا فقد اعتُبر الكلب ذليلا مهانا.

١٩٠٨/٩/٢١

كان أبو العزيز عبد الرحمن أخا لي، فحين ذهب إلى "ديره غازي خان" سمع هناك أن النواب المحترم لا يصوم رمضان ويتناول الطعام جالسا في الخارج أمام الجميع. فقال: الآن سأمنعه من هذا التصرف، فتوجه إليه فرآه يقول بعد شرب الماء: "الحمد لله". فقال له أخي: "أستغفر الله" أنت مسلم! فالناس عبثا يشيعون في السوق أن النواب قد تنصّر لأنه لا يبالي بجرمة رمضان، إذ يتناول الطعام علنا أمام الناس. عندها قال لخدمته: لم لم تحبوني بحلول رمضان؟ فاحترام رمضان واجب فعلا. فلم يأكل بعدها في الخارج في رمضان.

١٩٠٩/١١/٨

"كان ابن إحدى أختي قد أصيب بالزحار فمات. وصلتُ إلى هناك بعد بضعة أيام. وكانت أختي قد شاهدت فيما سبق شخصا مصابا بالزحار شُفي على يدي، فقالت لي: يا أخي، لو جئت من قبل لنجا ابني من الموت. قلتُ لها: سوف يكون لك ابن آخر وسيموت بالزحار أمامي. فحملت وولدت ولدا جميلا، وحين أصيب بالزحار كانت أختي تذكر ما قلتُ سابقا فقالت لي: أرجو أن تدعو له. قلتُ: إن الله تعالى سوف يعوضك بابن آخر، أما هذا

فدعيه يرحل في كل حال، فمات الولد. ثم رُزقتُ ابناً ما زال حيا يرزق ولديه وظيفة وعمل. كل هذا كان نتيجة الغيرة الإلهية.

يناير ١٩٠٧ أثناء درس الحديث

"ذاكرتي قوية جدا لدرجة أنني أتذكر زمن فطامي أيضا. فحين وضعتُ أمي شيئا على ثديها قلت لأخي الأكبر: هذا مخيف."

١٩١٠/٢/١١

"أنا مولع بالكتب قبل سن الرشد بفترة طويلة؛ ففي الطفولة كنت أجمع الكتب نظراً إلى جمال تجليدها، وبعد بلوغ سن الرشد اخترت عددا كبيرا منها، وبذلت جهدا كبيرا في جمع المفيد منها."

١٩١٢/٤/٢٢

"أنا لم ألعب أي لعبة، سوى لعبة وحيدة هي السباحة، فأنا أتقن السباحة، فكنت أحيانا أسبح في الأنهار الكبيرة."

١٩١٢/٢/١٣

"إن الأولاد الذين كانوا يلعبون معي لم يسبوا أحدا أمامي قط، بل كانوا عندما يرونني قادما إليهم يقولون: انتبهوا، هذبوا ألسنتكم."

١٩١٢/١٠/١٠

"في شهر "سمت بكرمي ١٩٠٣" الذي مضى عليه الآن ٦٦ عاما وأتذكره بالضبط مثل ١+١=٢، حدث أن كان في زمن الشيخ قاطع طريق من

"تشاوه" يدعى "مردانه"، فألقي عليه القبض وقطع رأسه، وعلق رأسه على باب "تشتي بُل" في مدينتنا. ولما كان قاطع الطرق مشهورا، ذهب الجميع لمشاهدته، وذهبتُ أنا أيضا، ولا أتذكر هل كان أحد قد أخذني أو ذهبت شخصا. فكنت أنظر إليه واقفا في ازدحام شديد."

١٩١٢/١٠/٥

"ذات يوم عندما كنت طفلا قال لي أحد المشايخ أن أحضر مجلس ختم القرآن الكريم، فذهبت ورأيت الناس يقرأون القرآن الكريم، فتناولت أنا أيضا جزءا منه، فلم أكد أنني نصفه حتى أنهى الآخرون جزأين وبعضهم أربعة أجزاء. فلما لاحظني أحدهم أخذ مني الجزء بغضب وقال: أنت لا تعرف، ناولني إياه فأنا أُهِّه، فأخذه مني وبدأ يتصفح الأوراق، وأنهى الجزء كله خلال لحظات."

١٩٠٩/١/٢٣ بعد المغرب

"كنا نتعلم في الكُتَّاب، ذات يوم أرسلنا الأستاذ لأداء الصلاة في المسجد، وكان فينا شاب قال لنا جميعا بعد الوضوء: ما هذه الصلاة، من الذي يقيم هذه الصلاة؟! قال هذا ومسّ جبينه بجدار، فظهر أثر التراب على جبينه، حيث كان يوحى بأنه قد صلّى الصلاة في المسجد. وبذلك حاول أن يعلمنا الكذب ويمنعنا من الصلاة. وكانت النتيجة أنه صار لصًا مشهورا، وكان على رأس قائمة الأندال واللصوص في المدينة. وذات يوم اقتحم القلعة، فسُجن وعُدِّب في السجن. تذكروا نصيحتي وهي أنه يجب أن تصلّوا الصلاة بإخلاص."

١٩١٢/١/٦

"عندما كنت صغيرا عَلِّمْتُ كتابا ورد فيه بيت فارسي، ومعناه: حين أعقد العزم على الصلاة ليلا، تساورني الأفكار ماذا يأكل ابني غدا. يعود هذا البيت إلى القرن السابع، ونحن الآن في القرن الرابع عشر. أحيانا أقرأ الآية: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (غافر: ٦٢)، ثم أقرأ هذا البيت باستغراب. فمن العبث تماما ألا يتخلى الإنسان ليلا أيضا عن مشاغل الدنيا. فعلى المؤمن أن يستريح بالليل."

١٩١٢/٣/١٧

"جاء إلى مدينتنا مصارع كبير اسمه "عظيم شاه"، فقال لي أحد الأصدقاء (أخو نجم الدين): تعال نتوجه إلى الحلبة لنصارعه. فحين وصلنا إلى هناك رأيت المصارع عظيم شاه يمشي على يديه موجهًا قدميه إلى السماء، فهذا المشهد أثار نفوري كثيرا، فقلت: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ (الملك: ٢٣). فانصرفتُ من هناك، أما أصدقاؤني فدخلوا الحلبة فوراً."

١٩٠٨/١١/١٠

"منذ طفولتي كنت مولعا بالسباحة في النهر الذي يمر بالقرب من مدينتنا. ذات يوم في الشتاء رأيت راهبًا عاري الجسم جالسا على قطعة من الجلد قريبا من ذلك النهر. فذهبت إليه وجلست بالقرب منه وسألته: لماذا لا تشعر بالبرد؟ فقال: أتناول الزرنوخ وبعض الأشياء الأخرى الحامية أيضا، كما

تراكمت على جسدي طبقة من الرماد نتيجة تدليكي بالطلاء منذ فترة طويلة، مما أدى إلى انسداد مسامات الجسم، فلا أشعر بالبرد. إن مثل هؤلاء الناس لا تكون بغيتهم الوصول أو التقرب إلى الله تعالى."

١٩١٢/٤/٩

"كنت أذهب إلى المدرسة، وفي الطريق كان أحد يقيم مصارعة بين طيور السماي، فاشترت واحدا منه، فحين أتيت به إلى البيت وجدته فاسدا جدا، فعدت به إليه. فقال: أنت أفسدته، فخذ الثاني. فبدا هو الآخر نشيطا، فحين عدت به إلى البيت وجدته هو الآخر فاسدا جدا. ثم أخبرني أحد أن هؤلاء يجعلونها على هذا النحو نتيجة سقيهم الخمر لها. فذلك الرجل إلى الآن يحترمني، بينما أعدّه أيضا من أساتذتي إذ علمني اجتناب الخداع."

١٩٠٩/٥/٣٠

"حينما أتيت إلى راولبندي، كان في جوارنا بيت لأحد الإنجليز اسمه "الكسندر". مرة أخذني شخص إليه، فأعطاني كتابين مطبوعين طباعة جميلة، هما: ميزان الحق، وطريق الحياة، فقرأتهما قراءة متأنية. كنت عندها صغيرا ولكني أحب القرآن الكريم منذ الطفولة، فوجدتهما كتابين سخيفين جدا. عندها ما كنت أعرف شيئا عن روح القدس الذي يعتقدون به (أي المسيحيون). لقد رأيت أن الذين يتضرعون إلى الله تعالى لا يفشلون في المناقشات قط."

١٩٠٩/٥/٢٠

"ترملت امرأة من عائلتنا، فأرادت أن تتزوج شخصا، فهو أرسل إلي رسالة سألني فيها: هل تأذن لي بطيب خاطر أن أتزوجها؟ فقلت له في الجواب: نعم وبكل سرور، إنّ هذا الأمر مبارك جدا. فاستغرب ذلك الشخص من أنني لم أكثرث في ذلك لمرتبتي السامية التي كنت أحظى بها. قلت له: "ما دام الله تعالى قد أمات زوجها، إذن فهذه هي مشيئته الآن."

١٩٠٨/١٠/١٥

"إن الحكيم فضل الدين صديقي منذ الطفولة، وحين كان شيخ محمد جي يأتي من مدينة كوهات ليلقي الوعظ في مدينتنا كنا نتوجه إلى الاستماع إلى وعظه بمنتهى الشوق."

الأهل والعيال

١٩٠٩/٥/٢٢

"عندما أردت أن أتزوج قلت لأستاذي الذي كان سيعقد القران، أنا الذي سأدفع المهر ولست أنت. فنار الضجيج في النساء أن الشاب قد تكلم، وانزعج أستاذي أيضا، وسخطت النساء أيضا، إلا أنني لم أوافق على أكثر من ٥٠٠ روية مهرا.

١٩٠٩/٥/١٦ في المسجد المبارك

"كانت لي ثلاث زوجات؛ واثنتان منهن كانتا تتشاجران وتتخاصمان، فقد بذلت جهدا كبيرا في التعرف إلى سبب الخصومة، لكنني إلى الآن لم أعرف

بعض الأمور المسببة للنزاع. فإذا كان هذا هو حال الإنسان عن أهل بيته فكيف يمكن الثقة والاعتماد على الأحداث الأخرى والتاريخ."

١٩٠٩/٦/٨

بعد صلاة العصر، قبل الدرس، في المسجد المبارك
 "حين حملت زوجتي بابني محمود أحمد قلت لها أن تكثر من الكتابة، وكنت
 أهدف إلى معرفة هل سيكون الولد مولعا بالكتابة أم لا. ثم حين أوشك محمود
 على الوفاة أخذتُ قلما وروبية ووضعتُهما أمامه، فمدّ يده كل مرة إلى القلم فقط."

١٩٠٩/٦/١٤

"كنت قد تزوجت حديثا، وكانت زوجتي صغيرة السن، وذات يوم قال أحد
 أصدقائي: إن زوجتي تريد زيارة زوجتك. فقلت له أهلا وسهلا وبكل سرور.
 فجاءت، وفورَ إلقاء النظر على زوجتي تأوهتُ حسرة وقالت لها: لقد تعس
 حظك، فأنت ما زلت طفلة وزوجك أبوك وإخوتك من المولوي المحترم الذي
 هو في سن أهلك. أما أنا فقد زوجت ابنتي شابا وسيما في مستقبل العمر.
 فسألني زوجتي من هذه؟ فقلت لها إنها زوجة صديقي. فأخبرتني زوجتي أمامها
 ما سمعتُ منها، فانصرفتُ فورا، فلم أحتج لأقول شيئا. ثم شاءت الأقدار أن
 يموت صهرها بالسل عاجلا، فحين زوّجت ابنتها من شخص آخر اضطرت
 بعد عدد من الأيام لأخذ الطلاق منه بدفع ألف روية تقريبا، وتلك الفتاة ما
 زالت موجودة. لهذا قد نهي القرآن الكريم عن السماح المُطلق بإدخال النساء
 إلى البيوت، راجع سورة النور."

١٩٠٨/٨/١٩

"في لدهيانه أصيبت زوجتي هذه بألم في أذنها، فدعوت طبيبة مسيحية، فعالجتها فشفيت. فلما كانت قد خدمتها كثيرا فقد أصبحت صديقة لها، وبدأت تزورها يوميا. ذات يوم قالت لها، يا سيدتي! إن دينك الإسلام جيد جدا، وإنما لا أفهم لماذا يعبد الرجال. فلما كانت زوجتي الكبرى حية فقد أثار قول الطبيبة في قلب زوجتي الصغيرة كثيرا. ثم ذات يوم أخذتها إلى منزلها للزيارة، فاعترضت على الحجاب، ولم تستطع زوجتي أن تدحض اعتراضها هذا أيضا. بعد ذلك ذهبتُ إلى لدهيانه، فأخذت زوجتي وتوجهت إلى مالير كوتله، وهناك وصلتُ إلى أستاذة مسيحية لولي عهد والي مالير كوتله رسالة تلك الطبيبة نفسها، وأخبرتها فيها عن مجيء زوجتي إلى مالير كوتله، وأشارت عليها أن تزورها، فعرفت بذلك، فسألت زوجتي هل كنتِ قد قابلت أي سيدة مسيحية في لدهيانه؟ فقالت: نعم، فقد عالجتُ أذني طبيبةً مسيحية أوروبية، ثم قصت علي قصتها بأسرها. فشرحتُ لها مسألة التعدد كثيرا، لكن زوجتي لم تفهم ولم تقتنع بجواز التعدد. فانصرفتُ إلى الدعاء، فنتيجة لذلك أرسل إلي أحد في تلك الفترة روائيةً للكاتب "عبد الحليم شرر"، اسمها "فلورا" أو "فلورندا" على ما أذكر. فقرأتها زوجتي كلها بتدبير، فافتنعت بقولي، ومنذ ذلك اليوم بدأت تنفر من هؤلاء السيدات المسيحيات أشد النفور."

١٩١٢/٥/١٨

"منذ أن تزوجت لم أفتح إلى هذا اليوم أي حقيبة لأبي من زوجاتي."

 ١٩١١/١٢/١٧

"ذات مرة أردت أن أتزوج امرأة مسيحية، فامتنعت فقط بسبب مشاكل الحجاب."

 ١٩١٠/١١/١٠

"مات أولادي الكثير، فكلما مات ولدٌ لي حسبت أنه كان فيه عيبٌ، وأنّ الله سوف يرزقني خيرا منه. فلاستيئاس من نعم الله عمل الكافرين، فحين لا يُقدّر المرء النعم الإلهية تُسلب منه. بينما الحقيقة أن نعم الله ﷻ لا تزول إلا بالكفر بها، فعلى المرء أن لا ييأس إذا زالت منه نعمةٌ."

 ١٩٠٩/٣/٤

"حين مات أولادي ألقى في روعي، لو متّ أنت لحصل الفراق بينك وبينهم."

 ١٩١٢/١٠/٢٠

إن ترجمة الشاه ولي الله رحمه الله الفارسية للقرآن الكريم هي الأحبُّ إلي من بين ترجمات القرآن الكريم، كنت أنوي أن أدرسها ابنتي أمامة. لذا بدأت أدرسها أولا الفارسية، وكانت البنت زكية جدا، ونشيطة في القراءة والكتابة، فبدأت أدرسها شخصا كتاب: "كرهما" أولا. وفي أحد الأيام وصل الدرس إلى بيت شعر بالفارسية ما معناه: اسقني أيها الساقى خمرا أحمر. فاحترتُ في أمري ولم أعرف كيف أشرح لها هذا الكلام. فقلت: يا أمامة! اتركي الدرس اليوم وسندرسه غدا. وفي اليوم التالي مرّقت الصفحة المحتوية على العبارة المذكورة آنفا

وبطريقة لا تشعر بها. وعندما بدأتُ الدرس في اليوم التالي قالت: أين الدرس المحتوي على تلك العبارة؟ وأخذتُ تلوم من أتلف الصفحة. باختصار؛ قد درّستها الكتاب "كرّما" عدا الصفحة المحتوية على العبارة السالفة الذكر. ثم وجدت كتابي "گلستان" و"بوستان" غير قابلين ليدرسا لها. أما كتاب: "أنوار سهيلي" فكان أسوأ منهما أيضا. ولما لم أجد كتابا مناسباً آخر قلت لها: إذن إقرئي ترجمة القرآن للسيد شاه ولي الله.

عهد الشباب وطلب العلم

١٩١٠/٣/١٥

"ذات مرة ذهبتُ من آغره إلى بهوبال مشيا على القدمين ولم أشعر بأي تعب، أما الآن فإذا مشيت إلى منزل النواب يبقى أثر التعب لعدة أيام."

١٩١٠/١٠/٢٩

"في الشباب كنت أستطيع عبور نهر جهلم ساجحا بسهولة يوم كان النهر فياضا."

١٩١٢/٣/١٧ بعد صلاة الظهر

"إن قوى الإنسان تختلف من شخص إلى شخص؛ ففي أيام الدراسة لم أكن أتناول عدة وجبات دون أن أشعر بأي ضعف قط."

١٩٠٩/٥/١١ بعد صلاة الظهر

"لقد قمت بالطواف سبع مرات وصليت ركعتين في حجّتين، فهذا فضل الله. لأن ذلك لا يتيسر لأحد إلا بصعوبة بالغة، بل يستحيل أن يفوز أحد

بهذه الفرصة. في المطاف يُذكر الله ﷻ وحده ليل نهار، وليس في العالم أي مكان غيره يُذكر الله فيه بهذه الكثرة، فالقدر الذي تنزل به الرحمة هناك لا يمكن أن ينزل مثله في مكان آخر."

١٩١٢/٢/١٦

"سألني أستاذي: كيف ستدرس القانون للشيخ أبي علي ابن سينا؟ قلت له أن أستطيع قراءة القرآن الكريم فأين القانون منه؟"

١٩٠٩/٥/٢٧

"من الشرك أن يتكل المرء على الشهادة أو الوثيقة. ذات يوم جاء مسؤول حكومي من مديرية التربية إلى مدرسة أدّرس فيها في بند دادنخان وقال لي أثناء الحديث: إنك معتر بشهادتك كثيرا، فقلت لأحد زملائي: أخرج لي هذا الذي يعدّه إلها، ثم مزقتُ ورقة الشهادة الدراسية أمامه ورميتها. فاستغرب جدًّا وقال لي: هل عندك ثوران؟ قلت لا، ثم سأل هل أنت غاضب؟ قلت لا، إنما عددت هذه الشهادة ما تبعث على التكبر والاعتزاز وعددها هي التي ترزقني، فقد بينت لك بتمزيقها أني لا أتكل على هذه الأشياء، فالحمد لله."

١٩١٠/١١/٢

"لقد قرأت كتب جميع الأديان مثل الكتاب المقدس وديساتير والفيدا واستمعتُ إليها. فوجدتُ القرآن الكريم حائزا على العظمة أكثر من الجميع، ولم يُضلني أي منها. فالحمد لله رب العالمين."

٢٠١٢/١١/٢

"لقد نصحتُ الناس كثيرا في عزّ الشباب، وذات مرة نصحت أحدهم كثيرا، فبدأ يجھش بالبكاء، فسألته لماذا تبكي؟ فقال إن كلامك يخرس اللسان، لكن القلب لا يقتنع. وكذلك كنت أوصي أحدهم بالصلاة مرارا، ثم قلت لأحد آخر أن ينصحه بالصلاة. فحين نصحه بالصلاة قال له تاركُ الصلاة: كان يمكن أن أصلي الصلاة، إلا أن نور الدين لا يدعني أصلي، لأني قد عقدت العهد أي لن أقبل ما يقوله لي نور الدين. فطلب مني ذلك الرجل أن أنصح تارك الصلاة أن لا يصلي فسوف يبدأ بالصلاة، لأنه سيفعل عكس ما أقوله. فقلت له: أنا أخشى أن يخطر بباله أنه لم يقبل قول نور الدين طول الحياة، فليقبل منه هذا القول، فامتنعتُ ولزمتُ الصمت."

١٩١٠/١/١٢ قبل صلاة المغرب في المسجد المبارك

"لقد رأيت - في عالم الرؤيا - حضرة الخواجه شاه سليمان التونسي وحضرة الشاه ولي الله وحضرة الشاه غلام علي، ومن الصحابة سيدنا عليا كرم الله وجهه شخصيا. كان عمر حضرة الشاه سليمان ٢٢ عاما عندما تولى الخلافة، وطال عهد خلافته ٧٨ عاما، إذ قد عاش مائة عام. كان الشاه سليمان من قبيلة روهيلي الأفغانية. كان حضرة الشاه ولي الله فقيها ومحدثا وحكيما وصوفيا، وكان الشاه غلام علي سيدا من سكان بطالة."

١٩١٠/١/٢٦ بعد صلاة الفجر

"لقد قرأت كتب جميع أديان العالم واستمعت إليها مثل زند بازند سفرنج ودرساتير والكتاب المقدس والفيدا والحيتا وتدبرتها كثيرا، إن أفضل ملخص لمحاسن جميع كتب العالم بأسره هو القرآن الكريم. ولقد قرأت في ملفوظات مولانا المولوي فضل الرحمن الغنج مراد آبادي أنه اطلع على ترجمة "البهاكا" يعود تاريخها إلى مائتي عام قبل ترجمة الشاه عبد القادر، التي تُرجم فيها اسمُ الله "خلاب"؛ فتشوقت إليها لعلي أجد فيها كلمات مفيدة جدا لكنني لم أعثر عليها."

١٩٠٦/١/١

"لقد قرأت الأحاديث ببذل مال كثير وجهد جهيد ووقت طويل، وقرأتها كثيرا لدرجةٍ لو شرحتها لكم لذهلتم، فإذا ذكرتم أمامي الآن كلمة من القرآن الكريم وأخرى من الحديث وثالثة من شخص آخر، فسوف أخبركم أيها من القرآن الكريم وأيها من الحديث وأيها لشخص عادي."

١٩٠٧/١/١

"ذات يوم قال لي النبي ﷺ في الرؤيا أن أردد دعاء ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بكثرة."

١٩٠٩/٥/٢٤ بعد الظهر

"مرة توظفتُ براتب قدره روبية ونصف روبية شهريًا، ولم أذكر لصاحب العمل كم أحوز من العلوم والكمالات. وبعد فترة حين انتهت علاقة الوظيفة بيننا، ذهبْتُ إليه وجلست إزاءه على سرير وثير، وقلتُ: أنا طيب حاذق،

أنا محدث، أنا أديب وما إلى ذلك. فاندعش بسماعه هذا الكلام وجعل يعتذر إلي."

١٩١٢/١١/٩

"عندما كنت شابا، ذات يوم جُعِلت حَكما في قضية ولم يكن لي إمام بها، وكان المفوض قد حضر من بريطانيا حديثا، فذهبتُ إليه وقال لي: لقد ادّعت فتاة بالميراث، فماذا تقول؟ فاستخرجت له آية من القرآن الكريم، فقال حسنا، فهل القرآن الكريم يؤمن به جميع المسلمين؟ قلت نعم، فحكم. وأعطى الفتاة حقها، وكتب في الحكم أنه تم بحسب التقاليد السائدة. فقال لي الفريق الثاني: ما هذا الظلم الذي ارتكبه؟ فقلت: هكذا قد عمل أسلافك، (إذ كان من السادات). فاستأنف الحكم إلا أنه لم يحدث شيء، لأن المفوض كان قد كتب في الحكم التقليد السائد أيضا بهذا الخصوص. وهناك حادث آخر وهو أن الناس يرونني سيئا لأني كنت أقرأ الفاتحة خلف الإمام، وقال أحدُ ملك فتح خان: لماذا تزور نور الدين؟ وبالمصادفة قال زعيم مثله في المحكمة عند الاستفسار أننا لا نؤمن بجزء القرآن الكريم المتعلق بميراث البنات. فقال له فتح خان: إن نور الدين يقرأ الفاتحة خلف الإمام بينما لا تؤمنون بالقرآن الكريم أصلا."

١٩٠٩/٥/٢٥ بعد صلاة الظهر في المسجد المبارك

"لم يكتب أي واحد من الأئمة الأربعة، وأئمة الحديث، وأئمة التصوف، وأئمة الكلام، تفسير القرآن تفسيراً كاملاً. كنت مولعا بالتفسير منذ الصغر، وبدأت كتابته أكثر من مرة، ولكن لم أتمكن من إكماله. مرة دعوت الله ﷻ

كثيرا ليوفقي لكتابة التفسير، فرأيت في الرؤيا إني أعطيتُ دواة لكنها خالية من الحبر، ففهمت من ذلك أنه ينبغي الإكثار من الدعاء وذلك لأن المحبرة لا تكون ذات فائدة إلا إذا صب فيها الحبر. وفي المرة الثانية أعطيتُ في الرؤيا قلمًا فيه شقّ واسع. ففهمتُ أنه لا فائدة من قلم مشقوق. والسبب وراء عدم تمكّني من كتابة التفسير أنه كان مقدرًا أن تُطلق عليّ كلمة "إمام".

١٩٠٩/٥/٣١

"لقد اطلعت على فهارس طويلة ضخمة حيث صنفتُ كتب علم الرؤيا ضمن العلوم المتنوعة، فلما كنت قد قرأت ذكر رؤيا في القرآن الكريم، لذا لم أكن أفتنع بهذا التصنيف. فاستقر رأبي على أن كتب الرؤيا يجب أن توضع مع كتب قواميس القرآن الكريم والحديث. فوضعت كتابي تعطير الأنام وكامل التعبير وغيرها في مكتبي مع المفردات للراغب ومجمع البحار، فأعجب بهذه النقطة جدا المولوي المرحوم قائم الدين السيالكوتي." (كان هذا الشاب يتقن اللغة الإنجليزية والعربية)

١٩٠٩/٥/٣١ بعد صلاة الظهر

"لقد أجريت بحثا كبيرا فلم أجد أحدا في صحابة النبي ﷺ أصمّ، وهذه نقطة معرفة كبيرة."

١٩٠٨/٨/١

"حين قرأت كتاب "الحق الصريح في أحكام الميت والصريح" لمولانا محمد إسماعيل الشهيد رحمة الله عليه، وجدت فيه القول: إنّ الله ﷻ ليس "جوهرًا"

ولا "عرضا" ولا "جسما" بدعة. وهذا كان في طفولتي، وكنت أخشى أن يعترض أحد فيقول إذا كان ذلك بدعة، فهل يمكن أن يقال إنه جوهر وعرض وجسم وغير ذلك؟ باختصار؛ عندما كان يذكر أحد هذا الكتاب كنت أدعو الله تعالى دائما ألا يعترض أحد على الكلام المتعلق بالجواهر أو العرض،* فلم يعترض أحد على ذلك أثناء فترة دراستي. ولما ذهبت إلى بهوبال، طلبتُ من أحد المفتين هناك أن يُحضر لي بأي طريق كتاب "فصل الخطاب ل"خواجه محمد بارسا"، ففعل. وعندما فتحته وقع نظري مباشرة على المكان الذي ورد فيه "إن الذي يكون من السادات ثم يكون ملكا أيضا، فمن الحمق الشديد أن يقال عنه مثلاً: إنه لا ينحدر من عائلة منحطة، وأنه لا يتعاطى الخمر. فعندما قلنا عن الله ﷻ إنه "الله" فلم يعد هناك مجال لنقول إنه جوهر أو عرض." فسررت بقراءة هذا القول كثيرا. ثم اقتنيت هذا الكتاب لنفسِي، وهو موجود في مكتبتِي، فالحمد لله على ذلك. وقد قرأته مرارا. إنه كتاب تصوف، لذلك قد اخترتُ اسم "فصل الخطاب" عنوانا لكثير من كتيبي."

١٩٠٨/٨/٣

"مرة كتبت إلى الأساتذة الألمان الذين كانوا يتقنون العربية: ما هي الكتب التي تجب مطالعتها من أجل إتقان اللغة العربية؟ فضمن الجميع قائمة الكتب التالية:

* الجواهر والعرض مصطلحان في المنطق والفلسفة. والمراد من الجواهر: الموجود القائم بنفسه حادثا كان أو قديما، والمراد من العرض هو صفات الجواهر القابلة للتغير. (تفصيل كشف اصطلاحات الفنون للقااضي محمد علي بن علي الفاروقي التهانِي.) (المترجم)

القرآن الكريم، صحيح البخاري، صحيح مسلم، "الأم" للإمام الشافعي، إحياء العلوم، جميع كتب الجاحظ، الكامل للمبرد، العقد الفريد، السيرة النبوية لابن هشام، تاريخ الطبري، فتوح البلدان، تقويم البلدان، مقدمة ابن خلدون، الشفاء، رحلة ابن بطوطة، ألف ليلة وليلة، كليلة ودمنة، المعلقات السبع، ديوان الحماسة، الأغاني، ديوان جرير، سقط الزند، القانون لابي علي سينا."

١٩٠٩/٣/٢٠

"في الطريق إلى المدينة رأيت شابا يسافر مشيا على القدمين، وأخيرا حين أرهقه السفر اضطر لیسحب أحد الركاب عن راحلته وركب. عندئذ تذكرت التوجيه الإلهي ﴿وتزودوا﴾."

الأساتذة

١٩١٠/٢/٨

"لنا أربعة مرشدين، هم: محمد جي البخاري، وعبد القيوم المحترم، والشاه عبد الغني المحترم، وميرزا غلام أحمد المحترم المسيح الموعود."

١٩٠٨/٨/١٢

"كان لنا في مكة المعظمة شيخ درست منه صحيح مسلم، واسمه الشيخ حسين. ولقد قال لي المولوي رحمة الله: إن الناس منذ عشرين سنة يبحثون من أين يأكل هذا الشيخ، ولم يعرف أحد إلى الآن من أين يأكل."

١٩١٠/٥/١٣

"كان شيخني عبد الغني شاه المحترم يقول: يقول الله ﷻ في سورة النور في القرآن الكريم أنه قد أنزل فيها أحكاما مهمة جدا، لكن سكان الهند لا ينتبهون إلى أي جزء منها ولا يعملون به."

١٩٠٩/٥/٢٤

"لقد كتب الحكيم فضل الدين أثناء مرضي قلقا إلى سيدنا المسيح الموعود عليه السلام بأبي مريض، فجاءني حضرته مضطربا إلى جامون. هناك قال حضرته عليه السلام في جلسة إن الأنبياء عليهم السلام يكونون بمنزلة ناقة الله، وأتى لأحد أن يمد يده إليهم بسوء؟"

١٩٠٩/٥/٢٥

"كان لي أستاذ هو المولوي رحمة الله وقد خاض كبار المعارك مع المسيحيين، كان من سكان كرانه."

١٩١٢/١٠/٣١

"لقد رأيت في أساتذتي خصلة أنهم لم يكونوا يتحملون أدنى معارضة، وإنما رأيت المولوي رحمة الله وحده الذي ظل يبتسم مع أبي عارضته في الرأي أشد المعارضة، فلم أجد هذه الرحابة عند أيٍّ من المشايخ."

١٩١٢/١٢/٧

"قال أحد أساتذتي في الطب لأحد الأثرياء أن يخلط الدواء الفلاني في الماء الذي يغتسل به، فقال له: أيها الطبيب، أنا لم أغتسل منذ ثلاث سنوات. فسأله

أستاذي هل تغسل وجهك أم لا؟ فقال: أبلبل المنديل بالبصاق وأنظفه به. ثم سأله الطبيب: إذن ما هو دينك؟ فقال، أدين بدين مومس جميلة، فأتمتع بها معتقنا دينها. كان ذلك الثري يحكم مئات الألوف من الناس وكان مالكا لبلد كبير."

١٩٠٩/٦/٣

"كان لي مرشد اسمه عبد الغني، وكان يقيم في دهلي، وكان مرزا كامران من مريديه، ذات يوم أخبره مرزا كامران قائلاً: أيها الشاه المحترم، تكون الأميرات في القلعة ليلاً عند الخدم المنحطين، وتكون نسوتهم عند الأمراء. فأمر الشاه مرزا كامران أن يخرج من القلعة ولا يقيم فيهم ولا يقيم في مثل هذا المكان أبداً. فخرج مرزا كامران وقت العصر من القلعة، ومساءً تلقى الشاه المحترم إلهاما "لقد دمرت أهل القلعة"، إذ كنا قد أجننا العذاب عن أهل القلعة ما دام مرزا كامران فيها، فلما خرج منها الآن مرزا كامران لذا نرسل العذاب على القلعة. فكان حضرة الشاه يقول: قد أصابني الأسف على ذلك. ثم فُتحت القلعة ودهلي، فاضطر الشاه المحترم مع أهله للفرار من هناك، ثم وصل من هناك إلى كراتشي ومنها إلى مكة المعظمة بتكبد آلاف المشاكل والمشاق."

"كان أحد الصالحين وهو محمد عمر ابن المولوي إسماعيل الشهيد الدهلوي رحمه الله يقيم في دهلي، فقد سمعت من المولوي رحمة الله المحترم يقول: كان محمد عمر يرافقه ذات يوم في دهلي فسمع صوت مرور مركبة الملك فشحب وجهه فوراً فجلس يتبول، ثم جاء الركب الملكي فمرَّ. وبعده حين نهض كان وجهه منبسطة، فسأله أحد: لماذا كنت مضطرباً والآن مطمئن؟ فقال: حين شعرت دنو ركب الملك قادمًا إلى هنا خفتُ أن يضيع إيماني. كان النواب وزير الدولة

مريداً لمحمد عمر نفسه ويعظمه كثيراً، فجاء إلى بيته ذات يوم للزيارة، فلما سمع محمد عمر أن وزير الدولة جاء لزيارته قفز من على الجدار الخلفي للبيت وانطلق قائلاً: يسودُّ القلب بزيارة الأثرياء وتسوده الغفلة."

١٩١٢/١١/٩

"كان أحد أساتذتي شيخاً، وكنت أسافر معه من أجل التعلّم. فذهب إلى منطقة معينة من أجل استعادة جواميس مسروقة لشخص. كنا (الطلاب) معه، فأقمنا هناك تسعة عشر يوماً. ولكن أهل القرية ظلوا مصرين على قولهم إن الجواميس ليست عندهم. فبذلنا قصارى جهدنا ولم نعر عليها. وفي النهاية قال لي أحد الطلاب: سوف يؤتى بالجواميس إلى هنا قبل مساء اليوم. سألته: وكيف ذلك؟ قال: إن هؤلاء يعتقدون أنه لو رفع قرشي الأذان في قرية حلّ بها الدمار، واليوم سأذهب بك إلى وسط القرية حيث يجتمع الناس وأقول لك: "اليوم، اليوم"، فيجب أن تقول أنت: "لا، لا، ليس اليوم". ففعلنا، فجاءنا شخص مسرعاً وقال: ماذا تقولان؟ فقال له هذا الطالب: إن زميلنا هذا قرشي الأصل ويريد أن يرفع الأذان. فرجع الشخص إلى الناس فوراً، ثم عاد بعد برهة من الزمن وقال: لا ترفع الأذان، فإن الجواميس سوف يؤتى بها اليوم حتماً. فجيء بها وسُلمت إلى شيخ كان يملكها."

١٩٠٨/٨/١٤ أثناء خطبة الجمعة

"لقد رأى في المنام أحد الإخوة المشايخ في الركوع أو السجدة في الصلاة في المسجد النبوي أنه أحضر جثمانه، حتى رأى وجهه من الجثمان، وكان ذلك

الأخ الشيخ صهرَ حضرة الشاه عبد الغني، فسرد الرؤيا على الأخير وقال إنه رأى كذلك، وأن الجثمان كان يتعرق، وكان يبدو من ذلك العرق كلمات "مع الذين أنعم الله". فقال له حضرة الشاه: إن وفاتك قد اقتربت جدًّا. فمات فعلا بعد وقت قصير. فسألْتُ الشاه المحترم كيف عرفت ذلك؟ فقال: لقد ورد في الحديث إن المؤمن يتعرق."

المعارف والأصدقاء

١٩٠٩/٦/٢

"كان لي صديق يجيني كثيرا وكان متعودا على شرب الشاي، ذات يوم جاء لزيارتي، فطلبت إعداد الشاي له وذكرت له بسرور أنني قد طلبت لك إعداد الشاي. فاستشاط غضبا عند سماع ذلك وانطلق قائلاً: أما الشاي فنقدمه حتى للأراذل، فهل تمنّ علي بإعداد الشاي من أجلي! باختصار؛ قد انطلق قبل تحضير الشاي. من هنا نتبين أن الإنسان إذا كان لا يستطيع معرفة إرضاء إنسان آخر فأنى له أن يكتشف برأيه طرق رضوان الله ﷻ؟"

١٩١٠/٢/٢

"عندما كنت مقيما في رامبور جاءني أحد الأصدقاء للمعايدة يوم عيد الفطر وطلب مني أن أطعمه الشعيرية ذلك اليوم، قلت له إن سكان الحي الذي أسكن فيه قد اتفقوا على أن لا يطبخوا الشعيرية اليوم، ويمكنني أن أطلبها لك غدا. فاستغرب وغضب جدا عند سماع هذا القول وقال: لقد أفسدت سكان الحي كلهم."

١٩٠٨/٩/٢٦

"رأيت أن عمل أحد أصدقائي لا يستقيم، فرغبت في التجارة، وقدمت له ثلاثة آلاف روبية من جيبي، فأخذ مني ثلاثة آلاف وقال: ما الذي يمكن أن تفيدني هذه الثلاثة آلاف؟ فلن تفيدني في شيء. قلت له: كان يجب أن تشكر، فلما لم تشكر فلن تريح أبداً وأؤكد لك ذلك، فهذا ما حدث فعلاً."

١٩١٠/١/١٩

"كان لي صديق صالح محسن وكان مسناً واسمه المنشي جمال الدين، عندما كان يلبس قلادة اللآلئ البراقة ينظر إليّ ويقرأ الآية ﴿مَنْهُ حِلْيَةٌ تَلْبَسُونَهَا﴾ (النحل: ١٥)."

١٩١١/٦/١٢

"ذات يوم قال لي ميان جمال الدين رئيس وزراء بهوبال: ميان، أريد أن أقول لك شيئاً بشرط ألا تغادر من هنا. قلت: تفضل بما عندك. قال: أحبك."

١٩١٠/٣/٨

"كان لي أحد المعارف من سكان دلهي، بعد أحداث التمرد درس الإنجليزية وصار من كبار الناس حتى ارتقى إلى مناصب مرموقة مثل القاضي. ابنه لم يدرس ولم يتثقف، فأراد مضطراً ليوظفه في الجيش، وزار أحد كبار الإنجليز وشفع لابنه. فقال له الإنجليز: لو لم تكن من سكان دلهي، لووظنا ابنك في الجيش حتماً. فانظروا ما أسوأ نتائج التمرد والغدر!"

١٩١٢/٢/٢٦

"ذات يوم جرى الحديث في المجلس عن الشفاعة. قلت إن الشفاعة ستكون بالإذن، فقال لي أحد أصدقائي الذي كان يجلس قريبا مني وكان صالحا وورعا: ما هذا الذي تقول بأن الشفاعة ستكون بالإذن. فقد ارتكبنا سيئات كثيرة اعتمادا على الشفاعة، فالיום قد دمرت مشاريعي كلها."

١٩٠٩/٥/٨

"كان لي صديق قد توفي صالحا تقيا إلا أنه كان قد قضى أوائل عمره في الفسق والفجور، وكان قد سرد بنفسه ذات يوم قصته أنه كان أستاذاً في لاهور، وهناك سمع أن مومسا في أمرتسر موظفة عند زعيم كبير ولا تتوجه إلى غيره، فقال: عندما حصلتُ على الراتب قلت لتلاميذي: انظروا اليوم سوف نفتح هذه القلعة. ثم وصل معهم - وربما كان تلامذته أيضا من هذا القبيل - إلى أمرتسر، فدخل بيت المومس ونزع عمامته ووضعها عند صاحبة البيت الذي تقيم فيه وقام ضاماً يديه. فلم تلتفت إليه، فلما تأخر كثيرا، قال له تلامذته: يا مولوي، أما هذه فلا تكاد تلتفت إليك، فلننصرف. فلما سمعت صاحبة البيت لفظة "المولوي" سألتني هل أنت مولوي؟ قلت لها: نعم أنا مولوي، وكل هؤلاء تلاميذي، اليوم تلقيت راتباً وجئت به كله هنا، فهذا هو، ثم وضعته أمامها، فتأثرت كثيرا، وأثرت كلمة المولوي فيها فقالت: مهما يكن من أمرٍ أستجب لك، يمكن أن تأخذ هذه المومس لليلة واحدة. فجئت بها فوراً إلى لاهور بالقطار، ثم جئت بها إلى البيت جالسا في عربة مكشوفة مرورا من بوابة دهلي بكل فخر وزهو زاعما أنني لست أقل من أحد. باختصار؛ كانت حالته

سيئة جدا. ثم اهتدى بسماع آية واحدة فقط، وهي: ﴿لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الحديد: ١٧)، فأثرت هذه الآية في قلبه بحيث بدأ يتحسن وتحسن كثيرا جدا ومات صالحا.

١٩٠٩/٥/٣٠

"جاءني شخص وقال لي باكيا: إن زوجتي أصيبت بالزهري. كنت أعرف أن تلك المرأةصالحة أي ليست بعيا، فاستدعيته لأرى جروحها فأرثني يدها. فقلت هذا الجرح ليس ناتجا عن الزهري قط، بل هو نتيجة الحرق. باختصار؛ أخبرتني بصعوبة بالغة أن زوجها لا يعجبها، فكانت تتظاهر بشيء وفي الحقيقة كان أمر آخر."

١٩١٠/٢/١٢

"لقد اعترض علي بعض أصدقائي: لماذا تُحسن الظن لهذه الدرجة؟ فقلت لهم هذا ما أخبرني به الله ﷻ مباشرة، فلماذا لا أجتنب سوء الظن؟ إن طريق اجتناب سوء الظن المذكور في الركوع الأول من سورة النور."

١٩١٢/١٠/٤

"كان لي صديق من الأمراء ولي صديق آخر اسمه أحمد سعيد، كان أحمد سعيد يُحضر من الناس الأقمشة ليخيطها الأمير وكان يقتات من ذلك. ذات يوم قال لي أحمد سعيد: إذا أردت أن تخيط لك ثيابا فأرجو أن تطلب ذلك مني، فالأمير يخيط الثياب وسوف أطلب منه ذلك، ولا تطلب منه ذلك شخصيا وإلا فلن يأخذ منك الأجرة. فقلت له ذات يوم: أيها الأمير، ما زلت

تحافظ على بعض عادات الأغنياء؟ فقال: يا ميان، إن العادات الفاسدة لا تكاد تُترك بسهولة."

١٧/٣/١٩١٢ بعد صلاة الظهر

"كان لي صديق من الأغنياء وكانت تفوته الركعة الأولى من صلاة الفجر عادة إذ كان يتأخر عنها، وكان هناك حافظ أعمى، يقول له دوما: إنك تتأخر عن الصلاة دوما، فهذا علامة النفاق وعدم الإيمان. فلما اعترض عليه الحافظ الأعمى بتكرار وإصرار وشدة، دبر للحافظ الزواج، فصارت حالة الحافظ أسوأ منه، إذ لم يستطع حضور أول صلاة الفجر بعد الزواج."

١٥/٥/١٩٠٩ بعد صلاة الظهر

"لقد أقرضتُ الناس آلاف الروبيات إلى الآن، فكان واحد منهم فقط قد سدّد الدين بالضبط المبلغ الذي استدانه، وكان قد استدان تسع روبيات فقط ولم يسدّد لي أحد غيره المبلغ نفسه."

٣٠/٥/١٩٠٩

"كنت أمرّ من سوق "دِيّ" في لاهور، فلقيني شخص وقال لي: كنا قد عقدنا عليك آمالا كثيرة، قلت له قد قيل هذا قبلك أيضا، وقصدت الآية: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ (هود: ٦٣)"

٢٨/١٠/١٩١٢

"سألت أحد معارفي: ما هي علامة التحضر؟ قال إن علامة التحضر أنه إذا كانت القضية تتعلق برويتين، فليجرّها المرء إلى مجلس الملك (privy

(council)، ويصنع الأوراق النقدية المزورة. إذ لا يمكن أن تخطر هذه الأمور
ببال جاهل؟

١٩١٢/١٠/٢٨

"لقد قدم أحدهم اقتراحا في مجلس علمي، وألقى الخطاب بلهجة مؤثرة
وبجرقة بحيث بكى نفسه أيضا أثناء الخطاب، ومع ذلك لم يؤيد أحد رأيه.
أما أنا فلما لم أكن قد شاهدتُ مثل هذا المشهد في الماضي قط فأشفقت
عليه، وقلتُ واقفا: أنا أؤيدك، لكن النتيجة أن الناس ضحكوا بسماع قولي،
وطأطأ الجميع رؤوسهم، فاستغربت أكثر. ثم ضرب ذلك الرجل الطاولة
بوكزة، وظل يلقي الخطاب بكل حماس وقوة، لكن المجلس كان صامتا، وأخيرا
أنهى المجلس أحد العقلاء منهم، فلما انصرف الجميع استغربتُ لماذا أبدوا
هذا الجفاء والبرود لهذه الدرجة، ثم عند وصول الخطيب نفسه عند الباب
سقط بشدة، عندها عرفت أنه كان سكرانا. فالحالة العملية للوعاظ في
العصر الراهن متدهورة، وهم يعظون الآخرين."

١٩٠٩/٦/٢

"كنت مقيما في جامون، وكانت سيدة هندوسية تكنّ لي إخلاصا كبيرا،
وكان لي ولدان أحدهما فضل إلهي والثاني حفيظ الرحمن، فتوفيا كلاهما.
فقلت لي الهندوسية، إني سوف أشتري لك ولدين بصفات معينة، قلت
لها: كم أنت ساذجة، كيف يمكن أن يكونا لي، وكيف يمكن التعويض عن
ابني على هذا النحو؟"

١٩٠٩/٦/٤

"كان لي عدو كبير. فجاءني ذات يوم شخص يقيم عنده عادة وقال لي: أرجو أن توصلني إلى رئيس المديرية، فبإمكاني أن أثبت أن عدوك هذا ارتكب جريمة القتل. فقلت لصاحبي أن يصرفه، فلما سأل عن السبب قلت له لماذا تورطه في قضية وأنت صديقه؟ قال إنما ألزمه لكي أثبت أنه مجرم في القضية. قلت له أنت إذن منافق. فأنا لا أحب الناس من هذا القبيل."

١٩٠٩/٥/٢٧

"ذات يوم أكرمني شخص كثيرًا وقال لي: عندي ناقة سريعة رائعة يمكن أن تخرج عليها للنزهة. جلس معي أحد خدومه وكان المعني بالناقة لكي يساعدني في النزهة، سألته في الطريق كيف سيدك؟ فأطلق عليه شتيمة شنيعة وقال: لو خرج مساء أو ليلا من البيت لقتلناه فوراً."

١٩١٢/٢/١٦

"لم أثق قط بأربعة أصناف من الناس، هم الملحدون والروافض والمسيحيون والمنافقون في الحقيقة الذين يمكن أن يُعرفوا من خلال علامات النفاق. فالملحد الذي لا يؤمن بالله أصلاً كيف يمكن الثقة بحلفه، أما الروافض فاستنادًا إلى التقية يمكن أن يفعلوا ما يشاؤون، والمسيحيون يعتمدون على الكفارة، أما المنافق فلا يمكن الثقة به لأن ظاهره لا ليس كباطنه."

١٩١٢/١١/٩

"كان لي صديق فضيِّفني، وأراني بستانه، ثم أراني شجرة مانجو وقال مشيراً إليها: إن البستان كله لله، ويمكن أن تأكل منه أنت وأصحابك حيث تشاءون. أما هذه الشجرة فللسيد عبد القادر الجيلاني فلا تمسوها، قلت له: كان السيد عبد القادر الجيلاني عاشقاً لله ﷺ فكيف يمكن أن يرضى بأن لا يكون اسم الله على هذه الشجرة ويكون اسمه فقط؟ فقال كلا، أرجو أن لا تذكر اسم الله بحق هذه الشجرة. وبعده ببضعة أيام جاء فيضان جرف البستان كله بحيث لم يبق له أثر. فقلت له: لقد أخذ الله البستان كله بما فيه تلك الشجرة أيضاً، فلزم الصمت ولم يقل شيئاً."

الوطن .. بهيره وغيرها

١٩١٠/٢/٨

"عندما عارضني الناس في بهيره جلسوا عند الأبواب، ينهون الناس عن زيارتي، وهذا ما تسبب في ذبوع صيتي."

١٩٠٩/٥/١٧ بعد صلاة الظهر

"كان في بهيره صديقان حميمان، فمات أحدهما، وكان ورثته موجودين في مكان والثاني بنفسه كان موجوداً، فحصل نزاع بينهما، فطلب أحدهما مني الشفاعة عند الحاكم - الهندوسي - فنصحته كثيراً في الجواب وكتبت إليه الآية: ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ

أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦١﴾ (النساء: ٦١)، وبالمصادفة وصلت رسالتي إلى قبضة خصمه، فوشى بي عند الحاكم- الهندوسي، من طبقة كهتري- وقال له: إن نور الدين كتب بحقك "طاغوت". فقال: صدق، ثم سأله: أخبرني، ألسْتُ كذلك بحسب معتقدك أنت؟ فبهت النمام.

١٨/٥/١٩٠٩ بعد صلاة الظهر

"لقد ضيَّفتني أحد الأثرياء الذي كان يسمى "راجا" وأكرمني كثيرا، وأثناء تبادل الحديث علم أي من سكان بهيره، فتغير لون وجهه فور سماع بهيره، وهذا في سنة ١٨٦٠م تقريبا. فقال لي: لقد مارس المفوض الإضافي علي مظالم كثيرة وكان من بهيره. ثم قال: سوف أنتقم منه يوم القيامة، فقلت له لقد هاجر إلى المدينة الطيبة. فقال فور سماع ذلك: لقد عفوتُ عنه. فقد أثر فيه خبر هجرته كثيرا حتى بدأ يبكي. فانظروا كيف يدبر الله العفو بحق عباده عن تقصيرهم في أداء حقوق العباد."

٢٠/٥/١٩٠٩ أثناء درس الحديث

"لقد قال لي ذات يوم والد الحكيم فضل الدين، كلما جاء إلى مسجدنا بعض المشايخ وشرحنا لهم الوضع على انفراد، ومن ثم كانوا يلقون الوعظ على المسائل المعينة التي نذكرها لهم، فسألته: لعلك تراني إذن من الصالحين؟ فقال: أنت لا تستجيب لقولنا، أما الآخرون فيستجيبون لقولنا."

 ١٩٠٩/٦/٢٢

"مرة مررت بقرية من القرى المجاورة لـ "بند دادنخان"، واستضافني هناك شخص ضيافة لا يستهان بها، وعلمتُ أنه يحترم أبي كثيرا، فخدمني كثيرا وعاملني معاملة حسنة جدا لكوني أنحدر من عائلة صالحة. وعند مغادرتي القرية قال لي: اكتب لي من فضلك رقية أو عِظني بموعظة أو ما شابه ذلك. فخطرت ببالي آية من الذكر الحكيم: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ...﴾ (الأنعام ٥١)، وسررتُ بذلك أيما سرور."

 ١٩١٢/٣/١٧ قبل صلاة الظهر

"كان يسكن في قرية قريبة من بهيره ناسك يعد مسكرات ويشربها اسمه ميان حيدر، سألته ما هي علامة الإمام المهدي، فقال: عندما يأتي الإمام المهدي سيتقدم مركبته مئة وخمسة وعشرون ألف زاهدا من الزهاد الراقصين حاملين العصي، فقلت له: إن هؤلاء المشايخ لن يقبلوا، فقال: إذن يبدو أنه سيكون نزاع."

 ١٩٠٩/٦/١

"في مدينتنا شاب يبدو متينا من عائلة المومسات، يتكلم ظاهراً بمنتهى الخجل، لكنه لا يتحلى بالحياء، سأله أحدهم ما اسم والدك، فأخرج من جيبه رويبة واحدة وقال بأن هذا هو اسمه."

 ١٩٠٩/٦/١

"حين بلغت معارضتي في بهيره ذروتها وجعل الناس يخططون لقتلي، قال أحد إخوتي من الرضاة لأعدائي لأقتلن نور الدين بالسكين. وحين سمعت هذا

الكلام ذهبت إلى بيت أخي هذا بعد صلاة العشاء. ولما كنت قد رضعْتُ أمه لذا ما كانت تحتجب عني، فاستلقيت هناك ونمت نوما عميقا وبدأت أشخر، فظن الجميع أنني نمت، وكان في حسابي أن أترقب كيف يطعني بالسكين. حتى إذا انقضى نصف الليل أو أكثر أيقظتني والدة ذلك الشخص وقالت لي: يا بني اذهب إلى بيتك. قلت لها: لأبيتّ الليلة هنا إذ قد انقضى نصف الليل سلفا، قالت: لا، بل يجب أن تبيت في بيتك. قلت: حسنا، إذن لن أذهب وحدي، بل أرجو أن ترسلي أخي من الرضاعة معي حتى يوصلني إلى البيت، ففعلت. فجعلته يردفني قصدا ورحت أمشي قدامه، ولكنه لم يحرك ساكنا. وعندما وصلنا إلى البيت وقفت على أعلى أدراج الباب وأوقفته عند أسفل الدرج وبدأت أكلّمه بهدوء وسكينة لكي يهاجمني بالسكين باطمئنان. ولكنه قد دُعر جدا حتى طلب الإذن مني للانصراف. فقلت: حسنا، يمكنك أن تنصرف."

١٩٠٩/٦/١٠

"عندما كنت في بند دادنخان اكتُشف هناك تمثالٌ لزوجة الاسكندر، فاشترته أحد الإنجليز."

١٩٠٩/٦/١٤

"كان في مدينتنا عالم اسمه محمد أشرف ويقيم في المسجد، وكان قد وضع كل أمتعه وأثاثه من طحين وحقبية وجرات وكتب داخل المسجد، وكان حيثما حلّ أخذ معه كل الأمتعة، حتى إذا خرج إلى السوق حمل تلامذته جميع الأمتعة من كتب وجرات طحين. كانت مركبته عجيبة وكان يقول: إذا سألنا أي متسوّل

طحينا فهل سوف نعود إلى البيت لأخذ الطحين، وإذا طلب أحدهم الفتوى فلا تبقى لنا حاجة للبحث عن قلم ودواة، فنجد السهولة في كتابة الفتوى. ذات يوم جاءه شيخ وقال له: يا شيخ، أنت ترى الموسيقى سيئة، وأنا أستطيع أن أثبت أن الموسيقى ليست جائزة فقط بل هي ضرورية، فبالموسيقى تتم معرفة الله. وكان الشيخ وقت هذا الحوار خارج المدينة، فتوقف وجاء مع ذلك الشيخ إلى المدينة فدخل بيت مومس مع كل أصحابه وأمتعته وذلك الشيخ أيضا، حيث كانت تغني، فوقفوا هناك ساكتين. وحين لاحظتهم المومس هكذا أنهت الغناء ووقفت وقالت متوسلة: شرفوا وأكرموني. فقال لها: لماذا توقفت عن الغناء؟ ثم قال لذلك الشيخ لعلك وجدت الله هنا، لكن ابنتك وزوجتك محرومتان، يجب أن تدعوها أيضا وعلمهما حتى لا تبقى محرومتين من معرفة الله!"

١٩١٠/٥/٢٩

"كنت أتعجب دوما من أن العرب كانوا يعرفون الرحمن فلماذا كانوا ينزعجون ويكفرون؟ فذات مرة صادف أن حصل شجار وخصومة على قول "آمين" جهرا في مسجد الحكيم فضل الدين. فحين سألت أحدهم قال لي الناس أنهم يرون "آمين" حسنة جدا، لكن الناس عادة لا يجهرن بها قط، عندئذ فهمت المسألة وزال عجيبي."

١٩١٠/١١/١٣

"ذات مرة كنت أمر من زقاق، فتسول مني زاهد قرشا، فقلت له أيها الزاهد، إنك تقول إنك تركت كل شيء وإنك حر، فلماذا أنت محتاج لهذه الدرجة؟

أما أنا فرجل دنيوي، أي لي زوجة وأولاد أيضا، فقد احتجت إلي. أرجو أن تشرح لي ما هي الحرية وما نوعها، فأطلق شتيمة قذرة على شيخه الذي عوَّده على تناول الحشيش وطلب منه جمع النقود من أجل تناول الحشيش.

١٩١٢/٤/٢٣

"كانت مومس تسكن في مدينتنا، وكانت تأتيني كل يوم وتسال: ما المراد من التوبة؟ وقد تضايقتُ من كثرة سؤالها. ثم غابت لفترة معينة، ثم جاءتني يوما متبرجة بزينة كثيرة وقالت: كدثُ أموت جوعا نتيجة التوبة. ثم ذهبتُ إلى مكان كذا في أيام احتفالات "هولي" وكسبتُ كذا من المبلغ. فثارت ثورتي بسماع هذا الكلام، فقلت لها: انصرفي فورا واخرجي من بيتي. لن تتمكني من الاستفادة من مبلغ كسبته، ولن تُوفقي للتوبة أيضا. فانصرفتُ، وأصيبت بالشلل فور انصرافها. ثم جاءني أحد أقاربها مهرولا (طالباً علاجها) فقلتُ له: إنها لن تنجو من الموت. قال: إن هلكتُ فلا بأس، ولكن لا نعرف أين وضعت المبلغ الذي كسبته. وكل ما أريده هو أن تفيق قليلا لتخبرنا عن المال، لأنه حين يموت أحد في أسرنا يُنفق ٥٠٠ روبية لإطعام القادمين للعزاء. قلتُ: لن تجدوا ذلك المبلغ أيضا. فتحير هذا الشخص كثيرا. ثم بناء على إصراره الشديد ذهبْتُ إليها ووجدتها مغشيا عليها، وناداهما شخص ولكنها لم تتكلم. فدعوت جميع المومسات حولها وقلت: إنها استخفَّتْ بالتوبة، وها هي تموت بدون توبة، والآن ماذا تُردن أنتن؟ فقالت أسوأهن بأنني أتوب الآن. قلتُ لذوي المومس المشوكة على الوفاة: لا تقدموا الطعام للأقارب بمناسبة موتها، ولو حطَّ ذلك من قدركم فلن

يحدث ذلك إلا لدى هؤلاء الناس (أي فئة المومسات). ففهموا الأمر وامتنعوا من تقديم الطعام."

١٩٠٩/٥/٢٥

"لقد طلبت من صديقي في مدينة بهيره بضع مرات أن يعيرني كتابا معيناً، فوعدني بذلك، ثم ذات يوم حين تكلمت معه عن ذلك رفض صراحة. وحين سمعت رفضاً صارخاً منه خرجتُ من فمي بصورة عفوية كلمات: إنا لله وإنا إليه راجعون. وبعد بضعة أيام فقط وصلني طرد بريدي كبير من مدينة بشاور من دون ذكر اسم المرسل. وكان فيه ذلك الكتاب وشرحه وكتب أخرى في الموضوع نفسه. ثم ذكرت هذا الأمر لجميع الناس الذين كانت لهم علاقة بالموضوع، ولكني لم أعر على من أرسلها، ولا سبب إرساله. ثم حدث أن ذكرت مرة هذا الأمر لشخص غني آخر فقال: لا علاقة لي بالموضوع على الإطلاق ولكن قولك: "إنا لله وإنا إليه راجعون" جعلني مذعوراً للغاية، وكنت أعلم بوجود ذلك الكتاب في مدينة بشاور فكتبت لأحد معارفي أن يشتريه ويرسله لك."

١٩٠٩/٦/٤

"كنت أستاذًا في مدينةٍ فجاءني صديق ضيفًا. في هذه المدينة يجلب الناس الماء من النهر لا من البئر، وكان الطريق المؤدي إلى النهر يمر من أمام المدرسة، فكانت بعض الهندوسيات يجلبن الماء من النهر وكن لابسات ثياباً نظيفة جميلة حاملات على رؤوسهن جرّات براقّة. وكانت وراءهن عدد من المسلمات

لابسات ملابس زرقاء وسخة وعلى رؤوسهن جزّات من فخار، وكان صديقي يلاحظ ذلك خارج البيت، فناداني أن أخرج فوراً، فاندفعت إليه مذعوراً، وسألني: هل يمكن أن تقول اللاتي يمشين في الخلف للاتي أمامهن أن يُسلمن؟"

١٩٠٦/١٢/٢٩

"كان سيدنا محمد المصطفى ﷺ يأخذ معه في الحرب زوجته عائشة وابنته فاطمة رضي الله عنهما، فلم يرد في أي تاريخ أنهما أُسرتا قط. أقسم بالله على أن رسول الله ﷺ ما مُني بالهزيمة قط، وأعدّ قصص هزيمة النبي ﷺ مزورةً، ولا أوّمن بأن أي رسول قُتل قط. فقد قال الله ﷻ نفسه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ (غافر: ٥٢). باختصار؛ لا أعتقد أن أي رسول مني بالهزيمة قط، وبما أني أحب الرسل، فأنا أيضاً لم أواجه الهزيمة قط في حياتي. فقد تأمر الكثيرون على قتلي فأخفقوا دوماً."

١٩٠٩/٥/١٤ قبل صلاة العشاء في المسجد المبارك

"بين بند دادنخان ومياني هناك نهر، وكان لي بيت في مياني أيضاً، وكنت مدرسا في بند دادنخان. ذات يوم أثناء قدومي من مياني إلى بند دادنخان رأيت شخصا يدخل النهر وينوي عبوره، وقد حل إزاره ولفه على رأسه وبدأ يمشي عريانا، فألقى عليه شخص آخر كان يعبر النهر معه لعنا ولوما كثيرا. غير أن الآخر أيضا حين دخل الماء وأصبح عميقاً ظل يرفع إزاره. ولما شعر أن الماء سوف يصل إلى السُرّة حل إزاره ولفه على رأسه، وأصبح عريانا مثل الشخص الأول. عندها فهمتُ نكتة أن الذي يحتقر ويهين غيره يتعرض للهوان والذلة

نفسها. فلو لم يبال الأخير ببلل الثياب لما خسر شيئا، ولكنه اضطر لارتكاب الأمر نفسه الذي بسببه أهان غيره."

١٩٠٧/٧/٢٢ بعد صلاة العصر

"في قرية بند دادنخان رأيت في الرؤيا شخصا مريضا من سكان بلدي وكان قد توفي من قبل، فقلت له: سمعتُ أن الذي يموت ينجو من الأمراض. فأمسك الشخص المتوفى يد فتاة وقال: كنتُ أعشق هذه الفتاة في الدنيا، لذلك أنا مريض وأعدَّب الآن.

وحين رجعت إلى وطني "بهيته"، سألت صديق الشخص المتوفى: هل لك أن تُريني الفتاة التي مات هذا في عشقها؟ فاستغرب صديقه كثيرا وتعجب من معرفتي بالموضوع، فقال لي: من أنباك ذلك؟ قلت: وهل يخفى العشق؟

ثم قال لي صديق المتوفى: عندما تُوفي صديقي هذا كان رأسه على فخذي، فسألته: هل ذكرت عشقك هذا لأحد؟ قال: لا يعرف ذلك إلا الله، وتلك الفتاة وأنا وأنت فقط. فما دام صديقي قال ذلك عند وفاته، فأنت لك أن تعرف ذلك؟ باختصار؛ لم يخبرني صديقه باسم الفتاة. وفي مدينتنا حارة معينة ونساؤها جميلات بعض الشيء، ولا يهتمن بالحجاب مع أنهن مسلمات. ذات مرة كانت هؤلاء النسوة ذاهبات للاشتراك في حفل زواج، واتفق لي أن مررت من هناك. فتيقنتُ أن الركب يشمل جميع نساء تلك الحارة. قلتُ لهن بكل أدب أن يقفن أمامي في صف واحد. وبما أن آبائي كانوا يتمتعون باحترام كبير فوقفن في صف واحد بجانب الشارع. فرأيت فيهن تلك الفتاة بعينها التي كنت قد رأيتها في الرؤيا، وكانت عذراء إلى ذلك الحين. فقلت لهن أن يرسلنها

إلي، ففعلن. عندما اقتربت مني سألتها عن اسمها، فأخبرتني. فقلت لها: انصري. ثم بعد بضعة أيام لقيني صديق المتوفى فقلت له: لم تخبرني باسم تلك الفتاة ولكني عرفتها؛ إنها تسكن في حارة كذا واسمها كذا. فبهت من سماع هذا الكلام وقال: نعم هذا هو اسمها، ولكن كيف عرفت ذلك؟ فلم أذكر له رؤيائي، إذ لم أر ذكرها مناسبا.

وقد رأيت في بند دادنخان رؤيا أخرى، حيث كان موظف حكومي مشهور بمبلايه ورأيته جالسا في مكان رفيع جدا في الجنة، فلما تبادلنا الأنظار قلت له: كنت سبى الأعمال فكيف دخلت في غرفات الجنة؟ فقال "لقد رحم الله غربتي." وبعد الاستيقاظ بحثت عنه كثيرا فلم أجده. وإنما عرفت أنه منذ مدة مفقود الخبر، وبعد عامين أخبرتني إحدى قريباتي أن فلانا توفي بموضع "كلياني" قرب مومباي، وكان يذهب إلى مكة المعظمة مشيا على القدمين.

١٩١٢ / ٦ / ١٢

"ذات مرة خرجت من بيتي في بهيره قاصداً جامون بصحبة ابن أخي "شاهسوار"، ولكن لم يكن لدي ولا مليم واحد لنفقات السفر؛ فخطر ببالي ألا أن أقترض من زوجتي، ولكن ضاق صدري من ذلك فانطلقت بدون نقود. ركبنا فرسين، وحالما خرجنا من المدينة جاء شخص وقدم إلي ما يزيد على رويية، ثم جاء شخص آخر وقدم لي نصف رويية. وعندما وصلنا إلى قرية "أوان" بعد قطع مسافة ستة أميال أو سبعة قال ابن أخي: أنا أشعر بالحر، وعندنا بعض الحلويات، فلو سمحت لي لذهبت إلى البئر لأصنع شراباً حلواً

وأشرب. فقلت: بكل سرور. فذهب الشاب ولكنه عاد بعد قليل وقال لي أن أصحبه، ففعلت ووصلنا إلى البئر. وحالما أراد الشاب أن يدلي بدلوه في البئر قال صاحب البئر: انتظروا قليلا، فقد اطلع عمدة القرية على مقدمكما وذهب ليُحضر لكما الحليب. وفي غضون بضعة دقائق وصل عمدة القرية أيضا، وبالإضافة إلى الحليب أهدى إليَّ رويية واحدة. كنت فيما سبق قد عاجلت ابنه وقد شُفي على يدي. بعد شرب الحليب أردنا الانطلاق لكن العمدة قال: انتظروا قليلا فإن إمام الجامع أيضا قادم. فجاء وقدم هو الآخر رويية أخرى إليَّ، ولكني لم أر مناسبا أخذها منه نظرا إلى كونه فقيرا. ولكن أهل القرية الذين كانوا قد اجتمعوا هنالك بعدد كبير قالوا بصوت واحد بأنه يجب أن آخذ الرويية ولا أردّها. حين استفسرت منهم عن سبب ذلك قالوا: "إنه كان مريضا منذ عدة أيام وكان قد طلب منك الدواء من جامون فأرسلته له بالبريد، فشفي بذلك الدواء. فقلنا له: بأنك أخذت الدواء مجانا ولم تشكر عليه أيضا، فقال: لو جاء نور الدين إلى قريتنا لأعطيته هذه الرويية، وإلا ما كان ليدفع هذه الرويية. أما اليوم فقد اضطر للدفع فخذها منه." والغريب في الأمر أنني لم أذهب إلى تلك القرية قط من قبل رغم أنها كانت تبعد عن مدينتي أربعة أميال ونصف ميل فقط. وهكذا أصبحت عندي ثلاث روبيات ونصف رويية. عندما وصلنا إلى محطة القطار خطر ببالي أن أري ابن أخي معالم مدينة لاهور. وثنم التذكرة لشخصين إلى لاهور كان ثلاث روبيات. فاشتريت التذكرتين وركبنا القطار. عندما وصلنا إلى لاهور وخرجنا من المحطة قال صاحب عربة الحصان أن اركبا في عربتي. فسألته: "كم ستأخذ من الأجرة للذهاب إلى بيت الشيخ رحيم

بخش في حارة انار كلي؟" قال: لن أقبل أقل من روية. قلت: ليس عندنا إلا نصفها، فإذا شئت أخذتها وإلا فلا. فرضي بذلك المبلغ. بعد المكوث في لاهور لبضعة أيام حين عزمنا على السفر طلب المضيف سيارته وهمس في أذني ألا أعطي شيئاً لخدمه. وصلنا إلى المحطة وليس عندي أية نقود، ولكني كنت واثقاً من أننا سنسافر بالقطار القادم حتماً. بقينا واقفين برهة، واشترى المسافرون التذاكر ثم أغلقت نافذة التذاكر. وصل القطار وركبه المسافرون، أغلقت أبوابه وأطلقت صفارة الانطلاق أيضاً. ولكني ظللت واقفاً هناك متوكلاً على الله واثقاً به، وقلبي فائض بيقين لا يتزلزل أنا سوف نسافر بالقطار نفسه حتماً. كان القطار على وشك الانطلاق وإذ بشخص يسعى من بعيد وينادي: نور الدين، نور الدين، فمن عجائب قدر الله أن القطار انطلق ثم توقف بسبب حادث طارئ. فجاءني هذا الشخص وذهب بي إلى غرفة مدير المحطة واشترى ثلاث تذاكر، واحدة لنفسه واثنتين لي وابن أخي، ثم جاء بشرطي أيضاً ليساعدنا في ركوب القطار. وحالما ركبنا القطار، انطلق القطار على الفور، عندها قال لي هذا الشخص أود أن تكتب لي وصفة، ففعلت. ثم جعل يقلب التذاكر ليتأكد أنها للمحطة التي نقصدها. ثم سلمها لي قائلاً: لا أريد أي ثمن لها، ونزل عند محطة "شاهدره". وصلنا إلى مدينة وزير آباد، وعند الخروج من المحطة قلت لشاهسوار: احمل حقيبة واحدة واذهب إلى محطة العربات وأنا قادم وراءك. في تلك الأيام لم يكن هناك قطار بين مدينة وزير آباد وجامون وكان السفر يتم بالعربات فقط. لم نكد نقطع مسافة قليلة حتى لقينا شخص في الطريق وقال لي: إن أمي مريضة فأرجو أن تفحصها. قلت: لا وقت للعلاج

الآن لأني أريد الوصول إلى جامون فوراً. قال هذا الشخص: إن معي أخي، وسوف يذهب إلى محطة العربات ليدبر لك السفر، وحين تصل إلى المحطة بعد فحص أمي سوف تجد عربة جاهزة. فذهبت وفحصت أمه ووصفت لها الأدوية، وعزمت على الرحيل. ولكن قبل رحيلي وضع هذا الشخص في جيبى بعض النقود التي عدتها قبل الوصول إلى محطة العربات وكانت عشر روبيات. وعندما وصلنا إلى محطة العربات وجدنا أخا الشخص المذكور وصاحب العربة يتفاوضان بصوت عالٍ على أجرة السفر إلى جامون. كان صاحب العربة مصرّاً على أخذ عشر روبيات، وأخو هذا الشخص كان يقول بأن هذا مبلغ باهظ فلتأخذ أقل من ذلك. فقلت: لا حاجة للصياح، فإن عشر روبيات أجرة مناسبة."

مدينة "لكهناؤ" و"رامبور" وغيرهما

١٩٠٩/٦/٢

"كان لي أستاذ في لكهناؤ فسألني: ما رأيك في اسمي عبد الكريم أو كريم بخش، فقلت: كيف أرد على سؤال أثرته؟ فقال: هنا في لكهناؤ شيخ عارٍ اسمه "كريم جي"، فالنساء اللاتي يحسبن أن كريم جي هو الذي وهب لهن ولدا يسمينه عبد الكريم أو كريم بخش."

١٩٠٨/٨/٣

"ذات يوم جاء أحد الشيعة إلى مجتهد في لكهناؤ وسأله: ما الفرق بين حَجِّي مكة وكربلاء؟ فقال له المجتهد: في حج مكة هناك شروط كثيرة، أما

حج كربلاء فليس هناك أي شرط. فقَبِلَ قدميه وانصرف. فلما انصرف قال لي: انظر، أنا لست أوّمن بحج كربلاء، ولذلك قلت له أنه ليس هناك شرط لحج كربلاء لأن القرآن الكريم لم يذكره."

١٩٠٩/١٢/٢٧

"سمعت أن الحلاق يدعى خليفةً في لكهنأؤ، وذلك لأنهم يعادون الخلفاء الراشدين."

١٩٠٩/٦/١

"كان لي أستاذ طيب جاءه بطلٌ مصاب بالكوليرا. فلم يقل له إنك مصاب بالكوليرا وإنما قال له: في معدتك فتور وتعاني سوء الهضم. فلما سمع البطل ذلك انحنى لالتقاط أنبوب موضوع أمامه وقال: إن سوء الهضم لا يقترب مني، قال هذا وحملته بيد واحدة، وجعل يده مستقيمة تجاه الأعلى، فتوفي فوراً."

١٩١٢/١٠/١٩

"ذات يوم أرسلتُ كمية كبيرة من حلوى "جليبي" إلى أستاذنا الحكيم في رامبور، فقال لي: قل لي هل يجوز أكل هذه الحلويات أم لا؟ فهي من "احتفال ١١" لشيخ المشايخ. فقلت له أنت عالم، لماذا تسألني أنا؟ فقال: أما نحن فيجوز لنا أكلها. عندئذ قلت له ألم يخطر ببالك ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ لَعَبْرُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٧٤)؟ فقال: يمكن أن ترسل أي طالب من السادات الجيلانيين ليطلبها منهم

^١ هو نذر يقَدَّم إلى الغوث الأعظم عبد القادر الجيلاني رحمته الله في الحادي عشر من ربيع الآخر كل سنة، وبعض الناس يقدمونه في الحادي عشر من كل شهر. (المترجم)

بصفته سيدا جيلانيا، فأنا متأكد أنه لن يجد شيئا غير الطرد والضرب بالأحذية. أما نحن فقد أرسلت إلينا هذه الكمية الكبيرة، كما أرسلت كمية كبيرة إلى الزعيم الفلاني، وكذلك إلى المسؤول الفلاني.. كل هذا بدافع الرياء فقط."

١٩٠٨/٨/١١

"الطبيب الذي كنت أدرس الطب عنده في رامبور كان إنسانا عظيما، وكان كثير من الضيوف من مدينة لكهنأؤ وغيرها ينزلون عنده. كان المرزا رجب علي بيك سرور- الذي كان متقدما في السن وهو مؤلف كتاب "فسانه عجائب"- يقيم هناك أيضا. فقلت له يوما: أرجو أن تدرّسني كتابك هذا، لأني أريد الحصول على شهادة منك لدراستي هذا الكتاب. قال: حسنا. ولم أكمل صفحة أو صفحتين حتى وصلتُ إلى جملة: "في هذا الجانب كان المولوي ظهور الله والمولوي محمد مبین، وفي ذاك الجانب كان المولوي تقي ومير محمد مجتهد وغيرهم". فسألته: أرجو أن تخبرني كيف انضمتَ إلى "أهل السنة"؟ فسألني مستغربا: كيف علمتَ أني من أهل السنة؟ قلت: دَعَك من هذا، وأخبرني فقط كيف أصبحتَ من أهل السنة؟ فقال: أولاً أخبرني أنت كيف علمتَ أني من أهل السنة؟ قلت: إن كلمة "هذا الجانب" تشير إلى القرب، وأنت سجلتَ أسماء أهل السنة بجانب كلمة "هذا الجانب"، وعندما قلتَ "في ذلك الجانب" عندها سجلتَ أسماء أهل الشيعة كلهم، وهذا يدل على أنك من أهل السنة. فضحك السيد مرزا وقال: الآن اسمع قصة انضمامي إلى أهل السنة وهي التالية: عندما عزمْتُ السفر من لكهنأؤ إلى دهلي قال لي حاكم

لكهناؤ: أنت مسافر إلى دهلي، فأرجو أن تزور الشاه عبد العزيز هناك قبل عودتك. وصلتُ إلى دهلي وحضرتُ للقاء حضرة الشاه. ولكن خطر ببالي أنه عالم كبير في اللغة العربية وأنا لا أعرف هذه اللغة، وهناك كثير من الكلمات العربية التي تُستعمل في الأردنية أيضا. فلو خرجتُ من فمي كلمة عربية أمامه بصورة خاطئة لاحتقري جدا وقال: أي شاعر هذا الذي لا يستطيع أن يلفظ الكلمات بصورة سليمة. لذا جلستُ صامتا واجما وخرجتُ من عنده دون أن أنبس بكلمة واحدة. وفي اليوم التالي حفظتُ بعض العبارات لأستعملها أثناء الحديث معه، وحفظت الكلمات بصورة صحيحة بعد بحث وتدقيق مضمّن. ثم خطر ببالي أنه إذا طال الحديث واضطرت للخوض في أمور أخرى فسأواجه مشكلة كبيرة، فبقيتُ صامتا في المرة الثانية أيضا. باختصار؛ ظلت أذهب وأعود من دون أن أقول في مجلسه شيئا. وكنت أفكر أيضا أنني لو عدتُ إلى كهناؤ وسألني الحاكم عن زيارتي للشاه عبد العزيز وما دار بيننا من أحاديث فما الذي عسى أن يكون جوابي؟ لذا كنت أذهب إليه كل يوم. وفي أحد الأيام سألتني حضرة الشاه: من أين جئت؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟ قلت: أسكن في كهناؤ. فسألني في أي حي من كهناؤ؟ قلت في "بگابُل"، فبعد سماع ذلك قال: إذن أنت من سكان شانديبور، فقلت كلا بل أسكن في كهناؤ، فقال نعم في أي حي من كهناؤ؟ قلت في حي بكابل، فقال بتفكر بسيط: أجل، أنت من سكان شانديبور. فلزمت الصمت، ثم قلت له: كيف يمكن الفصل بين الشيعة وأهل السنة. قال: أخبرني، هل هناك قاسم مشترك

بيننا وبين الشيعة؟ قلت: نعم، القاسم المشترك هو القرآن الكريم الذي يؤمن به الشيعة كما يؤمن به أهل السنة. قال: إذن فالطريق الأسهل هو أن تقبلوا ما يقوله القرآن الكريم. قلت: أنا لا أعرف العربية. قال: إن أخانا رفيع الدين شاه قد ترجم القرآن إلى الأردية، فاقراً هذه الترجمة، وإن لم تفهم منها كلمة مثلاً، فاكتب الكلمة العربية التي إزاءها، ثم استفسر عن تلك الكلمة بالتحديد عالمًا شيعيًا أو سُنيًا دون أن تستفسر معاني الكلمات التي قبلها وبعدها. وهكذا اقرأ الترجمة كلها بالتدبير. ففعلتُ، وكانت النتيجة أن انضمت إلى أهل السنة.

ثم عندما عدت إلى لكهنأؤ سألني الملك، فلم أذكر له الحديث عن القرآن الكريم، إنما قلت له ماذا أقول لك، فقد ظلت أسمى مسكني لكهنأؤ وظل يسميه شانديبور، فقال لي أخبرني مفصلاً كيف اتفقتما؟ فلما شرحت له بالتفصيل أمر الملك فوراً أن يُجمع جميع الأوراق والوثائق القديمة ويتم البحث فيها ما هي القرى التي كانت عامرة في قطعة أرض تسمى حالياً لكهنأؤ، فتم البحث في ذلك وظهرت النتائج بعد أيام عدة، ورفعت هذه النتائج إلى الملك فتبين أن الحي الذي يسمى حالياً "بگابُل" كان فيه قرية تسمى شانديبور، فاستغرب الملك جداً وقال: من المؤسف أننا نجهل جغرافيا بلدنا والشاه عبد العزيز متمكن منها وهو جالس في دهلي."

١٩٠٨/٨/١٣

"لقد رأيت في رامبور شخصاً اسمه نور الدين، قد كتب كتاباً رداً على غير المقلدين، وكان أول دليل في ذلك الكتاب أن سيدنا إبراهيم عليه السلام أيضاً كان

حنفي المذهب واستدل بآية ﴿كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فجعل ثمن ذلك الكتاب ٢٥٠٠٠ رويية، فقال لي أن أشتريه؛ حيث يمكن أن أدفع له شيئاً حتى لو كان بيسه واحدة والبقية يمكن أن أدفعها يوم القيامة، فقلت له: أما أنا فأؤمن بالقيامة."

١٩١٢/٢/٢٢

"كان في لكهنأؤ شاب ذكي جدا، وفي أثناء تبادل الحديث حصل نزاع بيني وبينه، فقال أستاذي: من يذكر منكم ترجمة ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ فهو المنتصر."

١٩١٢/١/٤ بعد العصر

"كان المولوي عبد الرشيد من سكان مدينة بنارس صديقا لي وقد أحسن إليّ كثيرا، وكان يسكن آنذاك وحده في غرفة مجاورة للمسجد في مدينة "مراد آباد". جاءه ضيف بعد العشاء مرة، فاحترار عند مجيء الضيف إذ لم يعرف كيف سيقوم بواجب ضيافته، ومن يطلب المساعدة. فقال للضيف: استرخ ريثما يُحَضَّرَ الطعام. فاستلقى الضيف ونام. أما المضيف فتوضأ وبدأ يدعو الله تعالى قائلا: أفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد. وظل يدعو بهذا الدعاء إلى مدة يُطَبِّخُ فيها الطعام. وبينما هو كذلك إذ ناداه شخص من الخارج وقال: سيدي، سيدي، إن يدي تكاد تحترق -من سخونة الأواني التي أحملها- فأرجو أن تسعفني بسرعة. فنهض المضيف، وإذ بشخص يحمل صحنًا من النحاس فيه أرز مطبوخ مع لحم الدجاج. فأخذ الطعام وأيقظ الضيف وأطعمه. ولا تزال

تلك الغرفة ماثلة أمام عيني. لم نعثر على صاحب الصحن قط، فبقي هذا الصحن من النحاس عند المضيف، وكان يقول للناس: من كان صاحب هذا الصحن فليأخذه، ولكن لم يعثر على صاحبه".

١٩٠٩/٦/٦ بعد صلاة العصر قبل الدرس

"لقد أقمت في رامبور ثلاث سنوات وأنا مطلع على أوضاع الأفغان هناك. من الملاحظ أنهم عادة إما يتشاجرون عند محل القصاب أو من أجل الصبيان. هؤلاء الأفغان نجباء وأوفياء وخصالهم النجبية محمودة جدا. (بعد ذلك ذكر ﷺ قصة "كلن خان" الرامبوري التي قد أملاها في سوانحه، لذا أتركها هنا).

بعد تكفين الزوجة الكبرى لمولانا محمد علي ودفنها جاء حضرته إلى المسجد المبارك وأعلن عقد قران حميدة بيغم ابنة الدكتور خليفة رشيد الدين والزوجة الصغرى للمرحوم بابو شاه دين والسيدة رسول بيغم. إذ قد زفت الأولى منهما على أسد الله والثانية على بابو منظور إلهي، وقال حضرته في الخطبة:

إن القارئ عبد الرحيم الرامبوري الذي كان يقيم في ميرته سألني صديق مخلص لي: لماذا أنتم جميع الإخوة صلحاء وملائكيو الخصال؟ فقال: إن والديّ كلما أرادوا الجماع دعوا كلاهما الله ﷻ: ربنا هب لنا من لدنك ذرية طيبة. وببركة ذلك نحن كلنا هكذا. اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا".

كشمير وجامون

١٩١٣/١٢/٣

"كان أحد معارفي موتي رام، فقال لي عند وفاة أحد أولادي: انظر أيها الشيخ، لا يمكن إنكار المشاهدة. قلت نعم، فقال: قد أحضر والدي حبي فستق من معبد "ديوي جي" الهندوسي، إذ لم يكن له أولاد، وكانت له زوجتان، إحداها لم تأكل الحبة وتناولت الثانية الحبتين كلتيهما فولدنا نحن الاثنان. فقلت له إن شقيقك "شب لال" يدمن الأفيون لدرجة أنك تتضايق منه أنت أيضا. فقال نعم هذا صحيح. كان موتي رام دائم المرض، فقلت له: وأنت دائم المرض، فقال نعم، فقلت له: ما الفائدة من أولاد من هذا القبيل؟

كذلك بُني معبد هندوسي جديد في كشمير، وكانوا سيضعون فيه صنما ضخما من الحجارة، فدعي كثير من المسلمين، فربطوه بحبال كثيرة، وبعضهم كانوا يشدونهم إلى فوق وبعضهم كانوا يدفعونه من تحت، وكان الذين في الأعلى يرددون "لا إله" والذين هم في الأسفل كانوا يرددون عليهم "إلا الله"، وعلى هذا النحو كانوا يرفعونه إلى الأعلى. فقلت لأحد الهندوس الذي بدا لي مثقفا: إن هذا الصنم لا يرتفع دون الهتاف بالتوحيد. فقال: هو لم يطهر بعد، فقلت له: إذن هو ما زال نجسا؟ فقال نعم، لا بد من هذا القول. فعبادة الأوثان لغوٌ جدا، فعبدة الأوثان يفقدون صوابهم. ومما يثير التعجب أن الإخوة المسلمين أيضا مصابون بعبادة الأصنام".

١٩٠٩/١/٥

"كنت في كشمير، وذات يوم كنت أتوجه إلى البلاط، وكان "يار محمد خان" يرافق مركبتي الملكية، قال لي إن رداء الصوف الذي عندك رديء لدرجة أنني لا أستطيع أن أمشي معك مرتديا إياه. فقلت له: إذا كنت تراه سيئا فإن ربي أكثر اعتناء بي منك. فحين وصلتُ إلى البلاط قال لي الراجا: لقد بذلت جهدا كبيرا في مكافحة الكوليرا، ينبغي أن تُمنح الخلعة، فأهدى لي خلعة فاخرة، وكان الرداء فيها غاليا جدا. فقلت ليار محمد خان: انظر كم يعتني بي ربي."

١٩١١/١٢/١١

"عندما كنت في كشمير وجدت هناك بانديتا يعدّ أعظم المنجّمين، وكان يستطيع الدخول إلى بيت مهراجا حيث النسوة، وكنت قد انقطعتُ عن الذهاب إلى البلاط منذ مدة، فسألته أن يخبرني متى سوف أبدأ الذهاب إلى هناك؟ فجمع عددا من تلامذته وطلب منهم التفكير في هذه المسألة. وبعد التدبر اتفقوا على تاريخ معين، فقلت إنه خطأ. ثم شارك البانديت نفسه في التدبر وأجمعوا على تاريخ معين، فقلت له هذا أيضا ليس بصحيح. ثم قلت له: الآن أخبرك شخصا، وقلت اعلموا أنني سوف أدعى إلى هناك في تاريخ كذا في وقت متأخر من الليل. وإذا أردتَ فإنني يمكن أن أوقفك، فجاء الخادم في التاريخ نفسه وفي الموعد نفسه. فقلت له أن يمشي معي من طريق معين، وحين وصلنا في الطريق إلى بيت البانديت أيقظته فاستيقظ فخرج إليّ، فقلت له: انظر قد دُعيت اليوم إلى هناك، وأنا ذاهب. وبعد ذلك كان البانديت

يقول لي: "يا سيدي، إنَّ عَلمك قوي ورائع، وأرجو أن تعلِّمني أنا أيضا." أمّا علّمي أنا بالنجوم فيتوقف على أي كنت أعلم أن في تاريخ كذا ستأتي كمية من المانجو وكنت أعلم أن الراجا سوف يأكل بكثرة ومن ثم سيحتاج إلينا، لأن تناول المانجو يسبب له انتفاخ البطن في الوقت المتأخر من الليل."

١٩٠٩/٥/١٣

لقد توظفت لدى مهراجا كشمير ما يربو على ١٥ عاما، وكان من الممكن أن أواجه مواقف عديدة تضطرنني للخضوع أمام المهراجا - من أجل تقديم النذور أمامه مثلا بحسب قانون الولاية- ولكن الله تعالى بفضله الخاص لم يجعلني أتعرض لمثل هذه المواقف. غير أنه حدث مرة حين كان واجبا على جميع أعضاء البلاط أن يقدموا النذور للحاكم، فأردت أنا أيضا أن يفعل ذلك بمقتضى المحل كارها. وكنت موشكا على تقديم النذر آخذا الروبية في يدي، فوقع نظري على تلك الروبية بدون قصد مني. وحين كنت أنظر إلى القطعة التي في يدي ناداني المهراجا وقال: هل تريد تقديم النذر أو تتأمل في الروبية فقط؟ قلت عفويا: أتأمل في الروبية التي بسببها اضطررت لتقديم النذر. فقال المهراجا على الفور: نعم، لا حاجة لك لتقديم النذر، فإنك معفى من ذلك. فضحك الجميع. وهكذا انتهى الأمر ولم اضطر إلى تقديم النذر."

١٩١٢/١٠/٤

"كنت في جامون، وذات يوم عزف العود أمام الراجا شخص يدعى مرزا ييارا. فقال له الراجا بعد الاستماع إليه: أحسنت يا مرزا المحترم، فقدم له مرزا التحيات راکعا، وفي تلك اللحظة لفظ أنفاسه الأخيرة ومات."

١٩٠٩/٥/٨ بعد الدرس قبل المغرب

"كان يسكن معي في كشمير شاب، فنصحته مرارا قائلًا: إنك تقيم عندي، فعليك أن تقرأ القرآن الكريم، ولكنه ظلّ يماطل، ثم حين أردت العودة من كشمير إلى وطني، رافقني ذلك الشاب، فنزلنا في الطريق في مدينة "اودهم بور" فتوضأنا وصلينا، وهناك جاءته رسالة قبوله موظفًا، ففرح جدا، فانطلقنا من اودهم بور، فكان ذلك الشاب يعلق مصحفا في عنقه خوفا مني، وعندما وصلنا إلى المحطة التالية في السفر قال لي الشاب: لقد تركتُ خطأً القرآن الكريم معلقا بالشجرة حيث صلينا الصلاة. على أية حال، سوف أشتري نسخة جميلة للقرآن الكريم فور وصولنا إلى لاهور. قلت له: الآن لن تجد فرصة لتعلم القرآن الكريم، وهكذا كان؛ إذ توظف فور وصوله إلى هناك في الشرطة. والآن قبل بضعة أيام تلقيت منه رسالة كتب فيها أنه لم يُوفَّق لقراءة القرآن الكريم إلى اليوم، غير أنه عازم على أن يعلمه ابنه."

١٩٠٩/٥/١٠ بعد صلاة الظهر

"مرة سألني مهراجا كشمير وقال: يا سيادة المولوي، تقولون لي إننا نأكل لحم الخنزير فنهاجم الآخرين متهورين. ولكن ما قولك في الإنجليز الذين يأكلون لحم الخنزير أيضا ولكنهم لا يهاجمون دون تفكير عميق في العواقب؟ قلت: إنهم إلى جانب لحم الخنزير يأكلون لحم البقر أيضا، مما يؤدي إلى إصلاح الأمور. فلزم المهراجا الصمت ولم يدخل في نقاش ديني معي إلى سنتين."

١٩١٢/١٠/٦ بعد العصر

"عندما توظفت عند المهراجا في كشمير أرسلتُ طلبا إلى الحاكم بعد استشارة بعض الأصدقاء بأني أريد أن أتلقي راتي كل شهر بالتزام. وعندما قُدِّمَ طلبي إلى حاكم الولاية كنت غائبا قصدا، مما أثار سخط الحاكم كثيرا عليّ، إذ لا أعيره أي اهتمام يليق به، ومن ناحية ثانية أطلب أن يُدفع لي راتي كل شهر بالتزام. أما الحضور في البلاط فأيدوا جميعا موقفي بصوت واحد وقالوا بأن مواضع نفقاته كثيرة، ولا يمكن أن تسير أموره على ما يرام من دون دفع راتبه بصورة نظامية؛ فنال طلبي القبول. ولكن حين حضرت البلاط قال المهراجا بصوت عال بعض الشيء لأسمع: "بعض الناس يطلبون رواتبهم قبلنا أيضا ويطلبونها كل شهر بالتزام. أما رئيس الوزراء فهو موظف عندنا منذ عشرة أعوام، ولم يتم تحديد راتبه أيضا، ناهيك عن أن يطلبه." فقلت: "إذن، فمن أين يأكل هو؟" ثم أخبرني أحد أن هذا هو حال معظم الموظفين تقريبا، لكن من يمكن أن يفهم المهراجا، فقلت له: إذن أنا سوف أفهمه يوما، فقال: أنت الوحيد الذي حددت راتبه شهريا بالتزام. وإلا لا أحد يتلقى الراتب قبل ستة أشهر."

١٩٠٩/٥/٣١

"كنت موظفا في كشمير، وأتقاضى راتبا هائلا، ولاحظت أن الأطباء الذين لا يبلغ راتبهم الشهري إلا ثمانين روبية فقط كانوا يسعون للجلوس في البلاط على المقاعد الأمامية قبلي، وكنت أفسح لهم المجال، وأفرح بذلك. كان هناك

شخص عجوز قد حفظ صفات كثير من العلوم والفنون وتعريفاتها. كان يسأل كبار العلماء تعريفا لعلم من العلوم ثم ينتقده ويستخرج عيباً، لأنه كان قد حفظ تلك التعريفات بنصها وفصها. وهكذا كان يحاول أن يفرض هيئته على الآخرين. وفي إحدى المرات سألتني: يا حضرة المولوي، ما هي الحكمة؟ قلتُ: الحكمة هي تجنب السيئات بدءاً من الشرك إلى سوء الأخلاق بشكل عام. فسألني مستغرباً: من قام بهذا التعريف للحكمة؟ فأشرتُ إلى حكيم من مدينة دهلي كان حافظاً للقرآن الكريم وكان جالسا بالقرب مني، وقلتُ له: اقرأ عليه ترجمة الآيات القرآنية من سورة بني إسرائيل التي تسبق وتلي الآية: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ فُبُهِتَ بشدة.

١٩٠٩/٦/١

"أثناء إقامتي في كشمير جاءني شخص له علاقة بالأرواح الخبيثة، فأرسل إليه المهراجا طبيبا بنغاليا موظفا عنده، فوضع أمامه شيئا من الحلويات وبعض النقود. فقال ذلك الرجل: في خلد الطبيب تدور فكرة الحصول على إجازة، فعندما سمع الطبيب البنغالي استغرب جدا، لأن ما أخبره كان صوابا تماما. ثم أرسل إليه المهراجا طبيبا من دهلي فكشف عليه ما يدور في قلبه أيضا، فعاد هو الآخر غارقا في الحيرة والدهشة. فتوجهتُ إليه بعد أن وضعت في بالي شيئا، وظللت أردد "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" فقال لي بعد تأمل طويل: لا أستطيع أن أكشف ما في قلب هذا الرجل. كان يسكن هناك شاب يدعى عبد العلي وكان أبوه يدعى تحضير الجن، فأقام معي كثيرا ولم يقدر قط على تحضير الجن أمامي."

١٩٠٩/٦/٨ قبل الدرس بعد صلاة العصر في المسجد المبارك

كان سيد سرور شاه المحترم والمولوي محمد علي نيويان السفر إلى رامبور صباح ١٩٠٩/٦/٩ فقال حضرته ناصحا لهما: "لقد ناظرْتُ مهراجا كشمير مرات عدة فجعلته نفسه دوما حَكما." ثم ذكر بالتفصيل استعارته من طيب شيوعي كتاب "طبقات الأنوار" بحجم ٧٠٠ صفحة، وقراءته ودعوته للمناظرة بحجة الضيافة، وقد سجلها في سوانحه أيضا.

١٩٠٩/٦/١٠

"ذات مرة سألتُ مهراجا كشمير: ما الفرق عنده بين الملوك والآلهة الأخرى؟ فقال: إن الآلهة الأخرى ناقصة بينما الراجا رب كامل. فطلبت منه البرهان. فقال: ها أنا أثبت لك ذلك الآن. ثم طلب بانديتا فسأله: هل يمكن أن تقبل الحمار في الصدقة؟ فقال لا، ثم سأله هل تقبل أموال الزناة؟ فقال لا. عندها قال لي: انظر هذا ناقص، أما أنا فيمكن أن آخذ كل شيء."

١٩٠٨/٨/١٠

"حين لقيت المولوي عبد الكريم في أول زيارة له كان صغير السن جدًّا، وكان نحيف الجسم نقي القلب. قلت له في جامون أن يزورني بين حين وآخر. كان المولوي عبد الكريم يتقن أربع لغات هي الإنجليزية، والعربية والفارسية والأردية، فلم أر إلى الآن أحدًا في جماعتنا يتقن أربع لغات مثله."

١٣/١٠/١٩١٢ أثناء درس كلام الله

"عندما كنت في كشمير رفعتُ ذات صباح أذان الفجر، ولما كنت شابا فقد رفعت الأذان بصوت عال وتمتعت بذلك. وبما أن مكان إقامتي كان محاطا ببيوت الهندوس والسيخ، وكان مسلم وحيد فقط يسكن ذلك الحي وهو الآخر كان يسكر وينتشي بشرب الخمر. سمع الراجا الأذان فسألني في النهار: "من رفع الأذان صباح اليوم؟" قلت: أنا. فقال المهرجا: يا حضرة المولوي، حيث إن سكان هذه الحارة لا يذهبون للصلاة، فعندما قلت: "حي على الصلاة" وأعدته، خشيتُ كثيرا من أن يهلك هؤلاء الناس لعدم تلبيتهم نداء: "حي على الصلاة"؛ وبما أنني حاكم هذه البلاد فقد دُعرتُ لهذا الوضع كثيرا، لأن لكلمات الأذان تأثيراً رهيباً.

كان المهرجا يقصد من وراء هذا الكلام ألا أوذن في هذه الحارة، ولكنه قال ذلك بأسلوب لين.

١٣/١٠/١٩٠٨

"ذات مرة أرسلَ وفد للتحقيق في أمر المجذومين في كشمير، فكان تسعة وتسعون مصابا مسلما من مجموع مئة وأربعة مصابين."

١٥/١٠/١٩١٠

"ذات يوم ذهبت مع أحد الأثرياء إلى بستانه فقطف لي منه حبات لوز بيده، فبدأت أكلها بعد كسرها بأسناني، فنظر الثري إليّ بمنتهى الحيرة. أما الآن فلا أستطيع أن أمضغ البلح أو الحلوى الإنجليزية."

١٩١٠/١٠/١٦

"ذات مرة سألتني مهراجا كشمير: هل هناك معيار لمعرفة الدين الحق؟ فرددت عليه بسؤال: ما رأيك أنت؟ قال المهراجا: الدين الأقدم هو الدين الحق عندي، أما دينك فلم ينشأ إلا منذ ١٢٠٠ عاما فقط. فقلت له: "لقد ورد في القرآن الكريم: ﴿فَبِهْدَاهُمْ أَفْتَدِهِ﴾ (الأنعام: ٩١) أي اتبعوا ما كان قديما وحقا." قال المهراجا: إذن فإن راجندر هو الأقدم، ونحن نعتقد به. قلت: ومن ذا الذي كان يعبد راجندر؟ قال: كان يعبد الوشن. قلت: والوشن، من كان يعبد؟ قال: كان يعبد الرذّر. قلت: والرذّر، من كان يعبد؟ قال: كان يعبد البراهما. قلت: والبراهما، من كان يعبد؟ قال: إنه كان يعبد الله وحده. قلت: إذن هذا هو الإسلام بعينه، أي أننا نعبد الله المالك الواحد الذي لا شريك له."

١٩١٢/٢/٤

"لقد ألقيت في جامون دروسا كثيرة، فكنت أنفق كثيرا من المال من جيبى أيضا في سبيل ذلك، ثم فهمني الله ﷻ بأنه سيخرج لي سبيلا آخر، فالآن لا أنفق أموالا كثيرة. فالإخلاص أمر كنت أسعى لأولده في بعض الشباب بإنفاق آلاف الروبيات. والآن أعرف شبابا يضحون بحياتهم من أجلي، ويعشقونني كالعاشق الوهان." (ليتني أكون منهم. أكبر شاه خان)

١٩١٠/١١/١٢

"عندما كنت في ولاية بونتشه تورمت لهاتي وهبطت على لساني، وتورمت بشدة، فقطعتها وصار صوتي ثقيلًا، إلا أنها بعد ذلك لم تتورم."

١٩١٢/٢/٧

"ذات مرة جاءني شخص وأقام عندي وكان يحدثني بحب وبمتهى الصراحة والحرية وكان يبدو فقيرا. ذات يوم اغتتم الفرصة وقال لي في الخلوة: إذا أردت فيمكن أن ندبر لك عشرة آلاف روبية. سواء في صورة نقود أو أرض كما تريد. ففكرت كثيرا ولم أدرك مطلبه، فقلت له أخيرا أن يصرح بما يريد أن يقول. فقال: إنما أريد مقابل ذلك أن تتقصى حقيقة بعض الأمور المتعلقة بالراجا. وبعد ذلك نتولى الأمر ولن نطلب منك شيئا، إنما عليك أن تخبرنا عن العنوان وسوف نأتي لمقابلتك. فقلت له هذه الأمور لا تهمني. فانصرف من عندي في اليوم نفسه، وتوجه إلى زعيم آخر ولا أعرف هل تحققت بغيته أم لا. وكذلك جاء شخص آخر وتظاهر بأن قدمه تؤلمه فداوئته كثيرا لكن الألم لم يخف ولم يزد. وكان شيخا موروثيا، فساورني الشك أن يكون هو الآخر مثل من سبقه. فسألته في الخلوة أن يصرح بما يريد. فقال: أنت شاطر جدا إذ قد أدركت مطلبني. فأقر بأن له الغاية نفسها ولذلك أتى إليّ. فقلت له: إن الحاكم يعتمد عليّ، ولن أقوم بأي تصرف في معارضته."

١٩١٢/١٠/١٩

ذات يوم أثناء إقامتي في جامون^١، أخرج^١ منها أيام الوباء فيل^١ بعد أن سُود كثيرا. لكن "رام هرك" - أحد البراهمة من بنارس - قد طلب أن يعطى له ذلك

^١ كان في الهندوس تقليد أنه إذا تفشى الوباء في قرية ما، كان أهل القرية يسودون فيلا ويخرجونه من القرية حرًا طليقا ظانين أن الفيل يأخذ الوباء معه حيثما ذهب وهكذا تخلو القرية من الوباء. (المترجم)

الفيل. فقال له الناس: إن فيل الصدقة مشؤوم جدا، فقال: مهما كان الأمر، أود أن أناله في كل حال. فلما بذل جهودا كثيرة فقد حصل عليه، بالإضافة إلى علفه، لعدد من الأيام. ثم قال له سكان المدينة: بما أنك أخذت الفيل فسوف يذهب معك وباء المدينة أيضا، ومن ثم لن يُسمح لك بالجميء إلى هنا مرة أخرى. فقال البرهمن حسنا، لن أعود إلى هنا. بعد ذلك حين قابلني قلت له: يا سيادة "رام هرك"، لن تستطيع العودة إلى هذه البلاد بعد الآن. قال: سوف أبيعك لمكتب المؤن بمائة روبية على أقل تقدير، فسترى كيف أسفّه هؤلاء الهندوس عبدة الأصنام، وكيف أعود إلى هذه البلاد. وبعد بضعة أيام حين ذهبتُ إلى سرينغر، وجدت "رام هرك" هناك. وحين قال له الناس: كيف أتيت إلى هنا؟ وقد سبق أن أخذت فيل الصدقة! فقال: حين أخذت الفيل فإنما أخذت وباء جامون، لذا لم أعد إلى هناك. وإذا قدّمتم هنا لي الفيل الذي يأخذ الوباء من كشمير، فلن أعود إلى هنا أيضا."

١٩٠٩/٩/١٤

"لقد دبرّت لأحد التلاميذ- الذي كان يحسن الظن بي- وظيفة بمائة روبية شهريا، ولكنه سخط مني ظنا منه أنني كنت أستطيع أن أوظّفه براتب أعلى من ذلك. فأقنع هذا التلميذ خمسة عشر شخصا برأيه وأمالهم إلى نفسه فجعلوا يعارضونني ويحكون المكائد ضدي. وفي أحد الأيام دعوتهم للطعام في بيتي. وعندما دخلوا الغرفة أمرت خادمي أن يغلق الأبواب كلها. فدعروا من ذلك كثيرا حتى خافوا على أنفسهم، وظنوا أن هناك كثيرا من مريديّ من قبيلتي

"بتهان" و"راجبوت" * ولا بد أن يكونوا محتفين هنا في مكان ما، وسوف أمرهم بإنزال العقوبة بهم. فخاطبُتهم جميعاً قائلاً: لا تخافوا، لقد حجزناكم، ولكن لن نُلحق بكم أي ضرر. ثم سألت كبيرهم قائلاً: "أأنت شريك في المؤامرة أم لا؟" قال مرتعداً: قد أشركني فيها فلا أُبكلامه كيت وكيت. وحين سُئل ذلك الشخص، أشار بدوره إلى شخص آخر. وفي نهاية المطاف تمت إدانة شخصين اثنين على أنهما نسجا لحمة المؤامرة وسداها؛ أحدهما كان تلميذي المذكور. وحين سألته عن فعلته قال: كنت أعلق عليك آمالاً كبيرة، ولو أردتُ لدبّرتُ لي الوظيفة براتب يفوق مائة روبية. عندها قال كبيرهم: إنما نلت الوظيفة الحالية على مائة روبية أيضاً بفضل هو، وإلا فإنك لم تكن تستحقها قط. فسُقط في يديه ولزم الصمت. فكان كلهم يوقنون بأن الأحذية ستمطر عليهم خلال لحظات، لكنني قلت لهم: إنما أردت أن أختبركم فقط."

١٩١٢/٦/١٧

"كان شخص كبير (مهراجا كشمير) يملك من الأرض ٨٠٠٠٠ ميلاً مربعاً، لذا كان عنده جنود كثيرون، عندما رأته كان قوام جيشه ٤٨٠٠٠ فقلت له: لقد قابلت أنا سائرين، أرجو أن تخبرني بتعريف الشجاع. فقال: أنا لم أر أي شجاع، فكل هؤلاء الذين يفتلون شواربهم يتقنون لعب النرد وأوراق اللعب والشطرنج وغيرها من الألعاب مع المومسات، وليسوا

* فنتان معروفتان في القارة الهندية ببراعتهما في أعمال بطولية من قبيل الحرب والجدال وما إلى ذلك. (المترجم)

شجعانا، ثم أراني شخصا نحيفا وقال: هذا هو الشجاع الوحيد الذي رأيته، فهو يهاجم كالأسد."

١٩١٢/٧/١٤

"ذات مرة دُعي طبيب كبير إلى ضيافة أحد زعماء كشمير، وقد ذهبت أيضا إلى هناك مصادفة، وهناك دار الحوار حول المساواة بين الرجل والمرأة. وكان الطبيب يشدد كثيرا على المساواة، فسألته: هل لديك أولاد؟ قال: نعم! عندي ولد ذو ثلاث سنوات. عندها قمت بلا تردد وبدأت أفحص موضع ثديه. فتحير الطبيب من ذلك، وسأل المضيف: من هذا الشخص، ولماذا قام بهذا التصرف غير اللائق؟ قال المضيف: إنه شخص كبير جدا، فلا يسعني أن أسأله عن سبب تصرفه هذا. عندها قلت له بدون توقف: يا حضرة الطبيب، كنت تذكّر قبل قليل المساواة بين الرجل والمرأة. ولقد أنجبت زوجتك ولدا، أما الآن فقد جاء دورك، وأريد أن أرى هل أنت جاهز لذلك؟ وإلا فأين المساواة؟ فتحير الطبيب حيرة ما بعدها حيرة، وضحك المضيف مقهقهًا وقال للطبيب: أجبه. فخرج الطبيب من الموقف وقال: نعم! كنت على خطأ، إذ نقلد أهل أوروبا دون تدبّر وتأمل."

١٩٠٧/٣/٤

"كان مهراجا كشمير يقول مرارا في البلاط أمام جميع رجال البلاط: لقد اجتمعتم عندي بسبب أغراضكم وغاياتكم، وتتملقونني، ثم قال مشيرا إلي: لكن هذا الرجل هو الوحيد الذي دعوته أنا شخصيا ولا أجد بدًّا من تملقه."

١٩١١/١٢/١٦

"لم تكن لي أي رغبة ولم أسعَ قط لمناظرة أحد، ولا الآن أريد ذلك، إلا أنني كلما أُجبرْتُ على المناظرة مصادفة دون قصد مني، فقد ناظرتُ بعد الدعاء دوماً، ونجحت دوماً، فجزّيتُ ذلك أنتم أيضاً. لكن الأنبياء عليهم السلام يكونون معذورين لكونهم مأمورين".

بعض السادة المشايخ

١٩١٢/٣/١٨ قبل صلاة الظهر أثناء تناول الغداء

ذات مرة كنت في لاهور فجاءني محامٍ وقال لي: هناك عالم كبير قد قرأ ١٣٠ تفسيراً بتدبر كبير. فقلت له قد لا تجد ١٣٠ تفسيراً في البنجاب كله. وطلبت منه أن يقول للشيخ أن يسجل أسماء تلك التفاسير، فلما ذهب إليه المحامي وطلب منه أسماء التفاسير قال لم أقرأ ١٣٠ لكنني قرأت ٣٠ تفسيراً حتماً. فقلت له أن يطلب منه أسماء ٣٠ تفسيراً قرأها. فلما ذهب إليه قال له لقد قرأت تفسيرين أو ثلاثة تفاسير وليس ثلاثين. فلما أخبرني عن ذلك قلت له أن يسأل الشيخ هل قرأ تفسيرين أو ثلاثة بالاستيعاب؟ فلما عاد إليه وسأله قال: أما آية ﴿إِنِّي مُتَوَقِّئُكُمْ﴾ فقد قرأتها في تفسير الجلالين وتفسير الحسيني.

فحين يستخدم هؤلاء المشايخ تعبير: "قول جمهور العلماء" أو "جمهور الأمة" وغيرهما، فحقيقةً "معظمها" هي من هذا القبيل.

١٩١٠/١١/١٢

في لاهور كان شيخ يدعى رحيم بخش يقيم في مسجد "تشرينان"، ولقد ألف كتبًا كثيرة مثل "الكتاب الأول للإسلام"، والكتاب الثاني وغيره. ذات يوم جاءني للمناظرة بمنتهى الحماس وقال فور وصوله: إن القرآن في رأيي كلام مجمل. فبأي كتاب نستعين لتفصيل هذا الإجمال؟ فقلت له: كيف تصف القرآن بأنه مجمل؟ إذ قد قال الله ﷻ في وصفه: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ (الأنعام: ١١٥). بينما تصفه مجملًا! فنهض وانصرف فورًا قائلاً: لن أناظرك طول الحياة. فلم يناقشني قط فعلاً.

١٩٠٧/٩/١١

ذات مرة اجتمعت مصادفةً مع أحد أتباع مذهب "وحدة الوجود" على مائدة الطعام، وحين رميتُ العظم إلى كلب قريب منا قال لي: هذا أيضاً إله^١. وكان ذلك الرجل من أتباع الشيخ السيالوي. فقلت له: إذن لم تبق لك الحاجة للذهاب إلى قرية "سيال". فقال: وأها لك يا شيخ! قد شتمت شيخنا، قلت له: قد شتمت ربنا. فُبْهت.

^١ يقول أتباع وحدة الوجود إن كل شيء في الكون إله، ومن ثم قصد ذلك الرجل أن الكلب أو العظم أيضاً إله، وقصد حضرته ﷺ أنه ما دام كل شيء إلهاً فكل واحد منهم إلهٌ يساوي غيره درجةً، فقال حضرته لمتبع مذهب وحدة الوجود أن الكلب والشيخ السيالوي متساويان بحسب اعتقادك، فلا داعي لذهابك إليه لزيارته، فلما قال بأن هذا القول شتيمة لشيخه ردّ عليه حضرته أن الشتيمة الكبرى هي أن تجعل كل شيء إلهًا. (المترجم)

١٩٠٩/٥/١٣

قال لي شيخ: إنك تعتبر إسلام الكفار إحياءً، وهو أمر بسيط هين. فسألته بعد قليل: هل في قرينتك أي كافر؟ قال: نعم، هناك بائع هندوسي. فسألته: إنك شيخ، فلماذا لم تجعله مسلماً إلى الآن؟ فقال بتدبر قليل: إن هذا العمل فعلاً صعب جداً، وإنما هو مهمة الأنبياء فقط.

١٩٠٩/٥/١٧

لقد أفتى أحدهم بكُفري، وكتب في الفتوى سبعة عشر سبباً لتكفيري. فقلت له ذات يوم إن كل هذه الأسباب فعلاً مدعاة للتكفير ودعني أختتم على ذلك أنا أيضاً.

١٩٠٩/٥/٢٣

سألني أحدهم برهاناً على تحريم البراز، فقلت له إنه شيء ضارٌّ يُخرجه الله من بطوننا بقدرته، فأبي عقل وإنسانية في استعادته مرة أخرى إلى البطن؟

١٩٠٩/٦/١

"إذا تطرق الاحتمال بطل الاستدلال" هذا قول المشايخ. حيث يبحثون عن الاحتمال في كل قضية، ويقولون: إذا تطرق الاحتمال بطل الاستدلال. فقلت لأحد المشايخ: هذا لا يعني أنه يجب أن لا يقدم دليلٌ يضم أي احتمال. وإنما يعني: حين يأتي الاحتمال لا تبقى الحاجة للاستدلال. لأن في الاستدلال هناك احتمالاً أن يكون صحيحاً أو خاطئاً، وبذلك يبطل الاستدلال. والمعنى أنه يجب أن لا توظّفوا الاحتمال بل يجب أن توظّفوا الاستدلال.

١٩٠٩/٦/١٠

ألقي النواب "محسن الملك" محاضرة بيّن فيها أسباب تخلف المسلمين، فأعجب بها السير سيد أحمد خان كثيرا، ونشر المحاضرة على نطاق واسع، ليطلع المواطنون على أسباب التخلف. فقد أرسل سيد أحمد خان نسخة منها إليّ أيضا، فكتبت عليها آية: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣١)، وكتبتُ أن ليس هناك أي سبب لتخلف المسلمين غير هذا.

١٩٠٩/٦/١٩

ذات مرة أرسلت الرسائل إلى كبار المسلمين في عليغره وسألتهم فيها لماذا يلاحظ الكسل والفتور في الأعمال مع أنهم مسلمون. فكتب إلي الأستاذ شبلي غفر الله له: "لم نعد نؤمن بالله ﷻ والدين."

١٩٠٩/٦/٢٦

أثناء درس سورة الرسائل حين قرأتُ آية ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الرسالات: ٥١) قال لي أحد الحضور: لقد تم دحض جميع الأحاديث التي تذكرها. فقلت له: قد تم دحض حديثك هذا أيضا.

١٩٠٩/٦/٢٧

ذات مرة جاءني الشيخ محمد حسين البطالوي وعبد الله التونكي كلاهما للمناظرة. فقال محمد حسين إنه يريد أن يملي الشروط، قلت حسنا، فقال: الشرط الأول: حين يظهر الخلاف بيننا وبينك في الحقيقة والمجاز فقلت

له إن الشرط الأول خطأ، لأنك من أهل الحديث. وإن التفرقة بسبب الحقيقة والمجاز بدعة، إذ قد ظهرت فتنة الحقيقة والمجاز في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع، عندها قال له عبد الله التونكي: انهض ولنصرف فقد بطل هنا "المطوّل" أيضا. فأدرك أن هناك شيئا ما حتما.

١٩٠٨/٨/٨

كان أحد سكان مدينتي يعظمني كثيرا وكان يزورني كثيرا بمنتهى الاحترام كمريد، ذات يوم لاحظت أنه انصرف حين أقيمت الصلاة وتقدمت لأوم الصلاة، فظننت أنه يريد أن يتوضأ، لكنني بعد أيام كثيرة عرفت أنه ترك الاقتداء بي في الصلاة، فلما سألته عن السبب قال: أسلمم بأنك عالم كبير للقرآن والحديث، ولذلك لم أنقطع عن زيارتك، لكن بما أنك قد آمنت بالشیطان فلن أصلي خلفك. فسألته باستغراب: كيف ذلك؟ فقال: سواء عرف ذلك أحد أم لا، فإني قد عرفتُ وأدركت أنك تؤمن بالشیطان أيضا كما تؤمن بالله ﷻ. فقلت له أن يشرح لي ما هي القضية. فقال: إن الإنجليز كفار أشد الكفر والشیطان وليهم، ولذا فإن الشيطان هو الذي ينجز معظم أعمالهم. فهم عن طريق الشيطان يرسلون الخبر من مكان إلى آخر وهو ما يسمى البرقية. فلاحظتُك يوما ترسل أنت أيضا الخبر بالبرقية، فامتنعت عن الصلاة خلفك. فانداهلت عند سماع ذلك، ولم أتمكن بأي طريقة من إقناعه. وإنما قلت له مضطرا: حسنا.

وهناك حادث مشابه آخر لا يقل عنه عجبا. حيث كنت في كشمير، فوصلنا الخبر ببرقية أن هلال رمضان قد رُئي، فقلت للناس أن يصوموا غدا. فجاءني شيخ مشهور هناك وقال: كيف أفتيتَ ببدء صيام رمضان

غدا؟! قلت له قد وصل الخبر بالبرقية، فقال التوبة التوبة، هل تصدق الخبر الآتي بالبرقية؟ قلت: لم لا أصدق؟ فقال: أنت لا تعرف حقيقة نظام البرقية، أما أنا فأعرفه جيدا. فقد وصلتني مرة برقية، فسألت الموظف ما الذي كُتِبَ فيها؟ فقال: قد ورد فيها إن "بركط" مريضة. فقلت له أن يستفسر ما الذي حدث بالضبط، فأعاد قوله إن "بركط" مريضة. مع أن الحقيقة أن ابنتي بركة كانت مريضة، لكن موظف مرسل البرقية جعل بركة بركط. فالواضح أن الذي لا يستطيع إخبار الاسم الصحيح فكيف يُتوقع منه إيصال الخبر الصحيح، لذا ينبغي أن لا نصدِّق خبر البرقية أبدا، فلم أجد بداً من السكوت.

١٩٠٨/٨/٨

ذات يوم سألتني شاب مسلم في القطار عن مسألة -قريبا من محطة "شاهدره"- وخاطبني بعبارة "المولوي المحترم" وكان في العربة شيخ هرم ذو لحية بيضاء، وكان لابسا خواتم من ذهب، فنهض فورا من مكانه واقترب من النافذة وأخرج رأسه من النافذة وأدار لنا ظهره، ففهمت أنه يكره شيئا، فبدأت أرد على سؤال ذلك الشاب بصوت عالٍ بمنتهى الوضوح، وشرحت له المسألة بأسلوب فلسفي بقصد أن يتناهى كلامي حتما إلى سماع ذلك المسنِّ أيضا، وكان السائل أيضا يستغرب من أي أطيل الرد على سؤال بسيط وأسترسل فيه. فلما انتهيت من الكلام شكرني السائل على أي وضَّحت له المسألة. فلما كان ذلك الهرم ذو اللحية البيضاء أيضا قد استمع إلى كلامي كله، فالتفت إليَّ هو الآخر أخيرا،

وقال: لم أجد في القطار أي مكان لأنتقل إليه، لذا اضطررت للاستماع إلى كلامك. فالحق أني حين أسمع بحق أحد أنه مولوي يتغير لوني وأضطرب جدا، وأخافه كثيرا. وسبب ذلك أن الإنجليز حين جاؤوا إلى لدهيانه أول الأمر، ففي ذات يوم في تلك الأيام ألقى مولويّ الوعظ، فذهب والدي أيضا إليه، فرافقتُهُ أنا أيضا، وكنت وحيد أبويّ وكنت صغير السن، إلا أنني كنت ذكيا جدا. فقال المولوي في الوعظ إن نهر النيل ينبع من جبل القمر، أي هناك جبل في القمر ينبع منه النيل. فقال أحد الحضور إن القمر يمر من فوق رؤوسنا ولا تنزل أي قطرة على رؤوسنا، ولا يبدو أن النيل ينبع من هناك. فعند سماع هذا القول قال المولوي أمسكوا به ولا تدعوه ينفلت من أيديكم، فهو كافر. وكان في الحضور كشميريون كثر، فاهالوا عليه من الجهات الأربع، وأمطروه بالأحذية ولطموه كثيرا حتى أغمي عليه وأشرف على الهلاك. فنشأت في قلبي كراهية شديدة للإسلام، فنهضت من هناك فورا وتوجهت إلى أحد القسوس مباشرة، لينصّرني ويرسلني بعيدا فورا، وإلى الآن لا أعرف حال والدي، ولقد درست الإنجليزية فقط، وأصبحت قسيسا من الدرجة الأولى بعد قراءة كُتب المسيحية كلها، ولمدة طويلة ظلت أنشر المسيحية وأصبحت مدير المركز المسيحي. وذات يوم لقيني إنجليزي قد عمل مفوّضا في جالندهر، وعمل في سلك القضاء أيضا بصفته قاضيا، وأراني مجلة قائلًا: "ورد فيها خبرٌ بأنه قد عُثِر على منبع نهر النيل، وكم تُكابِد أمتنا وكم هي تتحمل المشاق في البحوث إذ قد أضع الكثيرون أعمارهم في البحث عن منبع نهر النيل، فقد خلّت أجيال عدة من بعض العائلات باحثة في هذا المجال،

والآن أخيراً قد تبين أن نهر النيل ينبع من جبل القمر، فهو جبل تغطيه الثلوج دوماً، واسمه جبل القمر". فأخذت منه المجلة وصرفته بحجة ما، ودخلت الغرفة وبكيت كثيراً متذكراً والدي، فقلت: يا إلهي، بسبب أحد المولويين تنصرت والآن أسلم من جديد بسبب أحد المسيحيين، فليس من شك في أن الإسلام دين حق، لكنني لا أعرف ما هو الإسلام وما حقيقته. باختصار؛ أنا مسلم، فأنا من ذلك اليوم مسلم، لكنني إلى اليوم لم أقابل أي مولوي، ولم أستمع إلى أي مولوي، اليوم بعد سماع حديثك تغير انطباعي، وقلت في نفسي إن جميع المولويين ليسوا سواء، وفي الوقت نفسه أخشى أن أتصر مرة أخرى بالاستماع إلى حديث أي مولوي آخر، وأتمنى أن أموت مسلماً.

١٩٠٨/٨/١٨

جاء مولوي شابٌّ في مدينة أجدادي وكان وهابياً متعنّناً، رأيت عنده كتاباً قد كُتِبَ على غلافه "دار الشفاء". فلما فتحت الكتاب وجدته من الداخل "زينة الإسلام" فقلت: ما السبب؟ فقال إن كتاب زينة الإسلام كتاب مشهور للوهابيين، يعرفه الجميع، فقد مُزّقَ غلافه وألصق مكانه غلافُ دار الشفاء، فمن ذا الذي يعرف المضمون؟ فنحن نقرأ هذا الكتاب على مسامع الناس ونلقني منه الدرس فحسب.

١٩٠٨/٨/١٨

ذهب أخوان غير شقيقين إلى شيخ شيعي كبير وكان بينهما نزاع، ورفعت القضية في المحكمة بسبب عقار، فقال أشرطهما للآخر: أثبت لي أن أبي تزوج

أمك، فقدم الفريق الثاني الشهود ببذل جهد كبير، إذ كان الفريقان قد جعلاه حكما بينهما، وكان زمن طويل قد مضى على النكاح، فقال المدعي للشيخ، أن يسأل كلا من الشهود على انفراد، ففعل الشيخ، فكان المدعي يسأل كل شاهد في أي يوم عقد القران، وعند العقد إلى أي جهة كان وجه أبي، وفي أي ساعة عقد القران؟ وما إلى ذلك من أسئلة، فظهر اختلاف بين الشهود، وكتب الشيخ فتوى ضد الفريق الثاني، أنه ولد حرام. فلما عرفت ذلك توجهت إلى الشيخ، فقلت له ما هذه الكارثة؟ فقال الشيخ: هناك اختلاف كبير بين الشهود فماذا أفعل؟ فسألته: أخبرني يا سيدي، إذا طلب منك الشهود على عقد قران أمك فهل تقدر على ذلك؟ فقال بتدبر بسيط: لا. فقلت له إذن كيف حكمت؟ فاحتار جدا ما الذي ينبغي أن يفعل؟ عندها قلت له: هناك مسألة فقهية هي أن الشهادة في تعيين النسب ليست ضرورية، فالعرف كافٍ، ففهم الشيخ.

١٩٠٨/٩/٢٦

جاءني في جامون شيخ كبير ما زال على قيد الحياة، وأقام عندي مدة وكان يعاملني بلطف كبير. وذات يوم حين وجدني موافقا له في عالم الحب طلب مني أن أعلمه "عمل التسخير". قلت له: إنما أدعو الله ﷻ، فعليك أن تنصرف أنت أيضا إلى الدعاء فقط، فلم يصدّقني، وانصرف من عندي عاتبا.

١٩١٢/١/٣٠

ذات يوم قال لي أحد: تعال أعلمك عمل التسخير، فقلت له: قد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَسَحَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

مِنْهُ ﴿الجاثية: ١٤﴾، فما الذي تريد أن تعلِّمني أكثر من هذا. فبهت من سماع ذلك.

١٩٠٩/٤/١٨

ذات يوم قلت لشيخ: لقد أحيا سيدنا المسيح الموعود عليه السلام أيضا الموتى كما كان سيدنا النبي محمد ﷺ يحيي الموتى، فقال هذا أمر بسيط عادي. قلت له إذا كان الأمر بسيطا هينا فأخبرني كم من الموتى أحييت وقد بلغت من العمر عتيا؟ أي كم سيئا جعلتهم صالحين؟ فقال: لم أجعل أحدا. قلت حسنا، فهل سعيت لتجعل أحد الكبار صالحا؟ قال لا. ثم سألته هل رأيت شيخك أو أي صالح آخر يسعى ليجعل أحدا باراً؟ قال لا، فقلت له كيف قلت إذن إنه عمل بسيط؟

١٩١٢/٢/٢٤

لم أر أي لص أو قاطع طرق أو راشٍ أو مزور مرتاحا، فذات مرة أمليت على خليفة نور الدين الجاموني موضوع رسالة، فسلمتها لشيخ مزور مشهور، وتركت على الرسالة علامة خفية. فلما جاءني ذلك الشيخ بنسخة من الرسالة كانت عليها تلك العلامة الخفية أيضا، فذهلت، فسألته أيهما أصلية، فقال الآن لا أستطيع أن أميزها أنا أيضا. ثم أخبرني الشيخ نفسه: ذات مرة صنعتُ إيصالات مزورة بالغة الهندية للمقترضين من المرابي الهندوسي، فلم يستطع أن يرفضها في المحكمة، وذلك لأنه ذات مرة رفض أن يُقرضني. وعن الشيخ نفسه تلقيت رسالة قبل أيام أنه أصيب بالجنون واختل عقله وفقد كل متاع ومال له ولم يبق عنده شيء.

١٩٠٩/٥/١٤

لقد تجول معي شخص في أمرتسر من الصباح إلى الظهر، وخلال هذه المدة أخبرته أمورا نافعة كثيرة، لكنه قال لي أخيرا إن سرورك مُسبل، فسألته هل تلقيت أي نصح من كلامي أيضا؟ فقال قد ظللت أفكر في نقطة ضعف فيك لأعترض.

١٩٠٩/٥/١٤

ذات يوم أخبرت شخصا نكتة من معارف القرآن الكريم، فطلب مني أن أخبره شيئا من الطب لأني لا إمام لي بالقرآن الكريم حسب رأيه، فسألته كيف؟ فقال: أنا قارئ، وقد أخطأت في لفظ الحروف الفلانية، فلم تلفظها بمخارجها الصحيحة.

١٩٠٩/٥/٣٠

في محافظة "شاه بور" ألقى القبض على شيخ في قضية امرأة، فطلب الدعاء من أحد أصدقائي وأن يخبره عن مصير القضية. وكنت أعرف الداعي وطالب الدعاء. فقال لي الصديق: قد دعوت كثيرا، ورأيت مشهدا أن هناك أتانا وحمارا، فالناس يمسكون بالحمار وهو يهرب. فقلت له إن رؤياك أو كشفك صحيح، لأن الله ﷻ قد قال: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٦)، فلم يخبر الشيخ بالتفصيل وإنما قال له: لا أرى المصير حسنا، فحكم عليه بسجن سنوات عدة.

١٩١٢/١١/٨

لقيتني مومس في القطار فسألته أين كنت؟ قالت: سبحان الله، قد ذهبت إلى الشيخ الفلاني، فقال لي عند وقوع نظره عليّ: ها قد جاءت خادمتنا، وأمر بمنح ٣٠٠ روبية لي، فالآن أنا عائدة إلى البيت مغتنية.

١٩٠٩/٥/٢٣

لقد قال لي أحد المشايخ: إن لي صديقا مثقفا طلب مني أن أشارك في موكب عرسه، وكان له علاقات ونفوذ في المجتمع الإنجليزي، وكان عندي سبعون روبية فقط، فخاطبها المثقف نفسه طقما لي وأخذني معه في موكب العرس. وحين وصلنا إلى هناك وحن موعد الطعام قال لي: يجب أن تلبس لباسا خاصا لتناول الطعام، فلن يسمح لك بدخول مكان الطعام في هذا اللباس، فكذلك للتفرج على مباراة لكرة القدم لباسٌ وللنوم لباسٌ وللتنزهة لباسٌ، وعلى هذا القياس. فأقام الموكب ثلاثة أيام، فتمارضت خلال هذه المدة وبقيت في اللحاف، وحين حان موعد العودة، ارتديت ذلك الطقم.

١٩١٢/١٠/٦

لم أجد أي غني يدفع الزكاة بانتظام، إلا شيئا واحدا، وكان أخا لي، فلم أر أي شيخ أيضا يؤتي الزكاة، ولم أر أي صاحب زاوية يؤتي الزكاة.

الشيعة

١٩٠٧/٧/٢٠

ذات مرة كان لي وعظٌ في لاهور فقلت أثناء الخطاب: لو كان الله قد قال في القرآن الكريم إن عليا عليه السلام حصرا سيكون خليفة بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لتوصل الناس إلى الحكم عاجلا وبسهولة. فقال لي أحد الشيعة بعد الخطاب: لقد أثرت موضوعا غريبا جدا، فسألته كيف؟ فقال: "في ألفي موضع في القرآن

الكريم عُدَّت الخلافة حقا لأسد الله" فقلت له إذا أخرجت لي تلك الآيات فسيكون نور الدين على الأقل شيعيا. فسألني: هل ستبقى إلى الغد؟ قلت نعم، فلم يأت حتى بعد أيام كثيرة، ثم بالمصادفة قابلني في الطريق، فقلت له: طلبت منا الانتظار ولم تأت إلينا. فقال: كلما ذهبتُ إلى أي مجتهد لم يساعدي، وإنما نهاني عن مقابلتك فقط. فانصرف من عندي وهو يسب هؤلاء المجتهدين.

١٩٠٧/١/٨

قال لي أحدهم: في بند دادنخان مومسٌ تدعى "ميتا"، فهي خبيرة في جعل الناس شيعة، أي كل من زارها جعلته شيعيا. فبالمصادفة جاءني يوما بغية العلاج، كانت امرأة مثقفة ومتعلمة مشهورة، فسألني خادمها الذي جاء بصحبتها هل تعرف من هذه؟ قلت لا، فقال إنها ميتا. فقلت: أنت السيدة ميتا إذن. أردتُ أن أسألك سؤالا، فضحكتُ وقالت: ما الذي عسى أن تسألني أنت؟ فسألته لماذا لم يبائع الإمام الحسين يزيد؟ فقالت كان يزيد فاسقا أي زانيا، لذا لم يبائعه الإمام الحسين. فقلت لها: إذن كان الإمام الحسين يكره الفساق والزناة. قالت نعم. فقلت إذن، فالذي يرعّب في الزنا؛ أي يجعل الناس زناة، أقصد يجعلهم يرتكبون الزنا، فمتى يمكن أن يرضى عنه الإمام الحسين؟ فقالت: لست متعلمة كثيرا. أرجو أن تجس نبضي.

١٩٠٨/٢/١٠

ذات يوم طلبت من الشيخ أحمد المجتهد في مالير كوتله أن يخبرني: هل يمكن إثبات أو هل يعتقد أي شيعي أن أحدا اختلق سورة كاملة ودسّها في

القرآن الكريم، مهما كانت السورة المختلقة قصيرة؟ قال: كلا لا توجد أي سورة أضيفت إلى القرآن الكريم، إلا أنه من المحتمل أن تكون بعض السور أو بعض الآيات قد حذفت من القرآن الكريم، وشوّه الترتيب. فحين قال ذلك قلت له بأنه يبدو من ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَعِظْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر: ٢-٤) أن النبي ﷺ رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجا، أرجو أن تريني فوجا واحدا بل دعك عنك الفوج، أربي كتيبة واحدة فقط، ولا أطلب حتى الكتيبة بكاملها وإنما أرجو أن تذكر لي أسماء خمسة عشر جنديا أو عشرة فقط منها. (لأن من معتقدات الشيعة أنه بالإضافة إلى علي ﷺ، كان هناك مؤمنان ونصف مؤمن فقط) فعند سماع ذلك بهت الشيخ أحمد المجتهد وأصابه اضطراب كبير لدرجة أن قال بأنه يجب البحث في ﴿إِذَا﴾ على ضوء المنقول، ثم يجب أن يُبحث فيما إذا كان الزمن حادثا أم قديما، أو هل هو طاهر أم نجس، أو متصل أم منفصل. فقلت له أن يكتب لي أنه لا يعرف معنى "إذا". فكتب أنه لا يعرف معنى "إذا". فلما علم ذلك الشيعة الآخرون أثاروا ضجة أنه كيف كتب ذلك؟ وقالوا له: كيف تسمي مجتهدا إذا كنت لا تعرف معنى إذا؟ فجاءني رجاله وبدأوا يتملقونني لأعيد إليه الورق، فسلمته له.

١٩٠٩/٥/١٦

ذات يوم جاءني شيعي بكتاب بخمس مجلدات فسألته عن سعره، فقال سعره أن تقرأه مرة. ومن أجله قرأت ٧٥ صفحة منه، وكتبت عليه آية:

﴿قَالِدِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا
لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ بَّخْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٦). كان صاحب
الكتاب قد بذل جهده ليثبت أن الصحابة رضي الله عنهم مذنبين، وكانت هذه الآية
وحدها تكفي لدحضه.

١٩٠٩/٥/٢٢ بعد صلاة الظهر

في أثناء إقامتي في مالير كوتله صدر من الشيعة إعلان مطبوع في مطبعة
"بلالي سادهوره" ورد فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها إنه قد
آذاه قومها. فقلت: إذا إن قوم النبي صلى الله عليه وسلم هم أبو طالب وعلي رضي الله
عنهما؟ قال أحد الشيعة نعم، قلت: إن الله تعالى يقول ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾
(الأنعام: ٦٧)، فحين انتشر قولي هذا نُزعت من المدينة جميع الإعلانات
في اليوم التالي.

١٩٠٩/٥/٢٧

لقد سألت كثيرا من الشيعة أن يخبروني كيف جاهد النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر
الصديق وسيدنا عمر رضي الله عنهما امتثالا للأمر الإلهي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
جَاهِدِ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التحریم: ١٠)؟ ولقد قلت للشيعة
أيضا إن أبا بكر الصديق وسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنهما بدلا جهودا
فنجحا، بينما سعى علي رضي الله عنه أيضا بحسب اعتقادكم وصدق عليه القول:
﴿وَهُمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ (التوبة: ٧٤)

١٩٠٩/٦/٩

سألت أحد الشيعة أنه إذا استقر الحمل بعد المتعة وولدت طفلة، ثم جاءت بالمصادفة الطفلة نفسها للمتعة بعد أربعة عشر عاما فكيف تتخلص منها؟ فبهت ولزم الصمت.

١٩٠٩/٦/١٤

سألت أحد الشيعة أن الله ﷻ أمر بقتل المنافقين، فمن الذي قتل أبا بكر وعمر رضي الله عنهما؟ قال عندما يأتي الإمام المهدي فسوف يخلق أبا بكر وعمر ويقتلها. وعند سماع هذا القول ألقى أحدهم الرماد على رأسه وتوجه إلى الشيعة وقال لهم، لقد ظلمنا أبو بكر أولا ثم عمر ثم عثمان ثم معاوية ﷺ ثم يزيد فلم نقاوم نحن أو أحد الأئمة، والآن كنا آملين في الارتياح والسكينة وأنا سنعيش في زمن المهدي في بجمحة، لكن اليوم عرفنا أن أبا بكر وعمر سيولدان من جديد، فكيف يتركاننا نرتاح؟

١٩٠٨/٨/٢٣

لقد سألت الشيعة كثيرا أنه بدعوة محمد رسول الله ﷺ ظهر سيدنا أبو بكر وعمر وعثمان والزبير وطلحة وأصحاب بدر وغيرهم ﷺ، الذين كانوا في رأيكم ظالمين وغاصبين وكافرين ومرتدين. والآن أخبروني ما الذي سيحدث بدعوتكم؟ فقال أحد الشيعة: صحيح أن هؤلاء أيضا ظهروا، لكن عليّ ﷺ أيضا وُلد. قلت له: أما علي فكان قد ولد وليًا حتى قبل الدعوة- كما تعتقدون- فلماذا تذكره؟

١٩٠٩/١١/٢٩

في مالير كوتله جاء مجتهد شيعي وهناك يقيم التجار الشيعة، فسمع حضرة المجتهد أن هؤلاء التجار قد شابوا كثيرا ولم يختتن معظمهم. فأمر بالختان وسألهم لماذا لم يختنوا إلى الآن؟ فقالوا إن عملية الختان تكلف مائة روبية، وقال لي أحد آخر إن العمل بالشريعة مستحيل. سألته لماذا؟ وهل يمكن العمل بتقاليدكم؟ فبهت وأدرك بعد تدبر.

١٩٠١٠/٣/١٨

ذات يوم جاء إلى بيتي أحد الشيعة يدعى "غوهر شاه"، وعرفت أن شيخا آخر وهو المولوي عبد الله يريد أن يناظرني، وإنما أرسل هذا لاختباري، فسألني هل تعرف مسألة القرطاس؟ قلت له القرطاس يُصنع في سيالكوت، كما يصنع القرطاس الكثير في أوروبا. فقال: هناك مسألة القرطاس. فقلت له يجب أن تسأل عنها صانعي القرطاس، ثم سألتني ما هو كتاب دينك؟ فقلت إن القرآن كافٍ. فسأل: هل هناك كتاب آخر؟ قلت هناك كتاب البخاري، فسأل هل في البخاري قضية القرطاس؟ فقلت نعم قد ورد فيه أن سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه كان يريد أن يخطب ابنة أهل البيت أمّ كلثوم، فحين طلب النبي صلّى الله عليه وآله القرطاس ليكتب أن أبا بكر رضي الله عنه حصرا سيكون خليفته، اضطرب أهل البيت أنه لو كتب اسم أبي بكر فسوف يواجهون مشكلة عويصة، فقالوا: يعرف الجميع أن أبا بكر وحده سيكون الخليفة، فلا داعي للكتابة؟ فأنحاز عمر رضي الله عنه إلى أهل البيت فقال: ينبغي التسليم برأي أهل البيت واتركوا القرطاس. ثم سألتني ذلك الشيعي ما رأيك في فدك؟ فسألته ما هو فدك؟ إنما كان بساتين لليهود وقد

ورد في سورة الحشر: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الحشر: ٧)، فإنما هذه الأموال للمؤمنين والمهاجرين، ... فتبين أن هذه الأموال لكثير من الناس ونحن نقول إنها ملك أهل السنة. ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر: ١١). فهذه الأموال للذين يأتون من بعد. فأخبرني الآن هل الشيعة الذين يحسبون أنفسهم أحق بها يدعون للصحابة السابقين ويطلبون من الله الغفران لهم أم يتبرأون منهم كلهم، فالقرآن الكريم يقول إنها حق أولئك الذين لا يتبرأون.

١٩١٢/١/٣١

لقد قال لي أحد الشيعة: إن القرآن الكريم كتاب صامت بينما علي عليه السلام كان كتابا ناطقا. قلت له إن هذا الكتاب يقول إنه ينطق كما ورد: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ (الجاثية: ٣٠)، أما إذا كان علي عليه السلام فعلا ناطقا، فساعدني على الاستماع إليه الآن.

النصاري

١٩٠٧/٧/٢٤

كان شخص يدعى سيد حسين يمشي في مومباي فرأى أحد المسيحيين يأتي إليه راكبا على عربة، فسلم عليه، فأوقف العربة وسأله: هل الحصان أقوى

أم أنت؟ فقال المسيحي: الحصان أقوى. فقال: إن الإنسان سخر لنفسه من وجده أقوى منه، أما أنتم فقد رأيتم الله وآمنتم به ولم تمسكوا به.

١٩١١/١٢/٢٣

ذات يوم واجهت مسيحيا فسألته: أنتم عندما تنزون فهل تصابون بالزهري أم المسيح؟ فبُهِت.

١٩٠٩/٤/١٣ قبل الدرس في المسجد الأقصى

لقد قرأنا الكتاب المقدس مرات عدة، ولقد سرق أحدٌ نسخة الكتاب المقدس التي كنت أقرأها، وكنت قد كتبت عليها حواشي هامة كثيرة.

١٩٠٩/٥/١٥ بعد صلاة الظهر

قال لي إنجليزي يسمى "غوردن" إن أوروبا أحرزت تقدما كبيرا. فسألته ما هذا التقدم؟ يمكن أن تقارنوا مع المسلمين في أمر واحد فقط هو الأذان. فأنتم لا تفعلون شيئا سوى دقّ الناقوس، بينما المسلمون يرفعون هتافات التكبير خمس مرات يوميا بالصعود على العُرف والمآذن. فهل تقدر أوروبا على إيجاد وسيلة أفضل لإظهار جلال الله وكبريائه؟ فلا اليهود يقدرّون على منافسة المسلمين في هذا ولا النصرارى ولا المجوس ولا الهندوس. وقد حاورتُ إنجليزيا آخر في مثل هذا الموضوع فقال: إنما نحن رفعنا علم تحرير الرقيق. وعلى رؤوسنا رفع هذا الإكليل. فقلت له فورا: إن الله جعل جزءا من الصدقات لمن ﴿فِي الرِّقَابِ﴾ في آية: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ..﴾ (التوبة: ٦٠) لتحرير الرقيق. أما إنجيلكم فلا يتضمن أي أمر لتحرير الرقيق، فأني لك الادعاء بتحرير الرقيق؟ فبهت عند سماع قولي هذا.

١٩٠٩/٥/١٩

ذات يوم كنت أفسر آية: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ...﴾ (المائدة: ٦)، فإذا جاء مسيحي كبير وقال: أيها الشيخ، من الظلم الكبير أن الإسلام سمح لكم بأخذ بناتنا ولم يسمح لكم بإعطاء بناتكم للنصارى. فقلت له: إنك لا تعلم أن الآية تضم نبوءة عظيمة. فالله ﷻ كان يعلم أن الزمن سيأتي عندما يكون النصارى حكامًا على المسلمين، ولما كان قد نصح القرآن الكريم المسلمين بأن لا يسيئوا الظن بحكامهم، مع أنهم سيسئون الظن بكم بأنكم متمردون، لذا يمكن أن تتزوجوا بناتهم ليطمئنوا بأن المسلمين لن يتآمروا ضدهم لأن بناتهم في بيوتهم، وأنهم لو نسجوا المكائد ضد الحكومة فسوف يصلهم الخبر فوراً، فلزم الصمت مبهوراً.

١٩٠٩/٦/١٣

قال لي أحد القساوسة: إن القرآن وصف مكة بـ"سرة الأرض"، فقلت له: إن القرآن الكريم موجود هنا فهو لم يذكر السرة بتاتا، غير أن الكتاب المقدس يقول بأن يأجوج ومأجوج سوف يهاجمون سرة الأرض. وقد ورد ذكر السرة في الحديث. ومعلوم أن الجنين يتلقى الغذاء من خلال السرة وكذلك فإن الكتاب الذي نزل في مكة قد هياً لنا الغذاء الروحاني.

١٩٠٩/٦/٢٠

قال لي أحد النصارى: إنما نحن المسيحيون فقط من نفهم معنى الكتاب المقدس، أما أنتم فلا تستطيعون فهمه. قلت له: إذاً لا تستطيعون أن تشرحوا التوراة أنتم، وإنما اليهود فقط يفهمونها.

١٩٠٨/٨/٣

أثناء درس البخاري في المسجد المبارك بعد صلاة الظهر قال:
 ذات مرة ذهب والد السردار عمر حيات خان من تِوانه إلى منزل أحد
 الإنجليز، فسأله الإنجليزي: أخبرني أيها السردار، هل كان محمد رسول الله ﷺ
 رسولا صادقا؟ فقال له: لست عالما ولا يخطر ببالي دليل آخر، إلا أنني - في
 منزلك - أرى محمدا ﷺ رسولا صادقا. فسأل كيف ذلك؟ فقال: عندي ثلاثمائة
 ألف رويية، وعمرى ٨٠ عاما، ولم أنجب. ومع ذلك عند المجيء إلى منزلك
 أتمنى أن أقتني شيئا من الأرض، وأترقى في مناصبي. ففي العالم مال وثروة ونساء
 وغيرها من الأشياء الممتعة، لكن محمدا ﷺ نهي عن حب الدنيا وأخذ مال
 أحد والنظر إلى امرأة أجنبية، والزنا. ثم لم يحدد دخلا لأولاده أيضا، ونهى
 السادات من أخذ الزكاة، فأخبرني الآن ما الذي استفاده شخصا من دعوى
 الرسالة أو ما هي الراحة التي نالها؟ ثم حرم الصدقة على أولاده. ويبدو أن أحدا
 أجبره على نشر الدعوى؛ أي أن الله هو الذي جعله نبيا، وإلا لم يستفد
 شخصا من دعواه.

عندما روى لي أحدُ جواب السيد ملك هذا قلت بعد سماعه: إن الله سيرزق
 الآن ملك خان المحترم ولدا حتما. فُزق ولدا ما زال حيا يرزق.

١٩٠٨/٨/١٥

قال لي أحد القساوسة: إذا أكلنا في الجنة فأين سنتغوط؟ فقلت له قد
 أكلت تسعة أشهر في بطن أمك فأين تغوط؟ فلزم الصمت.

١٩٠٨/٨/١٦

ذات يوم ركب معنا في القطار أحد الإنجليز اسمه "ينغس"، وكان هناك المنشي جمال الدين أيضا، فقال للإنجليزي مشيرا إليّ: إنه يعرف القرآن الكريم جيدا. فجاءني الإنجليزي وقال: هل تدبرت ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ (النساء: ١٥٨)؟ فشرحتُ له المسألة بالتفصيل. فعند سماع الجواب سألتني عن اسمي، قلت له: نور الدين. ثم سألت: من جامون؟ قلت نعم، فانصرف من عندي فورا، ولم يكلمني طول السفر قط.

١٩١٢/١٠/١٨ يوم الجمعة

ذات مرة مررت راكبا في سيارة من أمام منزل قسيس إنجليزي، وكان برفقتي شاب مثقف. فطلب مني أن أقابل ذلك الإنجليزي فهو فيلسوف كبير. فلما بالغ كثيرا قلت له لا يمكن أن يكون المسيحي فيلسوفا. فسأل كيف؟ فطلبت منه أن يتوجه إليه ويطلب منه أن يشرح له فلسفة الثالث. فذهب الشاب إليه دون تكلف، وسأله عن فلسفة الثالث، فقال له القسيس كفى دليلا على صحة هذه المسألة، أنا قد آمنّا بها، بينما العقول الآسيوية لا تفهمها. فعاد إليّ الشاب وقال بأنه احتقره جدا، إذ قال إن هذه المسألة أرفع من فهم الدماغ الآسيوي. فقلت له أن يذهب إليه مرة أخرى ويقول له إن إلهه (المسيح) أيضا كان من آسيا، كما كان مريدوه مثل بولص وبطرس أيضا من الآسيويين، فيتبين من قاعدتك أن هؤلاء الثلاثة أيضا لم يدركوا هذه المسألة. فحين لم يدركها إلهك وخلفاؤه أيضا فكيف أدركتها أنت الآن؟ فضحك القس عند سماع ذلك. ففهم الشاب أن ضحكته تدل على أنه أفحم. فجاءني وقال قد أفحم. وفي الفترة

نفسها اتفق أن كانت له محاضرة في اجتماع للنصارى وكان الشاب أيضا حاضراً الاجتماع. إلا أن القسيس لم ينتبه إليه، وهناك قال القسيس موجّها الخطاب إلى النصارى أنه يجب الاحتراز من الشباب الحائزين على الشهادات العليا في هذه الكليات، فهم خطيرون جدا. فقد طرح علي أحدهم سؤالاً لم أتمكن من الرد عليه، وقد انذهلتُ، وإلى الآن لا أعرف كيف أردّ عليه.

١٩٠٩/٩/١٠

ذات يوم لقيني مسيحي في القطار فقلت له إنك تبذل جهدا كبيرا، فقال إن الذي بيته فوق الجبل فلا داعي لأن يقلق، أما الذي بيته على تلة من الرمال فهل يمكن أن لا يجتهد؟ فإن أساس ديننا على تلة من الرمال، وإذا لم نجتهد فماذا نفعل؟

١٩٠٩/١/٣٠

كان في راولبندي شخص يدعى صفدر علي، وقد تنصّر ثم ألّف كتابا سماه "نياز نامه". قرأ فيه أحد المشايخ نقاشا حول الآية: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٢)، وجاءني قلقا وقال: إن القرآن الكريم يعدّ الإنجيل صادقا. قلت له: إن مصداق ﴿مَا مَعَكُمْ﴾ هم اليهود لا النصارى، فلم يستوعب الشيخ الموضوع جيدا، فقلت له أن يسأل ذلك المسيحي ما هو الإنجيل الذي نزل على عيسى، حتى لو كان أحد غيره قد جمعه؟ فعندما ذهب الشيخ وسأل ذلك المسيحي قال له ليس عندنا عيسى، فالرب ربنا يسوع، فهو منزّل الكتاب نفسه، ويعلم الأدب والتمييز. فمن ذا الذي عسى أن ينزل عليه أي كتاب ويعلمه التمييز؟ فبعد سماع هذا الجواب

جاءني الشيخ المذكور. قلت له: ها قد فرغت أنت، الآن إذا كان هناك أي يهودي فأخبرني حتى نعلّمك علاجه أيضا.

١٩٠٩/٢/١٥

قال لي أحدهم لماذا تمدحون النبي الكريم ﷺ؟ فقلت له: هل تؤمن بأي شيء قدّمه أي دين؟ قال نعم، أنا أؤمن بالدعاء، فقلت له إن الأرض كروية، ووقت الصلاة على الأرض كل حين وأن. والمسلمون يوجدون في كل بقعة من الأرض، مما يعني أن ألوفا من المسلمين يصلّون كل حين وأن. وفي كل صلاة يصلي المسلم على النبي ﷺ، وهذه الصلاة لا تنقطع أبدا. الآن أخبرني: هل هناك أي نبي آخر يصلّي عليه بهذه الكثرة أو صلّي عليه؟

لقد أبدى السيد محمد يوسف رغبة في أن أسجل رسالته هنا بنصها وفصها لكي يحفظ اسمه في الكتاب وهو يرى في ذلك سعادة له. (المؤلف)

سيدي ومخدومي جناب خان المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد ذكر حضرة أمير المؤمنين أثناء درس الحديث يوم ١٧/١٠/١٩١٢ مناظرة خاضها مع مسيحي، وبعد ذكرها قال إن محمد أكبر شاه خان يكتب شيئا، وهو لا يكون هنا دوما ونحن لا نتذكر كل شيء مرة واحدة، وإنما نتذكر بعض الأمور أثناء درس ما أحيانا. فهذا الأمر أيضا جدير بالكتابة، فأمل على خان المحترم، ما يلي. (الراقم محمد يوسف نائب رئيس تحرير جريدة بدر، قاديان)

فقد قال حضرته: ذات يوم كنت أسافر في القطار فقابلني مسيحي، فقال: لقد كُتِبَ الآن ضد الإسلام كتاب لن يقاومه الإسلام أبداً، فسألته ما هذا الكتاب؟ فقال اسم هذا الكتاب "تنقيد القرآن" وألفه القس عماد الدين. فقلت له أن يذكر أقوى نقده. فقال: إن دعوى القرآن بأنه نزل بلسان قريش بالذات، ولما كان النبي ﷺ من قريش مكة، ولا يستطيع التحدث بلغة الآخرين، فقد أثبت في هذا الكتاب أن الكلمة الفلانية الواردة في القرآن من اللغة الفلانية وأن الكلمة الفلانية من لغة كذا، ومن هنا يتبين أن محمداً ﷺ لم يكن من قريش بالذات. وأن القرآن الكريم أيضاً ليس بلغة قريش فقط. فقلت له: انظر، أنا بنجايي من سكان بھيره وأتكمم الأردية، فهل بذلك يبطل كوني بنجاييا؟ ثم أين ورد في القرآن الكريم أنه نزل بلغة قريش فقط؟ فبدأ يفكر في ذلك ساكتاً. ثم سأل: أخبرني أنت: هل توجد في القرآن آية أم لا، تفيد أنه نزل بلغة قريش فقط؟ قلت له: لم يرد هذا بل قد ورد فيه أنه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٦). فعند سماع ذلك قال لي: قد قضيت على ذلك الكتاب تماماً.

الهندوس والملاحدة

١٩٠٥/١١/١٣

ذات ليلة رأيت زعيماً هندوسياً مسنّاً يرقص. ذهبت صباحاً إلى بيته ورأيت أن هناك تمثالاً لحيّة من معدن، فلما حرّكته بإصبعي ظل يصدر منه طويلاً صوت احتكاك الأواني. فعند سماع ذلك الصوت جاء ذلك الهندوسي المقيم

في بيت قريب، وقال لي: رام رام، ما هذا الذي تفعل؟ فأخجلته كثيرا، باختصار؛ إن المشرك يكون سفيها من الدرجة الأولى.

١٩٠٥/١٢/٣٠

في أثناء السفر كان قد وُضع رداء طويل وعريض في مجلس الملك، وكان يحدث فيه التموج بسبب النسيم العليل وكان المنظر خلابا، في الوضع نفسه كان الملك يناقش وزيره الملحد حول وجود الله ﷻ فطلب مني الملك أن أقدم أي دليل على وجود الله ﷻ. فقلت هو هذا التموج في الرداء الخلاب، فلما نظر إليه الملك أعجب به كثيرا، وسألني كيف يشكل هذا دليلا، فسألته هل يحدث هذا التموج في الرداء بإرادته أم له رغبة شخصية؟ فقال الوزير قد حدث هذا التموج بسبب سرعة الهواء المعينة، وهذا الرداء المتأثر به لا إرادة له. فسألته هل للهواء الآن ميزة طبيعية؟ فقال إنه بسبب انقباض معين حدثت في الهواء هذه السرعة. فسألته هل هذا الانقباض بالإرادة؟ وكنت متأكدا من أن هذا الفيلسوف لن يمشي معي أكثر من خطوتين أو ثلاث خطوات. فقال: يبدو سبب هذا الانقباض مجهولا، فسألته: هل لذلك السبب المجهول إرادة أم لا؟ فقال: هناك قوة عظمى تدير هذا النظام. عندها قلت له أنا والملك معا: إن هذه الكلمة اصطلاح سواء أسميته الله أم برميشور أو (God). فقال لست أنكر وإنما أطلب الدليل فقط.

١٩٠٧/٤/٤

صادف أن جلسنا على كراسي عند أمير عظيم الشأن وكانت تحتها سجادة، وكان ذلك الأمير ينكر وجود الله ﷻ. أثناء الكلام قال الأمير إن الطبيب الفلاني أستاذه. فقلت له أن يطلبه، فدعي، فلما جاء سألته: هل

يتمتع هذا الخيط الأسود الموجود في السجادة بالإرادة أن يبقى مستقيماً كما هو الآن ولا ينحرف أم لا؟ فقال الطيب: يا شيخ، قد جعله صانع السجادات مستقيماً أو معوجاً، لكننا رأينا ذلك الصانع للسجادات ولم نر صانعك أنت. فقلت له: أيها الطيب، قل لي بعد تأمل، هل رأيت صانع هذه السجادة فعلاً؟ فقال: قد رأيت مثيله. فسألته: هل له مثل آخر أيضاً؟ فقال: الحقيقة أنني كنت طفلاً حين رأيت المولوي المحترم، لذا قد انهمزت الآن في النقاش.

١٩٠٧/١/٣

سألت أحد أتباع مذهب البرهمو: ما هو أصل أصول مذهبك، فقال: الدعاء. فقلت: ليس ما تقوله صحيحاً، فقال كيف؟ قلت: بناء على المشاهدة. قال: كيف ذلك؟ فسألته أن يذكر لي أفضل دعاء له. فخجل، وصمت برهة ثم قال: أخبرني أنت. فقلت له: لقد ادّعت أنت وتطلب مني الإثبات. على كل حال وبعد إصراره بدأتُ أقرأ عليه ترجمة سورة الفاتحة واضعاً في البال أموراً كثيرة، فأخرج فوراً من جيبه دفترًا وبدأ يسجله وقال: هذا هو الدعاء الحقيقي.

١٩٠٩/٥/١٦

قال لي أحد الآريين معترضاً: في شريعتكم وُعد الرجال بالأجر في الجنة ولم يرد الوعد بحق النساء، فقرأتُ عليه الآية: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ دَكَّرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ (آل عمران: ١٩٦).

١٩٠٩/٥/١٩

أريت شخصا يأخذ معه الطلاب إلى البيوت الفخمة، وكان يقول لهم عند الاقتراب منها: أتمنى أن تكون هذه البنايات كتنايب عربية، وأن يكون المسلمون حائزين على شرف واحترام، وأن يعيشوا هكذا بترف وشرف. وعندما لاحظ أن قوله أثر فيهم قال: لو كانت هناك فعلا قوة، أي لو كان الله ﷻ فعلا موجودا، لما كان للمسلمين هذا الوضع المأساوي. لاحظوا بأي دقة يعلمون الإلحاد.

١٩٠٩/٥/١٩

اعترض عليّ أحد الآريين قائلا: لماذا تعدون جهة القبلة ذات شرف وتوجّهون إليها وجوهكم أثناء الصلاة؟ فسألته: عند ممارستك تقليدهم "هون" لماذا لا تدير ظهرك إليه؟ ثم عندما تحدثني الآن لماذا لا تدير ظهرك لي؟ فقال: بعد اليوم لن أثير هذا الاعتراض أبدا.

١٩٠٩/٥/٢٠

"مرة أنفقت ألوفا من الروبيات لتعليم شاب حديث العهد بالإسلام. وفي نهاية المطاف كتب إليّ رسالة قال فيها بأني أرتد عن دينكم النجس وذاهبٌ للاستحمام في نهر الغانج من أجل التطهر. فكتبتُ إليه بأن رسالتك قد وصلتني، فإن ارتددت أنت فلسوف يعطينا الله تعالى جماعة بدلا منك، وكتبت له الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ...﴾ الخ (المائدة: ٥٥). عندما كتبت هذه الرسالة كان السيد حامد شاه معي في كشمير وقد أصبح من مردينا الآن.

١٩٠٩/٦/٨

أحد أتباع المذهب "الجيني" أصيب جرحه بالديدان، فأهلكتها كلها بالحمض ونظفت الجرح، فبدأ يدعو لي قائلاً: يا سيدي، قد أشفقت عليّ اليوم كثيراً. فقلت له: تَبّاً لهذه الشفقة، فقد قضي على مذهبك، إذ من أجل نفس واحدة أهلكت آلاف الأرواح.

١٩٠٩/٦/٢٦

قال لي أحدهم: إن في الفضاء عدماً محضاً. فسألته هل قد انعدم القمر والشمس إذن؟ فقال لا تمسك بأخطائي في اختيار الكلمات. فقلت: إن الكلام يُصاغ من الكلمات.

١٩٠٨/٨/٩

سألني أحدهم: ما شكل إلهكم وما لونه؟ فسألته: أخبرني أولاً ما لون صوتك؟ وما شكل قوة تذوقك؟ وما لون رؤيتك؟ فقال: على الأقل لها مواضع محددة. فسألته: هل للزمن مكان محدد، إذ أن مليون جزء من ثانية يحيط بالعالم كله. فليس للزمن أي شكل ومع ذلك هو موجود، وليس له أي موضع معين، فنحن نعرف مخلوقات كثيرة ليس لها أي مكان أو موضع معين، فإذا كانت هذه الأمثلة من هذا القبيل موجودة في المخلوق فكيف نرفض وجودها في الخالق؟

١٩٠٩/١٢/٢٨

الكفر والشرك أيضاً ظلمة كبيرة، فقد رأيت كبار الهندوس يرقصون، ورأيت أصحاب اللّحى البيضاء منهم يضربون الطنبور أمام الأصنام. في محافظة سيالكوت كان شخص يطلب من بناته الرقص معه.

 ١٩١٠/١٠/١٠

قال لي أحد أتباع البرهمو: إنكم تعبدون مكة المعظمة. فسألته: ما معنى العبادة؟ فقال العبودية. سألته ماذا تعني العبودية؟ فقال: العبادة تعني التركيز. فطلبت من أحد أن يصلي، فصلّى، فسألته ذلك البرهمو: أخبرني، هل في هذا العمل أي اهتمام بمكة المعظمة أو تعظيمها، أو هل طلب شيئاً من مكة؟

 ١٩١٠/١١/١٣

قال لي شيرير إنه لما كان الكون من الأرض إلى السماء مليئاً بالأحجار فأين سوف يذهب إلهكم والعياذ بالله؟ فسألته: هل الزمن يسود الكون أم لا؟ فهل من ثانية واحدة تمر على الفضاء كله وأصنامكم أم لا؟ فقال نعم، إن الزمن لا يمزّق بهذه الأحجار، فقلت: إن الزمن من مخلوق الله فما بالك بالخالق؟

 ١٩١٢/١/٢٤

سألني محامٍ برهانا على وجود الله ﷻ، فقلت له: هل لك أي جماعة؟ فقال لا، ثم سألته هل أنت هادي أحد؟ قال لا. فسألته: هل تريد أن تشتهر بكذبك؟ قال لا. فقلت له: إذا كان إنسان سخيّف مثلك لا يجب أن يوصف بالكذاب، فكيف كان جماعة الأنبياء أن تتقبل بأن يكذبوا؟ ثم هناك مؤمنون بهم من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وأنبياء كل عصر متفقون على أن الله يكلمهم.

 ١٩١٢/٢/١٧

كان ملحد يتردد إليّ بكثرة. فقال لي: هناك هندوسي خبير في علوم القرآن وهو لا يعرفك، فقد لا يناقشك إذا عرفك. فتعال معي الآن. فذهبتُ وسألته

أني سمعت أنك ماهر في علوم القرآن وأنتك أثرت بعض الاعتراضات أيضا. باختصار، قد قال بعد حديث طويل: إن ذرات العالم لا تضيع، بينما القرآن يقول إنها تضيع. فقلت له: هذان ادعاءان، أحدهما عليك، أن تثبت أنها لا تضيع، والثاني على القرآن الكريم، أن يثبت أنها تفتنى. فأحضر القرآن الكريم فأخرج آية ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمن: ٢٧). فقلت له ما معنى "كل"؟ قال: كل شيء. ولم يستطع أن يترجم لي "مَنْ"، أما "عليها" فقال: معناها الذي فوق الأرض، والبديهي أنها ليست الجميع. فقلت له ليست في الآية كلمة "تضيع" ولا كلمة "المعدوم" أيضا. الآن بقيت ترجمة "فانٍ"، فلنتأكد هل تعني المعدوم أم غير ذلك، فبُهِت.

١٩١٢/٦/١٣

ذات يوم ذهبت إلى راولبندي، فضيَّفني هناك أحد الآريين وقدم أمامي شتَّامات رائعة جدا، ثم بدأ يقطعها بيده، حيث فصلها عن البذور أولا ثم قطعها إلى شرائح، ثم قشَّرها، ثم رشَّ عليها السكر. وعندما وضعها أمامي سألتني عن فتواي في اللحم. فقلت: أنا لا أكل اللحم، وسؤالك سخيف. فبُهِت، وقال في نفسه بحقي: هو عالم عظيم، هل يمكن أن يجيز أكل اللحم؟ كان يجهل أسلوبِي في المناظرة. فقلت له: قد رأيتُ في حياتي الطويلة برهمنًا واحدا يأكل اللحم. كان من منطقة "أوده" وحائزا على رتبة اللواء في الجيش في كشمير. كان يشتري اللحم من السوق ويأكله نيئًا في الطريق. ثم أخذتُ شريحة من الشمام وقلت: هذه لا تسمى شماما، إذ كان الشمام ما قطعته ورميت معظمه، أي البذور والقشور، فما هذا؟ قال: هذا شيء خليط من

السكر والشمام. فيمكن أن تسميه كما تريد. فقلت له: إن الإنسان مرَّكَّبٌ لا يقدر على أكل الشمام، فأني له أكل اللحم؟ يأتي إلى بيتنا لحم، فنضيف إليه أثناء الطبخ السمن والزعفران والقرفة، والحشخاش والطحين والحمص وغير ذلك من الأشياء، فيكون خليطا لا يمكن أن يسمى بعدها لحما. ويمكن أن نقول إن جزءا من ذلك الخليط حُمٌّ أيضا، كما لا يستطيع الإنسان أن يأكل السبانخ أيضا مثلما يأكله العنز.

أحداث مختلفة

١٩١٢/١/١٠

ذات يوم جاء إلي إسكافي لبيعي حذاء، فبدا لي الحذاء جيدا، لكنني حين أمسكته وجدت فيه زيفا. فقلت له: يبدو فيه زيفٌ. فقال لي الحذاء المسنن: يا سيدي، إذا لم نزيّف فمّن أين نأكل؟ أخبرني: هل يمكن كسب الخبز بالصدق؟ فقلت له: قد بلغت الكبر، فهل رزقت إلى الآن بالكذب فقط؟

١٩١٢/١٢/١٠

ذات يوم في أثناء الإقامة في جيبور طلب الراجا من رجاله شراء صنم له، فأحضر له صنّاع الأصنام أصناما كثيرة في وقت متأخر من الليل. فقال لهم الراجا: غدا سأرى. فضمّ الصنّاع صنما مكسورا إليها، ثم قالوا صباحا للراجا: إن عمالك كسروا رقبة أحد الأصنام، أي حطموه. فقلت له: أنا المسلم الوحيد هنا، لكن هؤلاء لم يسمحوا لي حتى بالاقتراب من هذه الأصنام. فقال الراجا: هذا هو دأب صنّاع الأصنام. فدفع لهم ثمن ذلك الصنم المكسور.

عندئذ قلت: كيف يمكن أن ينفعكم من لم يستطع الدفاع عن نفسه حتى قد حطمه أحد ولم يقاوم.

١٩١٢/١/١٥

قد استفسرت من المشرفين على السجون وحرّاسها في المحافظات المختلفة عن السجناء، فعرفت أن أغلبية السجناء هم مسلمون. فمثلا حين سألت مدير سجن واحد عرفت أن ٣٢٢ من مجموع ٣٣٥ سجيناً في السجن مسلمون والبقية ١٣ هندوسا. وفي المحافظة نفسها كان عدد الطلاب في المدارس ١٤٠٠ وكان من بينهم ١٤ فقط مسلمين والبقية ١٣٨٦ هندوسا. فتأملوا وتدبروا، واستغفروا الله واخشوه.

١٩١٢/١/٢٠

رأيت شابا متماديا في ارتكاب الفسق والفجور، حيث كان منغمسا في الملاهي والملذات ليل نهار. لم يكن بيته في طريقي، لكني مع ذلك كنت أمرُّ عليه قصدا، وإذا وجدت أحد العاملين عنده وقفت لأتكلّم معه قليلا إذا تكلم كلاما مزوّرا، وكنت حائزا على وجهة ملحوظة هناك، ومعلوم أن وقوف أي وجيه هناك وحديثه لا يكون عديم الجدوى. فرويدا رويدا حصلت لي المعرفة والعلاقة بهم. ذات يوم جاءني أحد رجاله ظهرا، ففهمت أن العقدة ستحل اليوم. فلم يقل لي شيئا وإنما ظل واقفا ساكتا. فلما لاحظته هكذا بادرت في القول: تعال نُخرج. فخرج معي فورا، ومشى معي ساكتا خجلا، وعند وصولي إلى الشاب الفاسق انصرف جميع الحضور وبقيتُ أنا وحدي مع ذلك الزعيم.

فقلت له: تفضّل ماذا تريد؟ فامتنع عن الحديث. فهتمت المشكلة من وضعه ففتحت إزاره بمنتهى الشجاعة دون أن يقول شيئاً، فلاحظت أن الجزء الأكبر من ذكّره قد تآكل بسبب قرح الزهري. عندها أدركت أن في خضم الأفرح والملاهي هناك ألمٌ كبير، فلا يبطش الله بأحد عبثاً دونما سبب.

١٩١٠/١/٢٧

بعض الناس ينهمكون في الاعتناء باللباس، فعندما كنت في ولاية بهوبال ذات يوم كان هناك عرس في العائلة الملكية، وكان لي تلميذ ما زال حائزاً على منصب مرموق هناك، فقال لي: أنا أيضاً سأحضر العرس، فجاء من البيت مرتدياً أفخر الملابس حيث كان يبدو أنه من ذهب، فلما جاء قال لي: ألم تغير الملابس؟ فقلت له إن صاحبي "هدايت الله" قفل البيت وانصرف، فرافقته هكذا. فلما وصلنا إلى الغرفة الأولى كان يسبقني فأوقفه البواب فتقدمت وقلت له هو معي. فقال: حسناً. فقلت للبواب: ألا تنظر إلى لباسه؟ فقال: اللباس لا يهم، إذ يمكن أن يستأجر كل إنسان لباساً أفضل من هذا، فلما تقدّمنا عرفنا أن هناك بلاطاً خاصّاً، حيث لا يستطيع أحدٌ حضوره إلا أفراد العائلة وبضعة أشخاص متميزين، فقال لي البواب: تفضل بالدخول، أما صاحبي ذلك فأجلسه في شرفة، حيث كان بعض الزعماء جالسين أيضاً سلفاً، باختصار دخلت ذلك البلاط في لباس عادي بسيط، دون أن يعني أحد.

١٩١٢/٦/٢٢ في بيته ظهراً

أنا أحب جدّاً سبعا من الفواكه؛ أربع منها من خارج الهند وثلاث من الهند، هي: التمر والعنب والرمان والتفاح والمانجو والموز وبرتقال الكلمنتينا.

١٩٠٧/١/٨

ذات يوم ذهبت للإدلاء بشهادة في المحكمة، وهناك سألني المحامي هل أنت مولوي؟ قلت لا، فصمت، والحقيقة أنه كان يريد أن يرفع ضدي قضية بالحلف الكاذب، ذلك لأني لو قلت إني مولوي لسألني إبراز شهادة المولوي، لأنه لنيل شهادة المولوي لا بد من التقدم لامتحان في جامعة البنجاب، فهناك شهادات "المولوي"، و"المولوي العالم" و"المولوي الفاضل"، وواضح أي لم أتقدم لهذا الامتحان، ومن ثم فإنما المراد من "المولوي" الحائز على هذه الشهادة من جامعة البنجاب. ففطنت إلى مكيدته بفراستي فرفضت إجابة سؤاله بكوني مولويا.

١٩١٢/٣/١٥

بعد صلاة الجمعة وجه الخطاب إلى المولوي محمد علي قائلاً له:
أنا لم أحرز أي تقدم في استخدام اللباس، فمنذ وعيت وأنا أرتدي لباساً من هذا النوع نفسه.

١٩٠٩/٥/٢٦

جاءني شيخ حاج مصاب بالزهري، فأيقنت لرؤيته أنه مصاب بالزهري، إلا أنني في الوقت نفسه غرقت في الحيرة أنه حاج ومسّن، ورجل صالح جداً، فكيف أصيب بهذا المرض؟ فلما رأني مندهشاً مذهولاً، سألني قائلاً:
لماذا أنت متحير ومذهول لهذه الدرجة، قلت له: أنا متأكد أنه ليس هناك سبب آخر لهذا المرض غير الزنا، فقال بعد قليل من التأمل: أخبرني أنت

هل هناك سبب آخر؟ قلت له: هناك سبب محتمل وحيد قد ورد في آية ﴿وَلَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (هود: ١١٤)، قال: هذا هو السبب، لأن زوجتي تمارس الفاحشة لكوني شيخا هرما ولم أطلقها.

١٩٠٩/٥/٢٩

في لاهور استمعت إلى محاضرة حيث قال المحاضر: لقد ظللت أفضل في امتحان الحساب، وهذا يدل على أنني مسلم. فقلت لأحد الجالسين بجواري: يبدو لي أنه ليس مسلما، لأن الله ﷻ يقول ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ (الإسراء: ١٣) فمن أدري بالحساب من المسلمين؟

١٩٠٩/٥/٢٩

لقد فحصت جميع تواريخ العالم بأسره، فرأيت أن الذين لا يؤمنون بالقيامة قد واجهوا الهزيمة مقابل الذين يؤمنون بالقيامة، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (يونس: ٤٦).

١٩٠٩/٦/٢٤

ذات يوم سألت مدير مستشفى المجانين: ما الفرق بين المجنون وغيره؟ قال: أنا أعيش هنا ليل نهار وأتدبر وأمعن النظر في هذا الأمر، فلم أجد أي معيار يفرق بين المجنون وغيره. كذلك سألت أحد المحامين فقال هو الآخر: لا يوجد في القانون ما يميز المجنون عن غيره. والحقيقة أن المجنون لا يتخلق بخلق عظيم، ومهما يبذل المجنون من المساعي والجهود فلا ينال أجره.

 ١٩٠٨/٧/٣٠

ذات مرة رأيت النبي ﷺ في الرؤيا قد حملني على ظهره كالأولاد الصغار، ثم همس في أذني: "أنا أحبك".

 ١٩٠٨/٨/٩

ذات يوم تناولت كمية كبيرة من حلوى "جليبي" مع الحليب، فانتفخ بطني وخرج الهواء منه، وتلقيت إلهاما "بطن الأنبياء صامتة".
لقد رأيت مسلمين يعملون بالأحاديث المروية عن أبي ذر رضي الله عنه فقط، ولا يؤمنون بأبي حديث آخر مطلقا.

 ١٩٠٨/٩/٢١

مرة أحضر لي أحدهم في قفص مولودا أبيض صغيرا جدا لخنزير، وكان يعرف أنني لم أر الخنزير قط، وفعلا أنا لم يسبق أن رأيت خنزيرا قط قبل ذلك، فقال لي: انظر ما أجمل هذا الحيوان، هل تعرف ما اسم هذا الحيوان؟ فقلت له أنا لم أر هذا الحيوان من قبل قط، لكنه قبيح جدا، فقال مرارا: كلا إنه حيوان جميل جدا. لكنني في كل مرة قلت له إني أراه قبيح المنظر، فأخبرني أخيرا أنه خنزير، فقلت له أنت أيضا صادق، وأنا الآخر على حق. سألتني كيف ذلك؟ قلت له: لعل عشرات الأجيال من عائلتي لم تره قبلي قط، أما أنت فمضت عشرات الأجيال من عائلتك تأكل لحمه، لهذا فإن جسديك تكوّن من هذا، ولذلك أنت ترغب فيه ومعجب به. فلم ينزعج من قولي هذا وقال: من المحتمل أن يكون كذلك.

١٩١٠/٦/٢١

"اللهم حبيننا إلى أهلها وحبب صالحى أهلها إلينا". جميع المدن التى زرتها فى حياتى التى أقمت فيها، قد لاحظت فيها نتائج هذا الدعاء، إذ إنَّ الذين أحببتهم يعدّون إلى اليوم صالحين، كما هم يروننى من الصالحين، ولقد حضرت أيضا مجالس الأشرار العتاة، وحماني الله.

١٩١٢/٥/٨

لقد رأيت الذين كسبوا أموالا كثيرة، فالموت يأتي فجأة حيث لا أحد يعلم به قبل مجيئه قط، فقد رأيت ثريًا عاد من المحكمة ليلا وطلب من الخادم الشاي، فلما أتى به وجده قد مات، فلم يستطع أن يتبرع بمليم واحد، وكان هندوسيا.

١٩١٢/٥/١٠

ذات يوم رأيت شخصا يدعى "غلام حيدر" يركب الخشب والقصدير على الجدران، فسألته السبب، فقال: قد رفعنا شكوى إلى حاكم المدينة أن الفئران تزعجنا. فقال: لا نستطيع أن نمنع الفئران، لهذا نعمل الآن بأنفسنا للتخلص من الفئران.

١٩١٢/١٠/١٦

ذات يوم كنت مسافرا فى القطار فى الدرجة الثانية، وكان أحد الركاب معى فى العربة نفسها وكان يعرفنى وكان يشرب الخمر كثيرا، كان ينهض مرارا ويأتينى ويطلب منى أن أعلمه القرآن ولكن بشكل صحيح. وكان يمدّ كلمة "صحيح" ويسقط بسبب السكر، وكنت أتضايق جدًّا من رائحة الخمر الكريهة، وزادنى

إزعاجا خطائبه المتكرر لي. فقلت لصاحبي الآخر: هذا يزعجني فما الحل؟ فقال: حسنا انتظرْ إلى المحطة التالية، وسوف أتولى أمره. فحين توقف القطار في محطة غوجرانواله نزل ولا أعرف ما الذي قاله لأحد الناس، ثم رأيت ذلك الشخص واقفا على الرصيف أمام النافذة، ونادى ذلك المدمن على الخمر، فلما اقترب من النافذة همس في أذنه شيئا موجزا لم أسمعه، فنزل ذلك المدمن فوراً، وخرج من المحطة حاملا تذكّرتُه، وتوجّه إلى المدينة ركضا، فقال لي صاحبي: انتهى، كن مطمئنا، فلن يعود إلى هنا. وهذا ما حدث، إذ توقف القطار هناك طويلا وانطلق، ولم يعد ذلك المدمن إلى المحطة، ولم يخبرني صاحبي ماذا طلب من ذلك الشخص أن يقول له.

١٩٠٩/٥/٧

لقد كثرت الفواحش في المسلمين جدا، ثم هم لا يعدّون الفاحشة فاحشة، فقد نصحت أحدا أن يقطع علاقته غير الشرعية بفلانة، فقال لي إنها تركت عائلتها من أجلي، وهي امرأة، وأثبتت لي وفاءها، فهل أتركها غدرا وأنا رجل؟ هذا يعادي الإقرار باللسان والتصديق بالقلب.

١٩١٢/٢/٢١

في الهند مدينة تدعى مراد آباد، كان يقيم بها رجل أحسن إليّ كثيرا، حيث خدمني كثيرا في المرض يوم كنت مريضا هناك. كانت هناك امرأة رأيتها تدخل الحمام كل صباح وتسجد على المدخل وتقول: يا سيادة الحجر هب لي ولداً أجعله يتغوط فيك.

١٩٠٩/٥/١٠

كان هناك إنسان من سلالة أحد الصالحين فأصيب بمرض شديد. ذات مرة قلت له: يجب تعلّم المبادئ الأساسية للقراءة والكتابة، فقال لي: إن القروء تتعلم، أما الأسود فلا تتعلم. فنحن سلالة الأسود ولسنا سلالة القروء، فالتعلم ليس شُغلنا، قلت له: يا سيدي إن التشبيهات لا تفيد، إذ تتعلم العقبان ولا تتعلم الغربان. فسخط عليّ لدرجة أنه أوقف العلاج عندي.

١٩٠٩/٥/٢٤

ذات مرة نشأت في قلبي رغبة في ارتكاب ذنب، فأخذت مصاحف كثيرة، فوضعت في كل جهة واحدًا منها، وتعودت إمساك مصحف واحد بيدي، كما وضعت مصحفًا على الخزانة أمامي وفي أماكن أخرى من البيت، باختصار؛ لم أترك أي زاوية من البيت تخلو من المصاحف، فكلما خطر ببالي ارتكاب ذنب وجدت المصحف أمامي، وقالت لي نفسي: إن العمل به واجب. حتى تضايقت نفسي جدا من ارتكاب ذلك الذنب، وزال التفكير فيه.

١٩٠٩/٥/٢٦

ذات مرة صُمت في رمضان وكنت مريضًا، لكنني شُفيت من مرض الإسهال، فعددت الصيام إكسيرا شافيا، لكنني فيما بعد لاحظت أنني فقدت قوة الرجولة تماما، فأيقنت أنني أخطأت حين صُمت في المرض، فهذا عقابه. فركزت على الاستغفار والتوبة كثيرا مدة ١٨ أو ١٩ يوما على التوالي، فزال عني ذلك الضعف.

١٩٠٩/٧/١١

كان هناك رجل كبير ولم يكن من سكان لاهور، فمررنا أنا وهو من سوقٍ في لاهور، فقال لي أثناء الحديث: هل تعتقد بأن عذاب جهنم أبديٌّ غير مقطوع؟ قلت لا، فقال: إذن لا داعي للخوف، لأنه أخيراً سننجو من الجحيم. عندما قال ذلك كنا نمر من المرفق في السوق، فتوقفت فوراً وأخرجت من جيبي روبيتين وقلت له: خذ هاتين الروبيتين واسمح لي بضرب رأسك بالحذاء، فلا أحد يعرفك هنا. فقال لي قلقاً فوراً: حذار أن تضربني، فقد استوعبتُ المسألة. كنت أقصد أن أشرح له: كيف يقبل أي نبيل أن يهان يوم القيامة حيث يجتمع جميع الأولين والآخرين!

١٩٠٩/١/٢٥

كان في أحد أصدقائي عيوب كثيرة، فقلت له أن يعظ الناس كثيراً، فعمل بذلك فقلتُ عيوبه تلقائياً تدرجاً.

١٩٠٩/١/٢٧

ذات يوم سألتني شخص ما رأيك في فلان، قلت له هو جيد، فقال بإصرار واستغراب هل تراه صالحاً وجيداً؟ قلت له نعم، فقال إنه لم يؤمن بالسيد ميرزا. قلت له: لا بأس حتى لو اعتبرناه ملكاً، لأن الملائكة اعترضوا على خليفة الله (آدم عليه السلام) وأنكروه خطأً منهم.

١٩١٢/٨/٨

كنت ذاهباً إلى مكان، وفي الطريق صحبني شخص كنت أعرف أنه يسيء إلى زوجته، فقلت له أثناء تبادل الحديث: قد ورد في القرآن الكريم ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ

بِالْمَعْرُوفِ ﴿(النساء: ٢٠)﴾، فهذا التعليم الرائع لم يرد في أي كتاب غير القرآن الكريم، فاستأذني في اللحظة نفسها، فسمحتُ له بالانصراف، فذهب إلى بيته فوراً، وقال لزوجته: اليوم سمعتُ من نور الدين أمراً أود أن أجربه فقط، وإلا أنا ساخط عليك، فضاجع زوجته فوراً، فأنجبت ولداً، ثم ثانياً وثالثاً ورابعاً، ثم جاءت تلك المرأة إليّ أيضاً، فسألتها كيف أتيت؟ قالت: جئت لأريك عائلتي هذه، لأن زوجي التفت إلي استجابة لنصحك. غاية القول: إن قراءتي القرآن عليه لم تذهب هدرًا.

١٩٠٦/١٢/٢٠

ذات يوم عالجت عجوزاً، فقدمت لي قرشا من النحاس من زمن السيخ، فقبلته بمنتهى السرور والامتنان، وقلت في نفسي: لو أعطيته لأحد ابتغاء مرضاة الله، فيمكن أن أجعل منه سبعمائة قرش على أقل تقدير. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (البقرة: ٢٦٢).

١٩٠٦/١٢/٢١

كان في جامون رجل أفغاني يحترمني جداً، ذات مرة جاء لأجسّ نبضه، فلاحظت أن النبض بطيء جداً، فسألته هل ارتكبت فاحشة، قال يا شيخ: ذات مرة سمعت في مجلسك مساوئ الزنا، فتبتُّ عنه قطعاً، والآن لا أكاد أقرب من الزنا. فسألته: إذن هل خرج منيُك بسبب آخر؟ قال نعم؛ قد أخذت منذ ذلك اليوم غلامين أمارس معهم الدعارة. فسألته: يا خان المحترم، أليس ذلك من الزنا؟ قال: يا شيخ، هما غلامان هندوسيان

ومن طبقة برهمن أي من عبدة المهراجا. فهل يمكن أن نمارس هذا الفعل السيئ مع الشباب المسلمين؟ فكان ذلك الأفغاني يجهل تماما أن ممارسة الجنس مع الشباب أمر سيئ، وإلا ما كان ليتحدث معي هكذا، لأنه كان يحترمني كثيرا.

وكان هناك رجلٌ مسنٌ يتقن الإنجليزية، وكلما رافقني في التزهة وغيرها وحن وقت الصلاة شارك في الصلاة. ذات يوم سألته هل أنت دائم الوضوء؟ فقال: يا شيخ، نحن نشرب الخمر ونمارس الرذيلة أيضا، لكن ذلك كله ليلا فقط، ولا نمارسها نهارا قط. ثم من عادتنا أن نستحم بالصابون صباحا، فطول النهار لا نشرب الخمر ولا نمارس الزنا، فكيف يُنقض الوضوء؟ فالوضوء يُنقض في رأيه بشرب الخمر وممارسة الرذيلة فقط. فعند إظهاره التعجب قال: يا شيخ، هل هناك نواقض أخرى للوضوء؟

فقد ذكرت هذه الأمور لأخبرك ما أجهل المسلمين في العصر الحاضر للشريعة. وإلى أين آل مآلهم؟

١٩١٢/١١/٣

لقد قال لي أحد المحامين المقيمين في جامون في محطة القطار في وزير آباد: أنت تمدح القرآن الكريم كثيرا، أخبرني من أين نتعلم النحو والصرف؟ فسألته هل بذلت الجهود في تعلم الإنجليزية؟ قال: لا، باختصار؛ قال إن تعلم الصرف صعب جدا، فقلت له أنا لم أجد في القرآن كلمة "قول" مكان "قال"، فلا داعي لتعلم الصرف، فقال ماذا عن النحو؟ فقلت له: إن القرآن الكريم مشكّل، ثم سألتني عن علم المعاني والبيان والبديع فقلت لا حاجة

لها. ثم سألت عن العروض والقافية، فقلت هي الأخرى لا داعي لها. سألت هل هناك حاجة للغة، فقلت كل مسلم في حياته اليومية في الصلاة وغيرها يكثر من الكلمات العربية حتماً، مثل السلام عليكم، إنا لله .. وسبحان الله وغيرها من التعابير. قال: كيف نترجم عبارة ﴿قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ فقلت له هي تعني أن تقولوا قولاً قوياً دون لف ودوران. فقال: حسنا جداً، من الآن سوف أقرأ القرآن الكريم يا سيدي.

جناب خان المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في هذه الأيام تؤلف السيرة الذاتية لخليفة المسيح، فعندي رغبة عارمة في أن يسجل اسمي في هذا الكتاب المبارك، لذا أود أن أقول إني يوم بايعت حضرته ﷺ قال لي في مساء ذلك اليوم أثناء إلقاء درس في إحياء العلوم: الآن يجب أن تقوي علاقتك بحضرته ﷺ. فبذلت الجهد عدة أيام فلم أنجح. ذات يوم صافحتُ حضرته بعد درس القرآن في المسجد ثم صافحته عند الباب، فوضع حضرته يده على ظهري وسألني من أين أنت؟ قلت من "نادون" في محافظة كانغره، وحين سألني عن والدي قلت: اسم والدي وزير خان، وقد توفي، ويكفلي الآن عمي حميد خان. عند سماع هذا القول ربّتَ حضرته على ظهري وقال: ينبغي أن تزورني يومياً، وتزيد حبك لي، وتكثر معرفتك بي. فبقول حضرته عرفت أنه يواسي اليتامى كثيراً، فتشجعت للذهاب إليه، والآن أزوره للقاء دون أن يصحبني

أحد. فبواسطة هذا الحديث إذا أدرجت اسمي في هذا الكتاب أكون لك
شاكرًا، ويكون لطفًا منك.

والسلام

الراقم

تلميذك محمد نذير خان فورته هائي

١٩١٢/٧/٥

تمت

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة حضرة الخليفة الأول في قاديان

رأيت من المناسب أن أضيف إلى السيرة الذاتية للخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام التي أملاها عليّ شخصيا والتي تضم سوانح حياته حتى وصوله إلى قاديان فقط، سوانح حياته في قاديان أيضا حتى الوفاة بإيجاز، فلذلك أزعجت حضرة سيدي مفتي محمد صادق، فكتب لي لطفا منه المقال التالي رغم كونه كثير المشاغل، وتهديه للقراء.

الناشر

بداية الهجرة

أبي المكرم وأستاذي المعظم حضرة الحافظ الحاج مولانا المولوي الحكيم نور الدين الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام كان محبا مخلصا للمسيح الموعود وأول المبايعين وأول المهاجرين، على روجه آلاف صلوات الله الكريم ورحماته وبركاته وعلى آله وأولاده للأبد، ندعو الله تعالى أن يمتعه بجميع الحسنات والإنعامات التي متعه بها في هذه الدنيا، بل أكثر من ذلك، وبمكّنه من قطع أشواط التقدم على درب رضوانه وقربه بانتظام، للأبد. آمين ثم آمين.

حين استقال حضرته من الوظيفة في ولاية جامون، كنت عنده، لأني أنا أيضا كنت أستاذا في الثانوية في جامون، كان دخله بين ألف وألف وخمسمائة روبية شهريا، ونفقاته التي كانت كلها في سبيل الله يمثلها أو أكثر منها، فلم تكن من

عادته قط أن يجمع المال عنده، ففي هذه الحالة لم تكن على وجهه أي آثار الحزن والهم عند استقالته المفاجئة، ولم يكن لديه إحساس بذلك. كان ينشغل يوميا في الدرس والتدريس وفحص المرضى وعلاجهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقراءة كتبه. كان يجلس في مجلسه بلا تكلف، حيث كان الناس يزورونه. وكذلك ظل جالسا في بيته كالمعتاد في ذلك اليوم واليوم التالي الذي كان لاستعداد السفر، كأن أمر الاستقالة لم يحدث أو حدث لكن حضرته عدّه بسيطاً ومن الأمور اليومية. فعاد من جامون إلى وطنه بهيره، وكانت هناك أرض واسعة من ملكه أمام بيته، فبدأ يبني عليها العيادة ودار الضيافة، ولعل ذلك كان في عام ١٨٩٢م وقد صارت بهيره محط أنظار المرضى في البنجاب كله، وبدأ الناس يقصدونه من قريب وبعيد، ويتلقى مئات المرضى علاجهم عنده يوميا، وينالون الدواء مجانا كالمعتاد، وفي هذه الأوضاع، أي أثناء إعداد البيوت، اضطر للمجيء إلى لاهور ليومين أو ثلاثة أيام، ومن هناك أراد أن يزور المسيح الموعود في قاديان لكونها قريبة من لاهور، وربما كان ذلك في عام ١٨٩٣م. كان هناك في هذا الزمن حضرة المولوي المرحوم عبد الكريم رحمته الله فقال له: تبدو مشيئة المسيح الموعود أن تستقر هنا لأنك قد فرغت من العمل، فأقم هنا. فعند سماع رغبة المسيح الموعود في إقامته هناك قال: حسنا، لن نفارق قاديان. فاستقر فيها. لم يذهب لإحضار الأمتعة ولم يطلب من أحد إحضارها، فقد قعد هناك كما جاء، هذه كانت روح طاعته، وفقنا الله جميعا لمثل هذه الطاعة.

وهكذا قد استقر في قاديان بعد الهجرة إليها، وبعدها لم يفكر قط في الذهاب من قاديان إلى بهيره، ثم طلب إحدى زوجته بأمر من المسيح الموعود

عليه السلام، كما طلب الثانية أيضا بعد فترة، ثم اشترى أرضا وبني عليها بيوتا من الطوب الخام، واستقر في المهجر حيث كان يبدو أن المثل الفارسي الذي معناه القطب لا يبرح مكانه قد صيغ من أجله فكان ولي الله والقطب في الحقيقة.

مشاغله في قاديان

يمكن أن تقسم إقامته في قاديان إلى قسمين، الجزء الأول من بدء الهجرة إلى قاديان حتى وفاة المسيح الموعود عليه السلام ويقدر بخمسة عشر عاما، والجزء الثاني هو زمن خلافته ويقدر بست سنوات. ففي الجزء الأول كان من دأبه أن يفحص المرضى صباحا باكرا، وبعد ذلك يلقي الدروس على الطلاب من كتب الحديث والطب، كما كان يلقي الدرس من المثنوي لمولانا الرومي وكتب المسيح الموعود عليه السلام أيضا فينة بعد فينة، وبعد صلاة العصر كان يلقي درس القرآن الكريم يوميا. كان يحفظ عنده أمانات الضيوف وكان يهتم بمساعدة الفقراء، وكان ينصح الإخوة الأحمديين بإحراز الحسنات واجتناب المنكر ويردّ على الرسائل الآتية من الخارج المتعلقة بمسائل دينية وطبية، أو كان يجلي على أحد. كان حضرته لا يكاد يبرح مكانه من الصباح إلى المساء، بل العشاء، حيث كان يجلس على حصير عادي ولم يكن له متكأ معين متميز. كان يأتيه كل نوع من ذوي الحاجة وينالون من فيضه، كان بيته مفتوحا للجميع للفائدة حيث لم يكن له أي حارس أو بواب، كان عادة يلقي درس القرآن الكريم على النساء أيضا. كان تلميذه الرشيد ورفيقه وأنيسه حضرة مولانا عبد الكريم عليه السلام يؤم الصلوات الخمس في المسجد المبارك يوميا طيلة حياته، بينما كان حضرته يؤم صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، وبعد وفاة حضرة عبد الكريم ظل يؤم حضرته

الصلوات الخمس في المسجد المبارك ويؤم صلاة الجمعة حيث كان يصلي المسيح الموعود عليه السلام. لم يكن من عادته الخروج للمشي الصباحي في الخارج، إلا أن المسيح الموعود عليه السلام كان يصطحبه عادة للمشي. عندما تأسست الكلية في قاديان بدأ يدرّس اللغة العربية، كان رئيس مؤسسة "صدر أنجمن أحمديّة"، وكان سيدنا المسيح الموعود عليه السلام قد قال مرة: ينبغي أن يعدّ رأي حضرته في أنجمن مساويا لمائة رأي.

تأليفه

لما كان المسيح الموعود عليه السلام يقضي أغلب الأحيان في التأليف والتصنيف، لذا لم يهتم حضرته بأعمال التصنيف احتراماً لحضرته عليه السلام، في ذلك الزمن ألّف حضرته كتاباً واحداً فقط بأمر من المسيح الموعود عليه السلام ردّاً على كتاب "ترك الإسلام" للمؤلف الهندوسي دهرم بال. لقد ألّف هذا الكتاب وقرأ هذا العبد المتواضع مسوّدته باباً باباً في مجلس المسيح الموعود عليه السلام المسائي فسّمّاه المسيح الموعود عليه السلام نفسه "نور الدين"، ولقد تولى طباعة هذا الكتاب ونشره صديقُه القديم والمخلص الصادق حضرة المولوي الحكيم الحاج الحافظ المرحوم فضل الدين رحمته الله، وفي عهد الخلافة لم يؤلّف أي كتاب.

معايشه

لم يكن له أي دخل في قاديان إلا من الطب، لكن نفقاته اليومية وإكرامه للضيوف وكفالاته لليتامى والمساكين، ومسابقته في التبرعات الدينية، كانت تتطلب مبلغاً معقولاً، والله تعالى أعلم من أين كان يؤمّن هذه النفقات والمبالغ

كلها، كان يقول: إن الله ﷻ بفضلہ يسد احتياجاتي، ويرزقني من حيث لا أحسب، فلم تكن له أي حاجة قط لا تُسدّ من الغيب.

رحلاته

- ١- لم يخرج حضرته في أي سفر بعد هجرته إلى قاديان إلا بإذن من سيدنا المسيح الموعود عليه السلام، وتفصيل رحلاته هو التالي:
- ٢- بعض الزعماء من ولاية جامون دَعَوْه إلى هناك بإصرار لبضعة أيام، وهناك أبدى الراجا الرغبة في أن يتوظف عنده من جديد، لكن لما لم يكن قد أخذ الإذن من المسيح الموعود عليه السلام في هذا الخصوص فقد رفض الطلب وعاد إلى قاديان، وقد كنت في تلك الأيام موظفا في ولاية جامون.
- ٣- ذات مرة دعاه نواب ولاية بهاولبور لعلاجه، وأخذ رجاله الإذن من المسيح الموعود عليه السلام لهذا الغرض، فعاد حضرته بعد بضعة أيام من علاج النواب.
- ٤- قد أرسله حضرة المسيح الموعود عليه السلام لمدة شهر استجابة لطلب حضرة النواب محمد علي خان الأحمدى زعيم مالير كوتله لإلقاء درس القرآن الكريم والحديث، فأقام هناك أكثر من عام.
- ٥- ذهب حضرته إلى لاهور من أجل قراءة مقالٍ للمسيح الموعود عليه السلام في جلسةٍ للآريين، هذا المقال طبع فيما بعد باسم "ينبوع المعرفة".
- ٦- في عهد الخلافة اضطر للسفر إلى ثلثان للإدلاء بشهادة في قضية، وبعد العودة من هناك ألقى محاضرة في لاهور.
- ٧- سافر إلى لاهور من أجل وضع حجر الأساس لبيت الشيخ المرحوم رحمة الله الأحمدى ومحلّه.

وعندما سافر حضرة المسيح الموعود عليه السلام إلى دلهي في ١٩٠٥م فقد دعا حضرة مولانا أيضا إلى هناك بعد بضعة أيام، كما رافق المسيح الموعود عليه السلام في سفره الأخير إلى لاهور حيث توفي عليه السلام.

عهد الخلافة

الجزء الثاني لحياته في قاديان بدأ بعد وفاة المسيح الموعود عليه السلام، حيث ألقى الله في قلوب جميع أبناء الجماعة أنه يجب أن يكون للمسيح الموعود خليفة يكون إمام الجماعة ومطاعها بصفته خليفة المسيح الموعود، فكانت جميع الأنظار مشدودة إلى حضرة المولوي نور الدين على أنه هو الوحيد الذي يستحق الخلافة، وإليه يجب أن يتقدموا بطلب أن يتولى هذا المنصب الجليل. فحضر الخواجة كمال الدين وبقية الأصحاب إلى أم المؤمنين، فأشارت حضرتها هي الأخرى رضي الله عنها أن يسلم زمام الخلافة لحضرتها. كنت أنا موجودا هناك عندما نقلت هذه الرسالة إلى حضرتها، فطلب حضرتها إبريقا من الماء وتوضأ فصلى في بيت النواب المحترم- حيث توجد المكتبة في هذه الأيام ومكتب حضرة مولانا الفاضل شير علي- وتضرع كثيرا في السجدة، وبعد ذلك اجتمع الجميع في البستان، حيث كان قد وُضع جثمان حضرتنا عليها السلام المبارك على سرير، وهناك قرأتُ مکتوبا يضم طلبا بأن يتولى منصب الخلافة، وأنا سنطيعه جميعا كما كنا نطيع المسيح الموعود عليه السلام، وكان كبار أعضاء الأنجمن قد وقَّعوا عليه. وبعد ذلك ألقى حضرتنا خطابا يتلخص في أنه كان يريد أن يكون الخليفة أحد أولاد المسيح الموعود أو صالحا آخر (من الجماعة)، وقال: لو جعلتُ أمة الحفيظ- وهي أصغر أولاد المسيح الموعود عليه السلام وكان عمرها يومذاك أربع سنوات فقط-

خليفةً لكنك مستعدا على أن أبايع على يدها. لكنكم إذا أردتم أن تجعلوني خليفة فلا بد لكم من بيعتي، عندئذ قال الجميع: سنطيعك. ثم جلس وبدأت البيعة، فبايعه جميع الحاضرين، ثم كان دعاء، وبعد ذلك صلى حضرته على المسيح الموعود عليه السلام، فالمكتوب الذي قرأته أنا والخطاب الذي ألقاه حضرته كلاهما قد نُشر في جريدة بدر. في أوائل أيام الخلافة كان يقضي معظم الأوقات على انفراد، ويكثر الدعاء، وقد بُنيت غرفة خاصة له من أجل الدعاء، كان حضرته يقول: يبدو أن حملا ثقيلًا قد وضع على كتفي، وهو يثقلني، وكان في تلك الأيام يجلس في المسجد المبارك نهارًا، لكن لما كان المرضى بحاجة إلى عنايته واجتمع المرضى في المسجد غير مناسب، فقد بدأ يجلس في عيادته بعد أيام.

تلاميذه

يبلغ عدد التلاميذ الذين قرأوا على يديه القرآن والحديث والطب المئات بل الألوف، لأن الناس كانوا يحضرون درس القرآن الكريم بكثرة، أما تلامذته الخصوصيون في العلوم الدينية فمنهم سيدنا الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام الذي علّمه باهتمام ترجمة القرآن الكريم والبخاري والمثنوي لمولانا الرومي، ومن تلامذته في الطب يوجد في قاديان حاليًا المولوي قطب الدين المحترم والمفتي فضل الرحمن المحترم وعبد الرحمن الكاغاني المحترم، والمولوي غلام محمد المحترم الذي توفي في عام ١٩٢٥.

أقاربه

كان فيضه عامًّا، فكان آلاف الهندوس والمسلمين والسيخ والنصارى مدينين له، وكان له عليهم الكثير من المنن، كان الهندوس أيضا يكون يوم

وفاته، إذ كان حضرته ﷺ يحسن إلى الجميع، أما أولاد إخوته فكان يلاطفهم جدًّا، ومنهم الحكيم مير أحمد المهاجر المحترم، المقيم في قاديان.

أحداث من عهد خلافته

الأحداث التالية لجديرة بالذكر في عهد خلافته ﷺ.

- ١- شراء أرض لحيّ "دار العلوم".
- ٢- بنيت بنايتا مدرسة تعليم الإسلام والسكن الداخلي.
- ٣- تشييد مسجد نور.
- ٤- بناء مستشفى نور.
- ٥- بناء المدرسة الأحمديّة.
- ٦- قبل العالم الكبير المشهور من "برهن بریا" مولانا عبد الواحد الأحمديّة، وعن طريقه انضم مئات الناس إلى الجماعة الإسلاميّة الأحمديّة.
- ٧- تأسست جريدة نور.
- ٨- تأسست جريدة الفضل.
- ٩- انعقدت المناظرات بين الأحمديين وغيرهم في مدن كثيرة.
- ١٠- قام الوعاظ الأحمديون في مختلف مدن الهند بنشر الدعوة.
- ١١- دعا غير الأحمديين الدعوة الأحمديين إلى اجتماعاتهم.
- ١٢- تأسس المركز الإسلامي في لندن، ووصل إلى هناك لإدارته الأستاذ الخواجه كمال الدين، وشودري فتح محمد المحترم.

مرض الموت

كان قد جرح عندما سقط من على ظهر الحصان، وبسبب تقيح الجرح أجريت له عملية جراحية، لكن صحته تدهورت كثيرا وبدأ يلبس الجوارب في الشتاء على عكس المعتاد، ويمشي متكئا على عصا طويلة، وكان يتألم عند الصعود على الدرج، وكلما مرض حضرته عينٌ ذا العزم محمود أحمد إماما للصلاة مكانه ولإلقاء الخطبة. في المرض الأخير الذي توفي فيه، قال الأطباء فيه إنه أصيب بالسل، حيث كانت تلازمه الحمى، كما كان يعاني نوبات السعال بعد كل فترة قصيرة، فأخذه حضرة النواب محمد علي خان إلى منزله، وظلَّ يؤدي حق العيادة والخدمة إلى آخر أنفاسه، وهناك توفي يوم الجمعة في ١٣/٣/١٩١٤ إنا لله وإنا إليه راجعون. وصلى عليه الجنازة حضرة الخليفة الثاني في ١٤/٣/١٩١٤ ودُفن بجانب سيدنا المسيح الموعود عليه السلام في بهشتي مقبرة، اللهم نور قبره إلى يوم القيامة.

ذريته

عند الوفاة كانت زوجته حضرة صغرى بيغم على قيد الحياة وأبناؤها الخمسة وابنة واحدة، أما من أولاد زوجته الأولى المرحومة السيدة فاطمة بي بي فكانت ابنتها بي بي حفصة زوجة المفتي فضل الرحمن حية. أسماء أبنائه الخمسة: المرحوم عبد الحي، عبد السلام، عبد الوهاب، عبد المنان، محمد عبد الله، واسم الابنة المحترمة رحمها الله بي بي أمة الحي، وهي التي تزوجها حضرة الخليفة الثاني، وله منها الآن ابنتان وابنٌ واحد ما زالوا أحياء، طول الله أعمارهم وبارك فيهم ومتَّعهم بالصحة والعافية، وتوفي محمد عبد الله من أولاده بعد ستة أشهر من وفاته تقريبا وحضرة صاحبزاده عبد الحي بعد سنة من وفاته.

وصاياہ

حسبما أتذكر قد كتب الوصية ثلاث مرات، أولها في عام ١٩٠٥م حيث كان يقيم مع المسيح الموعود عليه السلام بصحبة الأصحاب الآخرين في بستان حضرته عليه السلام بسبب الزلازل، لقد تفاقم مرضه ولم يستطع الخروج من البيت عدة أيام، فكتب وصية، وهي خلاصة بحوثه في الإيمان والعقائد والأعمال طول الحياة. وكنت قد نشرت تلك الوصية في جريدة بدر.

الوصية الثانية كتبها عندما سقط عن الحصان في أوائل عهد خلافته حسب ما تنبأ به المسيح الموعود عليه السلام وتدهورت صحته، فخطر بباله ذات ليلة أن المرض ينتقل إلى القلب، فطلب القلم والدواة ليلا وكتب على ورقة كلمتين، هما "خليفة، محمود" وسلّم الورقة لتلميذه، وطلب منه أن يحتفظ بها في ظرف مغلق، فلم تُنشر هذه الوصية، وإن كان الكثيرون قد اطلعوا على مضمونها عن طريق ذلك التلميذ، لكنه بعد أن استعاد الصحة استعاد منه الظرف ومزّقه، والقلم والدواة التي استخدمها لكتابة الوصية ما زالا محفوظين عند هذا العبد المتواضع.

الوصية الثالثة كتبها قبل بضعة أيام من إصابته بالمرض الذي توفي فيه، وأكد فيها أن الخليفة بعده ينبغي أن يكون لطيفا بمريدي المسيح الموعود عليه السلام القدامى والجدد ويرفق بهم. كتب هذه الوصية وطلب من المولوي محمد علي أن يقرأها بصوت عال مرتين، وبعد قراءته سلّمها لحضرة النواب محمد علي خان، وبحسبها تم انتخاب الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام.

بحسب الوصايا الخاصة بـ "بهشتي مقبرة" كان قد وهب أرضه للزراعة في بهيره لـ "صدر أنجمن أحمدية" في حياته، أما بيوته في بهيره وقاديان ومكتبته فقد وقفها على الأولاد.

اللهم اغفر له وارحمه وارفع درجاته في جنات علي
آمين ثم آمين

